

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

العدد الثاني - ٢٠١٣


أوراق
حرية التعبير بدون قيد أو شرط



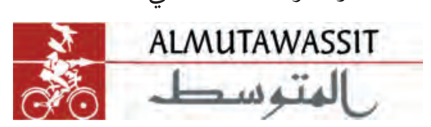
مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والابداع
تصدرها رابطة الكتاب السوريين

المراسلات: باسم مجلة اوراق على العنوان التالي:

AWRAQ
11 Lionel Road North
Brentford
Middlesex TW8 9QZ
UK
هاتف: 00442087589223
Email: awraq@syrianswa.com
Website: www.syrianswa.com

الاشتراك السنوي:
الأفراد في البلدان العربية (100 دولار امريكي)،
وفي البلدان الاوروبية (130 دولارا امريكيا)،
وفي امريكا وباقي بلدان العالم الأخرى (180 دولارا امريكيا).
المؤسسات: في البلدان العربية (130 دولارا امريكيا)،
وخارج البلدان العربية (200 دولار أمريكي).

صدر هذا العدد برعاية من مؤسسة «بناة المستقبل»
وبالتعاون مع المتوسط لتنمية القراءة والتبادل الثقافي





المحتويات

قواعد النشر في المجلة
دعوة الى الكتاب والادباء والباحثين

ترحب مجلة أوراق باسهامات المفكرين والكتاب والادباء والباحثين من الاتجاهات الفكرية والسياسية كافة وتقتصر شروط النشر في المجلة على النقاط التالية:

١ـ ان تكون المساهمات المرسلة غير منشورة سابقا إلا اذا وافقت هيئة التحرير على النشر المتزامن مع مطبوعات او وسائل اعلام اخرى

٢ـ في الدراسات الموثقة بمصادر ومراجع يلتزم المساهمون بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان النشر وتاريخه واسم الناشر، وفي حالة الاحالة الى مجلات يذكر اسم كاتب المقالة وعنوانها ورقم العدد وتاريخه ورقم الصفحة.

تلتزم المجلة بنشر كل المواضيع التي توافق عليها هيئة التحرير والتي تستوفي معايير النشر الموضوعية (بالنسبة للدراسات) او الابداعية (بالنسبة للنصوص الادبية).

تستلم المجلة النصوص مطبوعة على بريدها الالكتروني

Awraq@syrianswa.com

واذا فضل المساهم ارسالها بالبريد فيرجى ارفاقها بقرص مدمج او شريحة ذاكرة.

٣ـ أن لا يريد حجم الدراسة او البحث عن خمسة آلاف كلمة إلا باتفاق سابق مع ادارة تحرير المجلة، ويفضل ارفاق الدراسة بملخص صغير عنها لا يتجاوز ٥٠ كلمة.

٤ـ ان لا يزيد حجم مراجعات الكتب عن ١٥٠٠ كلمة ويدوّن في أسفل المراجعة عنوان الكتاب واسم مؤلفه ومكان نشره وتاريخه وعدد الصفحات.

٥ـ يرفق مع كل دراسة او مقالة او نص تعريف بالكاتب وعمله الحالي

٦ـ لا تعاد المواد المعتذر عن نشرها الى أصحابها.

٧ـ يجري اعلام الكاتب بقرار هيئة التحرير خلال شهر من تاريخ تسلم النص.

٨ـ تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص المجازة للنشر وفق خطتها التحريرية.

٩ـ تلتزم بتقديم اشتراك مجاني لمدة سنة لكل شخص يساهم في الكتابة لها ما دامت مستمرة في النشر

١٠ـ باستثناء الحالات التي تطلب فيها المجلة من كتاب بعينهم الاشتغال على ملف او دراسة او نص ادبي اعتبار ذلك عملاً مأجوراً تقدر هيئة التحرير قيمته على ان تبلغهم بذلك مسبقا، فان كل المساهمات الأخرى ستكون غير مأجورة.



محاولات اختزال الثورة السورية

صادق جلال العظم

يصدر العدد الثاني من مجلة رابطة الكتاب السوريين «أوراق» وثورة الشعب السوري تتعرض لعدة أنواع من محاولات الاختزال.

النوع الأول، اختزالها إلى حال الاستنقاع الذي تعيشه الثورة في اللحظة الحاضرة نتيجة التوازن القلق والهش بين قوى الثورة العسكرية والمدنية من جهة وقوات النظام الضاربة بأسلحتها التقليدية والكيمياوية من جهة ثانية. يتمثل الاختزال الثاني في تصوير الثورة على أنها لا أكثر من «لعبة» صغيرة وتافهة على هامش لعبة الأمم الكبرى على المسرحين الاقليمي والدولي. أي أن الثورة هنا لا تتعدى كونها حالة اقتتال عبثي بين السوريين أنفسهم. أما الاختزال الثالث، فهو اقتصادوي بامتياز يرد الثورة بفجاجة لا تجارى إلى العوامل الاقتصادية وحدها تقريباً بجداولها الاحصائية الكثيرة ورسومها البيانية المتعددة وما شابه، متجاوزاً بذلك العنصر البشري المباشر والمحرك الأول للثورة بمشاعره ودوافعه وإحباطاته وطموحاته وغضبه وقهره ومعاناته الطويلة من الطغيان والعسف والإذلال والفساد والابتزاز وانسداد الآفاق جميعاً.

هناك أيضاً اختزال للثورة إلى مجرد تعبير عن صراع حراكات الإسلام السياسي التي يعج بها العالم العربي اليوم إن كان ذلك الإسلام السياسي البترودولاري الإيراني أو شقيقه النقيض أو الإسلام السياسي الجهادي التكفيري الجوال من بلد إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع ثانٍ.

لذا يجب أن لا ننسى أبداً أن التوازن الهش والقلق بين الثورة وعدوها الرئيسي المتمثل في الطغمة الحاكمة في سوريا جاء نتيجة تضحيات هائلة حولت النظام العسكري – الأمني الذي كان يدّعي بأن معدنه من الفولاذ الذي لا يقهر أو يلين على يد أحد إلى لا أكثر من أمير حرب صغير محاصر في المنطقة الخضراء من دمشق الصغرى ومضطر لاستجلاب الميليشيات وجموع المرتزقة من الدول المجاورة ليبقي نفسه على قيد الحياة، هذا على الرغم من تسليحه العالي التقليدي والكيماوي وتفوقه العسكري بكل المقاييس المعروفة.

ولا ننسى أيضاً أن الثورة في سوريا، مهما كانت خلفياتها الاقتصادية والاجتماعية الأبعد، هي ثورة شعب شبع قهراً وظلماً وخضوعاً وتهميشاً فنقل نفسه بنفسه وبضربة واحدة من موقع الموضوع المستكين والهامد إلى موقع الذات التاريخية الفاعلة والفعالة والمقررة لمصيرها ولمستقبلها ولتحررها. فرواد الثورة الأوائل في درعا لم يصرخوا في وجه بشار الكيماوي عند الاجتماع به مبكراً «أفقرتونا اقتصادياً، فثرنا» بل صرخوا فيه: «أذللتونا وأهنتونا، فثرنا».

كما أن لعبة الأمم الكبرى والأصغر من الكبرى نادراً ما تصنع الثورات أو تكون صديقة لثورات الشعوب لأن مصالح لعبة الأمم إياها تبقى مع الحفاظ على الواقع الراهن مهما كان بائساً والدفاع عن الاستقرار القائم مهما أضحى لا يطاق.

ولا ننسى كذلك أن الثورة في كل مكان تعني وجود تسلط سياسي واجتماعي يستدعي الانتفاض الشعبي لإزاحته ويتطلب الثورة عليه لكسر الانسداد التاريخي الذي يمثله هذا التسلط ولفتح أفق جديد لتطور المجتمع الثائر والمنتفض تخلّصه من حال الركود والتعفن المهيمنة عليه، ذلك بغض النظر عما إذا كان هذا التسلط من النوع المحلي أو الوطني أو البلدي أو الغريب. فلو أن الانتفاض الشعبي على هذا النوع من الظروف كان مجرد اقتتال بين السوريين لما كان من معنى أو لزوم لأية ثورات في المجتمعات الإنسانية عموماً. وبالتأكيد لم تكن الثورة الإسلامية في إيران، على سبيل المثال، مجرد حالة اقتتال عبثي بين الإيرانيين لا أكثر.

ولا ننسى أخيراً أن مناخ إسلام التوتر العالي الذي تعيشه الثورة في سوريا اليوم وصراع فصائل الإسلام السياسي على أرضها تبقى حالة طارئة غير مرشحة لأن تدوم طويلا، كأي حالة توتر عال وتأزم شديد وتطرف كبير في أي مجتمع من المجتمعات. كما أن «تكفير» النظام العسكري الأمني للمجتمع السوري الثائر ومعاقبته بجميع الوسائل والأسلحة الممكنة وغير الممكنة على «كُفره» بحكم إلى الأبد وعائلته ونظامه القمعي القهري لن تودي بسوريا الجديدة بالضرورة إلى الوقوع في قبضة أي فصيل من فصائل الإسلام السياسي المعروف.


٥٠٠ يوم حصار .....
صرنا كبار
أطفال حمص المحاصرة
المحاصرة

اوراق الفكر

«نحن» و«هم» ومأزق الثقافة الديمقراطية في عصر الثورة

عزمي بشارة

عن الأجندات البحثية

لأسبابٍ مختلفة سياسيّة جيوستراتيجيّة، وثقافيّة، دينيّة وغير دينيّة، ازدهرت في العقود الثلاثة الأخيرة الأبحاث حول الموضوعات المتعلّقة بالإسلام والديمقراطيّة، وتخصّصت فيها مراكزُ كاملة. وغالباً ما أُجريت الأبحاث وأُقرّ تمويلُها بناءً على أجنداتِ مؤسّساتٍ أكاديميّة غربيّةٍ ومراكزَ بحثيّة ذات علاقة بالمؤسّسة السياسيّة في الغرب من جهة، والمؤسّساتِ الإعلاميّة من جهةٍ أخرى. وقلّما بُحث الموضوع بناءً على جدول أعمالِ التحوّل الديمقراطي في الوطن العربي نفسه. أمّا في السياق العربي، فقد اتّخذ البحث مسارَيْن لا ثالثَ لهما، يفترض أن يقود أوّلهما إلى تفسيرٍ «للاستثنائية العربية» في سياق موجة التحوّل الديمقراطي العالمية بتحميل المسؤولية للإسلام، ويفترض أن يقود الثاني إلى تبرئة الإسلام من هذه التهمة، بتفسيراتٍ نظرية حول توافق الإسلام والديمقراطية. والموضوع برمّته وهميٌّ مثل موضوع المسيحيةِ والديمقراطية، والبوذيّة والديمقراطية. واوُ العطف هنا توهم بوجود علاقة. وهذه لا يمكن تفسيرُها بالعلم. ولهذا فغالباً ما تتحوّل واو العطف في مثل هذه الحالات إلى «واو

العاطفة».

وبالمجمل كان علينا أن نشرح ونبرّرَ لماذا لا يحصل تحوّلٌ ديمقراطي في العالم العربي. وهذه من الحالات النادرة التي لا يُكتفى فيها بتحميل العلوم الاجتماعية مسؤولية تفسير ظاهرة، بل يُطلب منها أيضاً أن تفسّر غياب ظاهرة، وهو ما قد يُفقد البحث بوصلتَه العلمية، فينزلق إلى الشطح الفكري والتأويل، أي يحوّله إلى علم في الغيب والغائب، من مثل أن نشرح لماذا لم تنشأ الديمقراطية أو الرأسمالية في بلادنا، مع أنّ العلوم الاجتماعية لا تكاد توفّر لنا الأدوات لنشرح لماذا نشأت في أوروبا، فما بالك بشرح سبب عدم نشوئها في أماكنَ أخرىّ!

وبالمجمل، اتّخذ البحثُ مساراً آن الأوان لمراجعته، هو مسار مقاربة الثّقافة السياسيّة كعائق رئيس أمام التحوّل الديمقراطي، وهي الفرضيّة الأولى. ويُكتفى عادةً بفحص جزئيٍّ لصحّتها، من نوع أنّ الإسلام هو الثّقافة السياسية أو المكوّن الرئيس فيها. وأقصى ما يصل إليه الفحص هنا ذلك التمييز بين ثقافات سياسيّة إسلاميّة بناءً على أنماط التديّن، وبناءً على التوزيع الطبقي والجغرافي من جهة، وأيديولوجيات الحركات الإسلاميّة من جهة أخرى، وغير ذلك، هذا إذا كان موضوعيّاً ولم يخلط الثقافة بالصفات الثابتة شبه العرقيّة؛ والفرضيّة الثّانية أنّ الثقافة السياسيّة عاملٌ مصيريٌّ في التحوّل الديمقراطي؛ والثّالثة أنّ الدين يلعب دوراً أكبر من الأيديولوجيات الأخرى في صنع الثّقافة السياسية. والرّابعة أنّ الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة تيارات دينيّة قبل أن تكونَ أحزاباً سياسيّةً أيديولوجيّةً مثل بقيّة الأحزاب الأيديولوجيّة، سواء كان ذلك على مستوى تمسّكها بالفكرة أو تخلّيها عنها في الممارسة البراغماتيّة. يمكنُ بسهولة أن نبيّن عبر العمل الإحصائي المسحي والأدوات التحليليّة النظريّة السوسيولوجية المكتسبة باستقراء تجارب شعوب أخرى، أنّ الفارق في الثّقافة السياسية الشعبيّة بين المتديّن وغير المتديّن في مجتمعاتنا فارقٌ ضئيل؛ ويصحّ ذلك بدرجة أقلّ على مستوى النخب. كما يمكن أن نبيّن بأدواتٍ نظريّة أنّه إذا كان القصدُ بعبارة «فعل الدين في الثّقافة السياسيّة»، تأثيرَ الموروث التاريخي الديني، فإنّ تأثيرَه لا يقتصر على المتديّنين وإنّما أيضاً يتجاوزهم إلى غير المتديّنين، فهو يؤثّر في ثقافة المجتمع ككلّ. وسبق أن كتبت في المسألة العربيّة أنّ الاستبداد في منطقتنا، سواء كان دينيّاً أو علمانيّاً يستند إلى الموروث الحضاري ذاته، ويستخدم الأدوات الحديثة نفسها في الحكم في الوقت ذاته، كما يمرّ بالتفاعلات ذاتِها مع الحضارات والمجتمعات الأخرى.

ولا شكّ في نفسي أنّ فهم الموروث الحضاري ضروريٌّ للمتديّنين والعلمانيين على حدٍّ سواء؛ لأنّه يؤثّر فيهم جميعاً سلباً وإيجاباً. ولا أقصد بـ«سلباً» التأثيرَ السلبي فحسب، وإنّما الانفعال وردّة الفعل السلبيّة. ولا أقصد أيضاً بـ«إيجاباً» التأثيرَ الإيجابي فحسب، وإنّما أيضاً الانفعال المستقبل الموجَب الذي يغيّر في التراث ويعيد تفسيرَه. فالتراث ليس تراثاً إلا في الحاضر، أمّا في سياقه التاريخي فهو ليس تراثاً بل حاضرٌ في زمانه. التراث تراثٌ في ضوء الحاضر، وفي ضوء فهم المعاصرين فقط، واستدعائهم له. وهذا الحضور والفهم معاً يغيّرانه

تغييراً جذريّاً عمّا كان عليه في الأصل؛ إذ يُقرأُ ويُفهم في سياقٍ تاريخي مختلف عن سياقه، وبمصطلحاتٍ لم تكن قائمة؛ ويضفي عليه إسقاطات وتأويلاتٍ ورغباتٍ معاصرة. فهو إذاً ذاتُه حين لا يكون تراثاً – وهو تراثٌ حين لا يكونُ ذاتَه.

وأخيراً، وبناءً على تجربة الأعوام القليلة الماضية الدالّة بحكم انطلاق ديناميّات عملية التحوّل الاجتماعي الكبرى من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ جديدة، يمكن أن نبيّن أنّ ثقافة المجتمعات السياسية لم تكن عنصراً فاعلاً في إعاقة التحوّل الديمقراطي، بقدر ما كانت عنصراً منفعلاً، لا سيّما حين فضّلت النخب المناهضة للتحوّل الديمقراطي، سواء كانت نخباً على مستوى المنطقة أو على مستوى كلّ دولة على حدة، تعبئة الناس ضدّ الخصم لإفشاله على الحوار معه أو الاكتفاء بمعارضته سياسيّاً. وهذا ينطبق على الأحزاب المتنافسة. ففي خضمّ الصراعِ في مرحلة التحوّل قامت أوساطٌ واسعة من النخب السياسية والإعلامية بتجهيل الناس بدلاً من تنويرهم، وأقدمت على مخاطبة غرائزهم بدلاً من عقولهم، ولم تتورّع عن استخدام الكذب البواح إذا لزم لتجنيد الناس ضدّ التحوّل الديمقراطي. فمَن يتحمّل المسؤولية في مثل هذه الحالة؟ ضعف ثقافة الجمهور الديمقراطية، أم ثقافة النخب المعادية للديمقراطية؟

الثقافة السياسية الهشّة للقواعد الشعبية قابلة للتعبئة ضدّ مبادئ الديمقراطية، وهذا طبيعي في مجتمعاتٍ لم تتمرّس بالعمل الديمقراطي، ولم تتشرّب قيَمَه، أو تنشأ عليها. ولكن المسؤولية تقع على من لم يتورّع عن تعبئة المجتمعات ضدّ هذه المبادئ، واستخدام التجهيل ذخيرةً له ضدّ خصمِه، بدل تحمّل المسؤولية عن التحوّل الديمقراطي كعملية بناء، هي ذاتها مسؤولية وطنية.

لهذا نقول: تتّخذ الإشكاليات والقضايا هذه في أيّامنا بالذات بعداً جديداً. إذ لم يعد مطلوباً التمييزُ بين الثّقافة السياسيّة للمتديّن وغير المتديّن، بغضّ النظر عن جدوى هذا التمييز وأهمّيتِه لغايات البحث العلمي ولوضع سياساتٍ تهدف إلى تجذير الثقافة الديمقراطية. وإنّما السؤال الذي يشغلنا الآن هو الثّقافة السياسية للتيارات والأحزاب السياسيّة القائمة سواء كانت دينيّة أو غير دينيّة، وفعل هذه الثقافة في قواعدها الجماهيرية. ومن الظلم (والظلم في العلوم هو الانتقائية في اختيار المعطيات لتلائم الفرضيات، والتلفيقية وغياب الموضوعيّة في المنهج، والتعميمات غير المنضبطة في الاستقراء) أن نقصرَ بحثَنا على الثّقافة السياسيّة للتيارات الإسلاميّة؛ وإنّما آن الأوانُ لمراجعة الثّقافة السياسيّة لليسار واليمين وللتياراتِ القوميّة أيضاً، وكذلك ثقافة من يُسمَّون عن حقٍّ، أو زوراً وبهتاناً بالليبراليين. فحتّى الليبرالي تاريخيّاً لم يكن ديمقراطيّاً بالضرورة في أوروبا القرن التاسع عشر؛ فما بالُك بالمتلبرل المستجدّ الذي يجهل، أو يتجاهل أن لا معنى لهذه الكنية إذا كان حاملها لا يدافع عن الحريات المدنية، والذي لا يعرف من الليبرالية وأصولِها ومبادئِها سوى التعصّب لنمط حياةٍ محدّد لا علاقةَ له بالحرية والتحرر، ولا يفقه منها سوى العداء للدين، وإن كان العداء ليس من مبادئها ولا من أصولها التاريخية أو النظرية؟

ثمّ علينا أن نبحث في العوائق الرئيسة أمام التحوّل الديمقراطي كما تبيّن، وكما كنّا نشخّصها قبل الثورات، وهي أوّلاً، أجهزة الدولة البيروقراطية وفسادُها، وفي مقدمتها جهازُ الأمن؛ وثانياً، تفاعلُها مع الريوع النفطية وغير النفطية الفاعلة سياسيا وثقافيا على مستوى الإقليم بصيغة تعاضدِ الدول والقوى الاجتماعية الرجعية المعادية للتحوّل الديمقراطي.

«نحن» و«هم»

أقول هذا وهمومُنا البحثيّة، أو باللغة التقنيّة أجندتُنا، متمحورةٌ حول التحوّلات الجارية في المنطقة العربيّة، وكيف يمكنُ أن تقودَ إلى تحوّلٍ ديمقراطيٍّ يضمن مشاركة المواطنين في العملية السياسية، ويضمن الحرياتِ المدنيةَ الأساسيةَ في آنٍ معاً، وحقوقَ المواطنة التي باتت تشمل الحقوقَ الاجتماعية والثقافية إضافةً إلى الحريات، أي تحوّلٍ يشمل البعد الليبرالي والبعدَ الديمقراطي، كما يشمل الضماناتِ الاجتماعيةَ اللازمة على مستوى السياسات الاجتماعية والتنمية البشرية.

وكنت قد عبّرت في عدّة مناسباتٍ عن رأيي في أنّ انقسام المجتمعات العربيّة بين علمانيّين ومتديّنين، أو قوى سياسيّة علمانيّة وقوى سياسيّة دينيّة (وهو الأدقّ لأنّ الناس ليسوا إمّا علمانيين أو متديّنين) لا يقود إلى تعدديّة سياسيّة بل إلى شرخٍ مجتمعي يمنع التعدديّة. والانقسام العمودي المجتمعي الذي يمنع التعدديّة السياسيّة هو الانقسام إلى هُويّات، أو ما أسميته في مناسبة أخرى، «نحن» و»هم».

والتعدديّة السياسيّة، أيّها الأخوات والإخوة، هي تعدديّة داخل «نحن»، وليس بين «نحن» و»هم». وبغضّ النظر عن عوامل التماسك الاجتماعي فـ«نحن» بالنسبة إلى النظام الديمقراطي هي مجموع المواطنين. وتتعدّد القوى السياسيّة المتنافسة على نيل ثقتهم لأنّ لها وجهاتِ نظرٍ مختلفة حول مصالح هذه الـ«نحن»، وليس على قسمتهم بين «نحن» و»هم». «نحن» المواطنون أبناءُ الوطن وبناتُه نتقبّل في داخلنا التعددية بسبب وجود عاملٍ مشترك هو الثقة الناجمة عن الانتماء إلى وحدة مصالح مواطنية بالحدّ الأدنى. «نحن» المصريّة ثارت ضدّ الاستبداد، وتقبّلت في داخلها التعدديّة في ثورة 25 يناير في الوقت ذاته. وكان الاستبداد «هم». وكان الموقف منه يضعف كلّما ثارت شجون تقارب الرئيس كأب وكأخ في إطار «نحن» هلامية أهلية بطريركية، تقوم على ديماغوية وطنية، وتنعدم فيها التعددية وتسود فيها وحدة مصير موهومة بين الديكتاتورية والرعيّة. ونحن نشهد محاولةً لإعادة إنتاجها في مقابل «هم» المتمثّلة هذه المرّة ليس بالاستبداد، ولا بعدوٍّ خارجيٍّ، بل بقطاعٍ اجتماعيٍّ شعبي واسع، بدأ بالإخوان المسلمين وقواعدهم الاجتماعية، واتسع وصار يتألّفُ من كل من يعارض ديماغوغيا تحويل عبادة الجيش إلى دين جديد.

«نحن» في مقابل «هم» تعني إطاراً مرجعيّاً قيميّاً يقبل التعدديّة في داخله فقط، ويعتبر

الآخر غير شرعي إلا في إطار «هم» خارج الـ«نحن»، هذا في حالة وجود تسامح. وقد يكون الآخر عدوّاً متجسّداً في كيانٍ سياسي هو دولة عدوّ، أو يكتسب شرعيّتَه فقط إذا تحوّل إلى كيانٍ سياسي مستقلّ بعلاقات غير عدوانية. فـ«هم» هذه تكتسب شرعية ككيان خارج الدولة، أو في مجالها المحدّد داخلَها، إذا نشأت في الدولة أطرٌ توافقية. أمّا إذا تولّدت «هم» في إطار التنافس السياسي داخل كيانٍ سياسي مشترك، فإنّ الصراعَ والاستقطاب يحكمان العلاقة بين «نحن» و»هم».

في هذه الحالة تستورد جدلية العدوّ والصديق إلى داخل الكيان السياسي. ومن هنا، وفي إطار مسعى الـ«نحن» لإنتاج الآخر كـ«هم»، يجري ربط الآخر بقوّى ودولٍ خارجية ومؤامرات. لأنّ تسهيل تخيل تهديد حقيقي من عدوّ حقيقي يتطلب أن يصاغَ كدولٍ وكيانات سياسية أخرى، ولا بدّ من ربط الخصم السياسي بها لتحويله إلى «هم» فعلاً.

وفي حالة العداء لا يعني التواصل بين «نحن» و»هم» إلا التحريضَ ونشرَ الشائعات والآراء المسبقة والتنميطات العصابية بدلاً من النقاش والحوار. ولأنّ المعايير الأخلاقيّة تصحّ داخل «نحن»، ولا تصحّ بالنسبة إلى الآخر، فإنّ الكذب يصبح مبرّراً، وكذلك تبادل القبل وضمر الشرّ في الوقت ذاته. وخلافاً لما يُروَّج في الثّقافة الإعلاميّة، فإنّ ازدواجيّة المعايير هنا لا تُعدُّ رذيلةً بل سياسة بالمعنى السلبي لكلمة سياسة كما أورثه كارل شميت للسياسة المعاصرة كجدلية العدوّ والصديق.

السياسة هنا تعني نقلَ جدلية العدوّ والصديق إلى السياسة الداخلية لتحلّ محلّ التعددية السياسية، وحتّى محلّ التعددية الأهلية للمجتمعات التقليدية. فما يصحّ لـ«نحن» لا يصحّ لـ«هم». ولا يصحّ تعميم حتّى الحقّ في الحياة وإدانة القتل. فإذا قُتل متظاهر «منّا»، يلامُ الأمنُ والجيش والإعلامُ وحتّى المؤامرة الكونيّة، وإذا قُتل واحدٌ منهم يقع اللوم عليه بأشكالٍ مختلفةٍ منها وجودُه في ذلك المكان، ومنها مظهرُه وشكلُه الذي يوحي بأنّه مختلف، ويبدأ تدريجٌ المختلف بفكرة أنّه «لا يشبهني» ليصل إلى درجة أنّه يبدو فوضويّاً أو إرهابيّاً؛ ومنها المؤامرة الكونيّةُ أيضاً. نساؤُنا يمارسن حريّة المرأة على جسدها، أمّا نساؤهم فيمارسن جهادَ النكاح. أو العكس، نساؤُنا يمارسن الجهاد أمّا نساؤهم فمنْحلّاتٌ أخلاقيّاً واجتماعيّاً. وإذا التقى أحد »نا» مع سفيرٍ أجنبي فهذه ضرورات وبراغماتية سياسية، وفي بعض الحالات إنجازٌ وطني؛ وإذا التقاه أحد »هم» فهو خائن بغضّ النظر عن سياق اللقاء وأهدافه. وإذا تراجَع أحد »نا» عند أوّل تهديدٍ وسلّم سلاحَه للأميركان فإنّه براغماتيٌّ حاذق فوّت الفرص على المعتدين، ويُصطنع حتّى انتصارٌ سياسيٌّ وهميٌّ وكاذبٌ؛ أمّا إذا وقّع أحد »هم» اتّفاقَ وقفِ إطلاق النار بعد مقاومةٍ باسلة فهو مفرّط في الحقوق، بغضّ النظر عن الظروف.

تؤسس علاقة «نحن» و«هم» لمعاييرَ مختلفة، وتتّسق مع إنتاج جماعةٍ عصبوية، وهي تعيق التعدديّة السياسيّة في الإطار ذاتِه. ويمكن فهمُ ذلك في حالة «نحن» في مقابل الاستبداد، وهذه حالة الثورة الشعبية كما في الصراع على الحياة والموت إبّان الثورة، ويمكن

فهم « نحن » و« هم » في حالة الحرب التي تَجري التهيئةُ لها بالتعبئة والتجييش وكتم التعدّدية الداخلية. أمّا انقسامُ المواطنين خلال عملية التحوّل الديمقراطي إلى « نحن » و« هم »، وتحريض القوى السياسية، وتعبئةُ الإعلام على ذلك، فتنذر بخطرٍ محدق بالديمقراطية ذاتها.

يصحُّ هذا على كلّ خلافٍ سياسيٍّ أو أيديولوجيٍّ يتحوّل إلى هويّة تشكّل مرجعيّةً سياسيّة مثل الطوائف والجماعات الثقافيّة إذا سُيّست، أو حمِّلت تاريخاً منفصلاً وسرديّةً تاريخيّةً خاصّةً بها، وإذا جُعلت نمطَ حياةٍ ذا بعدٍ سياسي. وليس المقصود بذلك أبداً أنّ التعدديّة الثقافيّة لا تصحّ، وأنّ تعدديّة أنماطِ الحياة لا تستقيم مع المجتمعات الديمقراطية، وإنّما أقصد تلك التي تحوّل إلى مرجعيّة ثقافيّة سياسيّة لتشكلّ هويّةً سياسيّةً شمولية ونمطَ حياة في آنٍ معاً بهدفٍ سياسي هو تعبئتُها ضدّ المنافس الذي أصبح من الآن فصاعداً، الخصمَ والعدوّ.

يفرض الانقسام الديني العلماني على المجتمع هويّاتٍ غير قائمة. إنّه يصنع هويّات لتبرير تحويل التنافس إلى عداء. وتتوفّر في هذا الانقسام عناصرُ الشرخ الاجتماعي لأنّه يحوّل الصراع إلى صراع على نمط الحياة، ويسْهُل اصطناع علاماتٍ له في المظهر الخارجي والسلوكي. هذا ما دفعني إلى التأكيد على أنّ الانقسام العلماني الديني لا يمكن أن يكون في مجتمعاتنا انقساماً سياسيّاً تنافسيّاً، بل لا بدَّ أن يتحوّل إلى مواجهةٍ يحاولُ كلّ طرفٍ فيها أن يسودَ الآخر، أو أن يُخضعه لهيمنته الثقافية والسياسيّة، هذا مع أنّ « الطرفين » المزعوميْن علمانيّان من حيث أهدافهما السياسية الدنيوية، وكلاهما متديّن من حيث ثقافة قواعده الشعبية. ولا أدلّ على ذلك من سخرية الواقع نفسه من السياسيين. وهو الذي دعا قيادة الانقلاب العسكري (الذي يُصوّر وكأنه علماني ضدّ إسلاميين) للاستعانة بفتاوى دينية في تبرير قتلِ المتظاهرين بوصفهم خوارج، أو بوصفهم خارجين عن الملّة. هنا ثورة مضادة مبرَّرة شعبيّاً بالعداء للأخونة تستخدم قيادتها العسكري فتاوى دينية تبرّر القتل شرعاً. أي أنّ الدين استُغِل أسوأَ استغلال يمكن تخيّله. لقد استُخدم في السياسة ضدّ الخصوم، ولتبرير القتل بالذات، وبحججٍ دينية.

التيارات الأيديولوجية والديمقراطية

تذكرون الحوارات الطويلة التي جرت طوال العقد الأخير من القرن العشرين بين أطراف المجتمع السياسي العربي الداعية إلى الديمقراطيّة والمحذّرة منها، لأنّها قد تأتي بالإسلاميّين. لم تجْرِ هذه الحوارات سرّاً، وإن كان المحذّرون من خارج منظّري أنظمة الاستبداد القائمة يساجلون بخجل بصيغة أسئلة وتساؤلاتٍ من نوع: وما الضمان لعدم قدوم الإسلاميين إلى الحكم في حالة اختيار الحكّام في انتخابات؟ وما الضمان أنّهم إذا حكموا سيسمحون بانتخاباتٍ أخرى؟ أليست الديمقراطيّة بالنّسبة إليهم سلّماً يصعدون به إلى الحكم ثمَّ يسحبونه إليهم؟

أليس الحكم الديني الشمولي أكثر خطراً من الدكتاتوريات العسكرية؟ لقد سال الحبر مُهراقاً على هذه النقاشات والمناظرات. وغالباً ما جرى الاستشهاد بتجربة الجزائر إلى درجة أنّها تستحقّ تسمية «متلازمة الجزائر»، والتي لم تقد إلى حكم الإسلاميين بل إلى حربٍ أهليّةٍ ناجمةٍ عن الانقلاب على العمليّة الانتخابيّة، هذا إذا تناولنا الوقائع وحدَها من دون النوايا. فنحن لم نعرف الكثير عن نوايا الإسلاميين هناك لو حَكموا قبل أن يتعرّضوا للقمع والتنكيل. وأخشى أنّه في ما يتعلّق بالموقف من الديمقراطية أصبح للإسلاميين سرديّة، وهي تتضمّن متلازمتين، متلازمة الجزائر؛ ومتلازمة مصر الأبعد أثراً. ففي الأخيرة فاز الإخوان المسلمون في الانتخابات، وحكم مِن بينهم رئيسٌ مدّةَ عام كامل. وربّما حكم اسماً دون أن يحكم فعلاً، فجهازُ الدولة لم يتعاون مع الرئيس المنتخَبً في الواقع. هنا خاضوا مؤخّراً انتخاباتٍ ديمقراطيّةً نزيهة، وفازوا بالانتخابات في جولاتٍ متعدّدة. وفي النّهاية، وفي السطر الأخير لم يحترم جهازُ الدّولة القائم، أو ما يسمّى هناكً الدّولة العميقة، هذه النتائج، ولم يتعاون مع الحكم المنتخَب، وحين توفّرت القاعدة الشعبية المتضرّرة من مشكلات مرحلةِ التحوّل الصعبة وعدمِ استقرارِها انقلب عليه. وتحالفت معه في ذلك قوًى سياسيةٌ كانت قد خسرت الانتخابات.

وكانت النتيجة إجهاض عمليّة التحوّل الديمقراطي في مصر، بما في ذلك من إسقاطات على المنطقة كلِّها، والانحراف بمسار التحوّل الديمقراطي إلى وجهاتٍ أخرى مازالت مجهولةً، لأنّ الديناميكيّة الاجتماعيّة الناجمة عن الانقلاب العسكري من فعلٍ وردود فعل ما زالت غيرَ واضحةِ المعالم بصورةٍ كاملة حتّى الآن. وأسوأ هذه الاحتمالات دوامُ الحكم العسكري، واستنتاج أوساطٍ غير منظّمة في قواعد التيار الإسلامي عانت من القبضة الأمنيّة فشل المشاركة في العملية الديمقراطية والانتقال إلى وسائلَ أخرى، ومحاولة قوى الثورة المضادّة في دولٍ أخرى تقليد التجربة المصرية.

ما الذي كان مطلوباً من الحركات الإسلاميّة منذ أن انطلقت عمليّةُ الإصلاح السياسي في بعض بلدان الوطن العربي، وظلّت تتعثّر دون أن تُفلت الديكتاتوريات زمامَ المبادرة منذ منتصف الثمانينيات وحتّى عام 2011؟

كان مطلوباً منها أن تقبل بالهامش الذي أتاحه الإصلاح، وأن تندمج في العمليّة السياسيّة، وأن تقبل بالعمليّة الديمقراطيّة وسيلةً للوصول إلى الحكم. لم يُطلب منها التّخلي عن موروثها الفكري والثقافي، ولا طُلب منها التخلّي عن أيديولوجيتها، وذلك لأنّ كلّ عاقلٍ يفترض أنّ الاندماج في العمليّة السياسيّة، واتّباعَ قنوات التعاون والحوار، والتنافسَ مع تياراتٍ سياسيّة أخرى في أطرٍ أوسع، لا بدَّ أن تؤثّر في النهاية في الأيديولوجية نفسها. وهذه هي أبجديات ما يدعى بالتغذية الراجعة. فالفكرُ والأيديولوجية لا يتغيّران بقرارٍ بل بالتدريج وفي البراكسيس الاجتماعي والسياسي الملموس ذاته. وكما أنّ الأهداف والظروف تقود إلى اختيار الوسائل، فإنّ الوسائل تؤثّر في مستخدميها أكثرَ ممّا يعتقد هؤلاء المستخدمون.

ويؤدّي هذا في نهاية الأمر إلى إجراء مراجعاتٍ أيديولوجية غالباً ما تؤدّي إلى انشقاقاتٍ وتغيّراتٍ في بنية الحركات السياسيّة ذاتِها. وهو ما جرى في الحركة الاشتراكيّة الأوروبية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايةِ القرن العشرين، إذ كانت أكثرَ بعداً عن الديمقراطيّة البرلمانيّة بوصفها في نظرِها شكلَ ممارسة دكتاتورية الرأسمالية، من بُعد الحركات الإسلاميّة عنها في أيّامنا. ولكن اندراجها في إطار العمل السياسي العلني النقابي والبرلماني، وإتاحة اليمين الفرصة لها للمساهمة في إدارة الدولة، وحتّى في قضايا الحرب والسلام، أدّيا إلى تغيّر أيديولوجيّة التيار الرئيس في الحركة الاشتراكية ليصبح اشتراكيّاً ديمقراطيّاً فعلاً، وإلى انفصال الحركة الشيوعية المؤمنة بدكتاتوريّة البروليتاريا التي انتهت إلى دكتاتوريّة من دون بروليتاريا. ولكن حتّى الأحزاب الشيوعيّة في الغرب استنتجت ضرورةَ مراجعة نهجِها بعد انفضاح حجم كارثةِ الستالينية، ونشأت كما تعلمون الشيوعيّة الأوروبية في ستينيّات القرن الماضي وسبعينياتِه، في خلافٍ عميق مع الكتلة السوفييتية، وذلك بقيادة الحزب الشيوعي الإيطالي. كانت تلك صيرورة جرت من خلال المشاركة في العملية الديمقراطيّة ذاتِها. وانطلقت المراجعة الفكرية من خلال الحوار مع الواقع، والاضطرار إلى ملاءمة اللغة السياسيّة معه، وعقلنتها نتيجةً لنشوء ما يسمّيه هبرماس بفضاء الممارسة التواصليّة. فثمّة فرقٌ شاسع بين خطابٍ تعبوي موجَّه للمؤيّدين في نادٍ حزبي مغلق، أو في العمل السرّي، وبين التوجّه إلى الجمهور العامّ في وسائل الإعلام بحجج يفترض أن تكون مقنعة للآخرين، وبلغةٍ سياسية وبرامجَ تثبت أنّ صاحبها قادرٌ على إدارة الدولة بتعقيدات هذه الإدارة؛ ومشكلة الحركات الأيديولوجيّة العربيّة في هذا السياق أنّها حين تخاطب جمهورَها تنسى أحياناً أنّ وسائل الإعلام موجودة، وأنّها تخاطب جمهوراً أوسعَ بكثير نتيجةً لوجود الكاميرا، وأنّها بذلك تهدم الثقة وتخرّب عملَ سنواتٍ من تغيير الصورة والخطاب. ومشكلتُها الثانية أنّها أقدرُ على صوْغ شعاراتٍ تعبوية في معارضة الخصوم، من طرح حلولٍ للمشكلات التي تعاني منها الدولَةُ والمجتمع. فالإسلام هو الحلّ، والاشتراكية هي الحلّ، والقومية هي الحلّ، وحتّى الديمقراطية هي الحلّ... جميعها، على الرغم من الفوارق فيما بينها، شعاراتٌ أيديولوجية فضفاضة تتميّز عن بعضها، ولكنّها لم تعد تعني الكثير إذا لم تكن نهجاً متميّزاً عن غيره، وامتحانه قدرته على وضع حلولٍ عينية.

وتبقى القضيّة الأهمّ في هذا السياق أنّ الحركات الأيديولوجيّة العربيّة، بيسارها ويمينها، وقوميّيها وإسلاميّيها، لم تمارس تواصلاً في الفضاء العمومي، أي عبر الممارسة السياسية للخطاب، لأنّ الاستبداد لم يتح لها الفرصة لذلك. وظلّت مراجعاتُها نظريّةً، أثبت الواقع أنّها سطحية وهشّة. فمن السهل أن تكون معارضاً وأن تطالب بالديمقراطيّة، ومن السهل أن تكون معارضاً محكوماً من نظام ديكتاتوريٍّ، وأن تتنصّل من تاريخ الدكتاتوريات التي كنت تدعمها. ينطبق هذا على ذلك الجزء من اليسار الذي لم يكن ديمقراطيّاً، ووقف ضدَّ الديمقراطية في دولٍ عديدة، وغيّر رأيه بعد انهيار المنظومة الاشتراكية، أو خلال هذا

الانهيار، أي أنّه تغيّر بعواملَ خارجيّة، وليس بفعلِ قناعات عميقة ناجمة عن الممارسة. وينطبق ذلك بدرجةٍ أكبرَ على القوميّين الذين حسبنا أنّهم قاموا بمراجعةٍ لمراحل وجودِهم في الحكم، فإذا بهم وفي خضمّ نشوء التحالفات مع جهاز الدولة القديم للتخلّص من خصومهم يقدّسون أسوأ مظاهر مرحلة حكم التيّار القومي، ألا وهو الطابعُ الأمني العسكري المستهتر بحقوق الإنسان، والشعاراتُ الجوفاء، ويهملون الجانب الإيجابي في تلك الفترة، وهو البعدُ المتعلّق بمشروع بناء الأمّة، والحقوقُ الاجتماعيّة، واحترامُ الفئات الشعبيّة، حتّى في مرحلة الصراع مع الحركات الإسلاميّة في حينه، والتي اضطُهدت ولوحقت وزُجّ بأعضائها في غياهب السجون.

ليس في الأحزاب الأيديولوجيّة العربيّة من يمكنه الادّعاء أنّه أكثرُ ديمقراطيّةً أو ليبراليةً من الآخر. وحين لم يتمكّن من الحكم وحدَه، كان كلٌّ منها مستعدّاً للتحالف مع جهاز الدّولة القديم، وحتّى مع فلول النظام القديم لإلحاق الهزيمة بالطرف الآخر بعد الثورة. ومن هنا، فإنّنا نرى أنّه في ظلِّ غياب الثقة بالثّقافة السياسيّة للنخب الحزبيّة لا بدَّ من عوامل إلزام أولها الالتزامُ باحترام مبادئ الديمقراطيّة المقَرَّة دستوريّاً بغضّ النظر عن أيديولوجيّة الحزب الحاكم؛ والثاني تفضيل الشراكة في المراحل الانتقالية على الانفراد بالحكم لكي تراقب الأحزاب السياسيّة بعضها وتوازن بعضها، خلال عمليّة إدارة مرحلة الانتقال وإدارة الدّولة إلى أن تفرض المبادئ الديمقراطية نفسها كإجماع يسمح بالانقسام بين حكمٍ ومعارضة من دون التخلّي عن هذه المبادئ في سبيل تحقيق مكاسبَ في الخصومة.

يبرز سببان رئيسان إذاً لضرورة التحالف في المرحلة الانتقاليّة؛ أوّلهما منع حصول شرخ يؤدّي إلى انقسام المجتمع على مستوى الهويّة، وبالتّالي إلى احترابٍ تبرّر فيه الغاية الوسيلة بدل التنافس بوسائلَ مشروعة منضبطة ومجمَع عليها سلفاً. وثانيهما، غياب الثقة بالثّقافة الديمقراطيّة لكلّ حزبٍ من الأحزاب؛ وأكرّر: غياب الثقة ليس فقط بالثّقافة السياسيّة للأحزاب الإسلاميّة. فما شهدناه خلال مدة حكم الإسلاميين القصيرة جدّاً في مصر أنّهم كانوا أقلّ استخداماً لأدوات القمع ضدّ خصومهم السياسيين، ممّن حكموا قبلهم في المجلس العسكري، وممّن جاء بعدَهم في تحالف الانقلاب العسكري وخصومِهم السياسيين، إذ قامت أجهزة الأمن قبلَ فترتِهم القصيرة وبعدَها باستخدام أعنفِ الأدوات وأكثرِها دمويّةً ضدَّ من شاركوا في الاحتجاج السياسي، حتّى لو كان هذا الاحتجاج بالكلمة. كما شهدنا تبريرَ حركاتٍ سياسيّة علمانيّة استخدام العنف والقتل ضدّ المتظاهرين في حالات، وإدانتهما واستنكارهما في حالاتٍ أخرى.

وفي ظلّ غياب الثقافةِ السياسية الديمقراطية للنخب الحزبية، اعتبر كلُّ حزبٍ الثورةَ فرصةً للوصول إلى الحكم، وليس فرصةً لبناء الديمقراطية. وقاد هذا المنطلق إلى أسوأ الاحتمالات وهي اغتنام جهازِ الدولة الفرصة للانقضاض على السلطة.

ومع ذلك،

ثمّة كلامٌ خاصّ بالحركات الإسلاميّة ما زال ضروريّاً. وهذا هو موضوعنا. وأذكّر أنّ موضوعنا ليس الإسلام والديمقراطية. فهذا الأخير موضوعٌ وهميّ. موضوعُنا هو التياراتُ السياسية الإسلامية والديمقراطية. وهذا موضوعٌ حقيقي يمكن معالجته بالأدوات العلمية.

أمورٌ كثيرة يمكنُ أن تتغيّر عبر الزمن، وتضبطها الدساتيرُ المكتوبة وغير المكتوبة. ولكنّ بعضها، إذا لم يأخذ من البداية منحًى صحيحاً، فإنّ التطوّر ومرور الزمن قد يغيّرانه للأسوأ، لأنّ المسار كان قد انحرف عن الوجهة التي تقود إلى الهدف منذ لحظة الانطلاق. وهو يبتعد عنه كلّما تقدّم منه.

ومن ضمن هذه القضايا:

أوّلاً، قضية الإطار المرجعي للأمّة والمواطنة؛ لا يمكن أن يتعامل حزبٌ سياسي بواقعيّة وبنجاح في العمل السياسي الديمقراطي، إذا لم يستوعب ويذوّت مرجعيّة العمل السياسي الديمقراطي أصلاً. إنّ الإطار المرجعي للعمل السياسي الديمقراطي هو الدولة الوطنية التي تشكّل أمّةً غير الأمم الدينيّة والثقافيّة، وغير القومية؛ إنّها أمّةُ المواطنين. وهذا لا يُنقص من شأن الدين والقومية، ولا من دورهما في تأسيس المشترك الثقافي داخل الدولة ومع محيطها.

المواطنة هنا صفةٌ عامّة تنطبق على الرجل والمرأة، وعلى المتديّن وغير المتديّن، وعلى المسلم وغير المسلم. قد يتعاملُ المسلم بصفته مسلماً مع غير المسلمين بصفتهم غير مسلمين في المجال الديني، أو ربّما في مجال الأحوال الشخصيّة في قضايا حسّاسة مثل الزواج وغيره. أمّا الحركة السياسيّة الديمقراطيّة، فلا تقسّم المواطنين بين رجالٍ ونساء، ومؤمنين وغير مؤمنين، أو مسلمين وغير مسلمين، بل هي تتعامل مع المواطنين بصفتهم هذه.

حين يتعامل مسلمٌ مع شخصٍ من غير دينه، فقد يتسامح مع عقيدته أو مع نمطِ حياته أو مع مذهبه، إذا كان من الدين نفسه ومن مذهب مختلف. والتسامحُ هنا فضيلةٌ من الفضائل. أمّا الحركةُ السياسيّة الديمقراطيّة في إطار النظام الديمقراطي، فهي لا تتسامح مع غير المسلم بإقرارها بالمساواة له، وليس مسموحاً لها أصلاً أن تتسامح، إنّما هي مُلزمةٌ أن تعترف بحقوقه كمواطن، وهذا ليس فضلاً منها ولا مِنّة، ولا معنى هنا للتسامح. وهذا أحدُ الفروق المهمّة بين حركةٍ ديمقراطيّة وغير ديمقراطيّة.

وحين يتوجّه رئيسُ دولةٍ بضمير المتكلّم الجمعي "نحن"، فلا يجوز أن يُفهم من كلامه "نحن المسلمون"، أو "نحن السنّة" أو الشيعة، حتّى لو كان متديّناً وإسلامياً له أيديولوجيته. وحينما يقول "نحن" بصفة رئيس دولة يجب أن يكون مفهوماً أنّه يقصد "نحن المواطنون". هذه الأمور يُفترض أن تكون من الأولويّات والبديهيات. وعلى أساس الاتّفاق عليها تجري النقاشاتُ الأخرى حول الحقوق الاجتماعيّة والسياسيّة، وحول نمط النظام الاقتصادي، وحول السياسةِ الخارجيّة، وغيرها من القضايا الكبرى التي يُفترض أنّها موضعُ خلافٍ بين الأحزاب

في الديمقراطيات.

ومن ضمن هذه القضايا ثانياً، تمييزُ الحدود بين الخاصّ والعامّ. ثمّة استغرابٌ محلّي ودولي باستحواذ المجال الخاصّ المتعلّق بحياة المواطن على تفكير حركة سياسية، وعلى تفكير قواعدها الاجتماعية. هذا العنصر على هامشيّته السياسية يصبح مركزيّاً ومحرّكاً لقطاعاتٍ واسعة من الناس إذا وضعته حركة سياسية في صلب اهتمامها عند صوْغ الدساتير، وفي خطابها الحزبي، بما في ذلك في إطار تعبئة القواعدِ ضدّ الآخرين، وكأنّ الحركة ما زالت تعيش في مرحلة الصراع ضدّ الاستعمار، وما زالت ترى في أنماط الحياة كشكلٍ من أشكال النفوذ الاستعماري. لقد استقلّت الأقطارُ العربية سياسيّاً، ولم تستقلَّ اقتصاديّاً، ولا من حيث إرادتها السيادية. ولكن ليس من خطرٍ محدقٍ بثقافتها العربية الإسلامية، إلا من الاستبداد. وإنّ الفرض والقسر والإملاء في مجالاتٍ سلوكية متعلقة بالمجال الخاصّ ونمط الحياة في إطار الحياة السياسية الديمقراطية قد تقود إلى ردّة فعلٍ متطرّفة ونتائجَ معاكسة. فليس هدفُ حركةٍ سياسية ديمقراطية تربيةَ الأبناء بدلاً من أهلهِم. ولا يُفترض أن تتدخّلٍ في العلاقات الأسريّة، وفي مأكل الناس ومشربِهم وملبسِهم في مجالهم الخاصّ. وهو مجالٌ متوسّع باستمرار ويرتبط بالعلاقة الوثيقة بين حرية الاختيار والأخلاق والإيمان. وإذا قلنا مواطن، فقد أقررنا بوجود مجالٍ خاصّ للفرد، مرتبط بجسده ونفسه، وبحرية خياراتِه الأخلاقية طالما لم تتعارض مع حرية الآخرين وحقوقِهم.

وفي هذا السياق، لا بأسَ أن نُجريَ مراجعةً للثقافة والموروث الحضاري العربي الإسلامي في مسألة المواطنة والدّولة والأمة، وهل كان ثمّة دولة بمعنى المصطلح الذي نقصده في عصرنا في التاريخ الإسلامي الكلاسيكي؟ وما هي الدّولة الحديثة؟ كلّها أمورٌ أثّرت برأيي (وما زالت تؤثّر) في المسلمين وغير المسلمين، وفي المتديّنين وغير المتديّنين. إنّ مراجعتَها فرضُ عينٍ علمي بحثيّ؛ لأنّها تؤثّر في ثقافتنا السياسية عموماً. ولكن حسم موضوع المواطنة والأمّة بالمعنى أعلاه في السلوك السياسي وفي الخطاب وفي البرنامج، سواء كان هذا الخطاب موجّهاً نحو القواعد الشعبية الخاصّة بهذا التنظيم السياسي أو ذاك أو الجمهور بصورةٍ عامّة، لا ينتظر مثل هذه المراجعات. إنّها مهامّ مباشرة وتحدّياتٌ ملحّة لا بدَّ للقوى السياسية من حسمها قبل الانطلاق، لأنّه إذا حسمت هذه القضايا بصورة خاطئة، يتّخذ التطوّر مساراً خاطئاً من أساسه. أمّا إذا حُسمت بصورةٍ صحيحة، فإنّ آفاقَ التطوّر تنفتح، ولا بدَّ أن تصل إلى الهدف، على الرغم من العوائق والعثرات، ووعورة الطريق، وعلى الرغم من التضحيات الجسام.

الكلمة الافتتاحية لافتتاح المؤتمر السنوي الثاني للمركز العربي للابحاث ودراسة السياسات تحت عنوان «الاسلاميون ونظام الحكم الديمقراطي»

الدعم الخارجي والمعارضة السورية المسلحة

توماس بيرييه

هل يؤدي تسليح الثوار السوريين المعتدلين إلى تخفيف أثر نظرائهم المتطرفين؟ هذا السؤال الذي أثار جدلاً واسعاً بين مؤيدي ومعارضي التدخل العسكري غير المباشر في سوريا، ربما أصبح من الماضي: فدعم المجموعات الأكثر مدنية هو ما تقوم به السعودية منذ أشهر، ويبدو أن الأمر ينجح.

في خريف العام 2011، هتف المتظاهرون ضد النظام في أنحاء سوريا ممجدين الجيش السوري الحر، الذي يقوده إلى حد كبير الضباط المنشقين عن النظام، وبالرغم من استخدام كتائب الجيش الحر لأسماء إسلامية أو اعتمادها لصيغ دينية في بياناتها، إلا أنها لم تكن تحمل أي أجندات إسلامية في تلك الفترة، ولكن الوضع تغير كثيراً مع نهاية العام 2012، حيث ندر استخدام اسم الجيش الحر بشكل كبير بين المجموعات المسلحة، وتخلى العديد منها عن العلم السوري لصالح الأعلام الدينية السوداء، وبدا أنه من المستحيل مقاومة صعود الفصائل السلفية المتشددة المرتبطة بالقاعدة كجبهة النصرة والجبهة السورية الإسلامية التي يقودها أحرار الشام، و هو فصيل له جذور قوية بين المقاتلين السوريين المتمرسين ممن خاضوا حرب العراق، حيث إن الكتائب المرتبطة بالجيش السوري الحر لعبت أدواراً ثانوية في المعارك

التي خاضها الثوار في ذلك الوقت (تفتناز، الرقة).
غالباً ما تم تفسير التطرف بين الثوار السوريين على أنه ظاهرة طبيعية، كونه نتيجة حتمية للصراع الطائفي الوحشي الذي أدى إلى زيادة انتشار الأيديولوجيا الجهادية السلفية بين المسلمين السنة من السوريين، وقد تكون هذه الرؤية مثار نقاش، إلا أن ظهور المجموعات المتطرفة خلال العام 2012 تزامن مع خفوت لهجتها، وبشكل خاص أحرار الشام وجبهة النصرة، فبالرغم من رفضهما للعلم السوري، فقد أكدتا على الشخصية السورية لجهادهما بدل الصبغة العالمية، ففي نيسان عندما أفصح زعيم دولة العراق الإسلامية أبو بكر البغدادي، بأنه كان خلف تشكيل جبهة النصرة وأعلن عن توحيد المنظمتين في « دولة العراق والشام » جوبه بتوبيخ من قائد جبهة النصرة أبو محمد الجولاني، الذي أصر على الحفاظ على « الخصوصية السورية » لمجموعته، ولاقى موقفه دعماً من زعيم القاعدة أيمن الظواهري.
أما المجموعات الرئيسية الأخرى من الثوار، وبينها أحرار الشام، فقد نددت بكل من قرار البغدادي وعهد الجولاني بالولاء للظواهري، بالرغم من أن موقفها الرافض جاء، جزئياً، على أرضية الخوف من إ إدراج جبهة النصرة ودولة الشام والعراق على قائمة الإرهاب الأمريكية، وفي الوقت نفسه يشير هذا الموقف إلى أن الجهاد خارج حدود سوريا لا يلقى الكثير من الرضى بين القاعدة الشعبية للتمرد.
أما في « العصر الذهبي » أي قبل انفصال جبهة النصرة عن دولة العراق والشام، فقد تنازل الجهاديون السوريون عن جزء من خصوصيتهم العقائدية، ولهذا كانوا يتقاربون مع مجموعات الجيش الحر، التي بدورها كانت تخضع لعملية الأسلمة. والرفض شبه العام الذي لاقاه بيان جبهة النصرة في تشرين الثاني الرافض للإئتلاف الوطني السوري فلم يقتصر سببه على بعض الخلاف على الطابع الإسلامي للدولة ما بعد الثورة (« الدولة المدنية » حسب المعتدلين) فقط، بل السبب الأهم هو تباين وجهات النظر حول المعارضة الخارجية والدول المؤيدة لها. كما أن ضم جبهة النصرة لعدد كبير من السوريين، والذي فاق مع بداية العام الجاري عدد المتطوعين الأجانب فيها إلى حد كبير، قد أدى إلى مزيد من المرونة في فرض القواعد الإسلامية في الأماكن العامة. وبالنسبة للخطاب المناهض للعلويين والشيعة، فلم يكن حكراً على الجهاديين، حيث بدأ يتزايد بين المجموعات الرئيسية للثوار كنتيجة لتصاعد الطابع الطائفي للحرب، وفي هذا الصدد، من المثير للاهتمام ملاحظة أن معاقل الجماعات السلفية المتشددة في سوريا هي في الشمال والشرق وهي المناطق التي يغلب عليها السنة حيث الصبغة الطائفية أقل بروزاً منها في حمص ودمشق.
ويعود السبب الرئيسي في نجاح السلفيين المتشددين خلال العام 2012 إلى حصولهم على موارد مالية متفوقة، كما هو موضح في العديد من التقارير الصحفية التي نشرت في ذلك الوقت، وقد جعلتهم تلك الموارد أكثر جاذبية وأكثر انضباطاً مقارنة مع المجموعات التي كانت تضطر أحياناً لتمويل نفسها من خلال عمليات النهب والممارسات الإجرامية

الأخرى. وخلافاً للقناعة السائدة، فإن المليشيات الإسلامية لم يتم تمويلها من دول الخليج التي كانت في ذلك الوقت تقدم كميات محدودة من المساعدات المادية وبطريقة غير منتظمة وشديدة الانتقائية، وإنما تم تمويلها من متبرعين أفراد.

ولم تزل هوية الشركاء الصامتين لجبهة النصرة مجهولة تماماً حتى يومنا هذا، لكن فكرة أن ملوك الخليج قد يدعمون ترخيص منظمة – كالقاعدة – تصفهم بالمارقين وقادت تمرداً مسلحاً على أرض المملكة السعودية منذ عقد مضى هي فكرة لا معنى لها.

أما بالنسبة لحركة أحرار الشام، فقد تم تمويلها منذ نشأتها من قبل الجناح السياسي للحركة السلفية في الكويت، المرتبطة بمنظِّرها حاكم المطيري الذي يحمل وجهات نظر مناهضة، بشكل خاص، للحكام السعوديين، وهي خليط من الليبرالية السياسية والجهادية كمناهضة الغرب والعداء لأنظمة الخليج. وسعت السلطات السعودية، التي حظرت الحملات الخاصة على أرضها لجمع التبرعات لصالح الثوار السوريين، إلى معارضة محاولات السلفيين الكويتيين المسيسين استخدام وطنهم، الذي يتمتع بحرية نسبية، كمركز للمتبرعين السعوديين لجمع الأموال للفصائل المسلحة المفضلة لديهم في سوريا.

استفادت الجبهة الإسلامية لتحرير سوريا، وهي الأكثر واقعية بين التنظيمات الإسلامية العسكرية في الجيش السوري الحر، من جهود جمع التبرعات لعدو آخر للبيت السعودي وهو: محمد سرور زين العابدين، وهو العلامة السوري المقيم في عمّان ومؤسس حركة «الصحوة» التي تحدت النظام الملكي السعودي في بدايات العقد 1990. وأسهمت محاولات الإخوان المسلمين في اختيار مجموعات معينة تحت مظلة منظمات مثل لجنة حماية المدنيين، ولجنة دروع الثورة في جعل مشهد المتمردين الإسلاميين أكثر إثارة للاشمئزاز في نظر الحكام السعوديين.

لا تقتصر المملكة العربية السعودية على ازدراء الإخوان المسلمين، بل جميع الحركات الإسلامية السياسية و السياسية الشعبية بشكل عام، التي تعتبرها تهديداً لنموذجها في الحكم الملكي الوراثي المطلق، كما لا تستقي السعودية سياساتها من العقائد الدينية، كما يُزعم غالباً، بل من خشيتها على استقرار المملكة، الذي يترجم إلى دعم القوى السياسية ذات الطبيعة المحافظة أو المعادية للحركات الإسلامية: أو القوى السلفية غير السياسية المنحازة إلى المؤسسة الدينية السعودية (كتائب الأثر في سوريا، الممولة من الكويت من خلال جمعية حماية التراث الإسلامي)، لكن أولاً وقبل كل شيء تدعم القوى غير الدينية كالمثقفين العلمانيين ورؤساء العشائر الذين دعمتهم الرياض مؤخراً ضد الأخوان المسلمين وقطر داخل الإئتلاف الوطني السوري. وبالطبع، في سوريا كما في مصر، تشمل تلك القوى المحافظة سياسياً الجيش، فالرياض هي القوة الرئيسية وراء العديد من المبادرات التي تهدف إلى تنظيم حركة التمرد السورية تحت رعاية الضباط المنشقين بدلاً من المتطوعين المدنيين الذين يقودون معظم المجموعات الإسلامية، ومنهم: العميد الركن مصطفى الشيخ رئيس المجلس

العسكري الثوري، اللواء الركن حسين الحاج علي قائد الجيش الوطني السوري، القيادة المشتركة للمجالس العسكرية، واللواء سليم إدريس رئيس هيئة أركان الجيس السوري الحر، ويقوم الداعية السلفي المنحاز للسعودية بالترويج علنياً وبحماس لتلك المبادرات، وقد تمت دعوته كضيف شرف عند تشكيل القيادة المشتركة. واستناداً إلى تفضيل المكونات الأقل نزعة إسلامية من فصائل التمرد، فقد أسهمت الزيادة الملحوظة في التدخل السعودي في النزاع خلال الأشهر الماضية في إعادة إنعاش الفصائل المعتدلة وانخفاض الوزن النسبي للسلفيين المتشددين، وتجسد هذا بوضوح في محافظة درعا الجنوبية بصورة خاصة حيث تم إدخال الأسلحة الكرواتية، التي تم شراؤها بالمال السعودي، من قبل الاستخبارات الأردنية بدءاً من تشرين الثاني 2012. وبالرغم من أن بعض تلك الأسلحة انتهى في أيدي المقاتلين الإسلاميين، لكنها مكّنت فصائل الجيش الحر مثل لواء اليرموك، ولواء فجر الإسلام (وينبغي عدم الخلط بينه وبين حركة الفجر الإسلامية التابعة للجبهة السورية الإسلامية) ولواء العمري. وبالرغم من أن قاذفات الصواريخ والبنادق عديمة الارتداد التي وصلت قد عفا عليها الزمن، إلا أنها أتاحت للمتمردين تحقيق تقدم ملموس في السهول الزراعية التي كان النظام حتى ذلك الحين يدافع عنها بسهولة، وبعد الهزيمة التي عانى منها الثوار في خربة غزالة في أيار الماضي، استأنفوا تقدمهم مؤخراً واستولوا على مواقع موالية مهمة في إنخل ونوى ودرعا. كما أن الأسلحة التي تم إدخالها من الأردن مكنت الثوار أيضاً من تحمل ضغط القوات الموالية للنظام حول دمشق، وفي تلك المنطقة أيضاً لعب السلفيون المتشددون دوراً ثانوياً، حيث طغت قوات الجيش الحر على المشهد كالمغاوير ولواء شهداء الإسلام، ولواء الحبيب المصطفى ذو الميول الصوفية، والفصيل السلفي لواء الإسلام، وهو عضو في الجبهة الإسلامية لتحرير سوريا، التي حظيت بالدعم السعودي بالرغم من علاقاتها مع محمد سرور زين العابدين الذي سبق ذكره، وربما كان ذلك نتيجة لثقلها العسكري في الضواحي الشرقية لمدينة دمشق.

وتنامى التيار المعتدل من المتمردين في الشمال بعد عمليات تحرير القواعد الجوية لمطارات أبو الضهور (إدلب)، ومنّغ وكويريس (حلب) والتي طغت عليها مجموعات مثل أحفاد الرسول، وشهداء سوريا، ولواء الفتح، ولواء عاصفة الشمال، وكتائب نور الدين الزنكي ولواء أبو بكر الصديق. وبالرغم من أن عناصر من دولة العراق والشام قادت الهجوم النهائي على مطار منَغ في أوائل شهر آب، لكن ما أدى إلى نهاية الحصار الذي دام تسعة أشهر هو تدمير الدبابات، التي كانت تحمي المطار، بالصواريخ الصينية الموجهة HJ-8 التي قدمتها المملكة السعودية للفصائل المعتدلة. وهذه الصواريخ التي يتم نشرها الآن في درعا، قد أدخلت إلى الشمال في حزيران بعد سقوط القصير وظهور مؤشرات على نية مليشيات حزب الله الموالية للنظام شن هجوم على غرب حلب. أتاح السلاح الجديد للمتمردين شل قوة الوحدات المدرعة التابعة للنظام في المنطقة، وشن هجوم ناجح على بلدة خان العسل،

الموقع الاستراتيجي الذي يعتبر بوابة الدخول إلى المناطق التي يسيطر عليها النظام في حلب. القسم الأكبر من معركة خان العسل تم على أيدي الفرقة التاسعة والتاسعة عشرة من الجيش الحر، والتي كانت جزءاً من معركة شاملة تضمنت إلى الآن الفرقة الأولى، والثانية، والرابعة في دمشق، والفرقة الثالثة والرابعة (مكررة) والخامسة في دير الزور، والسادسة في حماة، والحادية عشرة في الرقة، والثالثة عشرة في إدلب.

ومن المجموعات الرئيسية التي تتلقى الأسلحة الممولة من السعودية في المنطقة هي كتائب نور الدين الزنكي، وتجسد انتماءاتها المتعاقبة قدرة التمويل السعودي على إخراج فصائل المتمردين من رابطة الجهادية، حيث تأسست المجموعة كفرع من حركة فجر الإسلام المتطرفة (وهي الآن جزء من أحرار الشام)، ثم تبعت لواء التوحيد وفي نهاية المطاف انضمت إلى جبهة الأصالة والتنمية. وجبهة الأصالة والتنمية هي إئتلاف موال للسعودية تشكل من الضباط المنشقين في وقت مبكر (عبد الرزاق طلاس، عمار الواوي)، ومجموعات العشائر (بشير الناصر في دير الزور)، و السلفيين غير المسيسين (أهل الأثر)، ومن المدهش أن الجبهة لا تحمل طموحاً سياسياً ولا تركز على الميزات الإسلامية، مما جعلها مثار اشتباه في الأوساط الجهادية، التي وصفتها بأنها النسخة السورية من مجالس الصحوة التي شكلتها القوات الأمريكية في العراق من أجل محاربة تنظيم القاعدة.

من المؤكد أن السلفين المتشددين قد حافظوا على وجودهم كلاعبين مهمين في سوريا، حيث تجسد دورهم مؤخراً في السيطرة على عدد من القرى العلوية في محافظة اللاذقية، ولكنهم الآن يواجهون صعوبات غير مسبوقة، فحين أدرجت جبهة النصرة على قائمة الإرهاب من قبل الحكومة الأمريكية في كانون الأول من عام 2012، دافع عنها طيف واسع من المعارضين استناداً إلى قوتها العسكرية وحسن إدارتها للأنشطة الإغاثية، ولكن بعد انفصالها عن دولة العراق والشام في نيسان، أصبح يُنظر إلى القسم «العراقي» من المنظمة على أنه يثير شكوك متزايدة بين السوريين، فاسم دولة العراق والشام بحد ذاته يشير إلى مشكلة أساسية تتعلق بمشروعها الفقهي لبناء الدولة – سيما وأن زعيمها البغدادي يحمل بتواضع لقب «أمير المؤمنين». وقد أدى التركيز على هذا المشروع إلى ضعف المواجهة العسكرية مع النظام، وإلى فرض وتطبيق الشريعة الإسلامية على الناس بطريقة قاسية بلغت أحياناً حد الوحشية، إضافة إلى توتر متنام في العلاقات مع المكونات المنافسة في مشاريع بناء الدولة وبصورة خاصة الجيش السوري الحر والقوميين الأكراد. ومع حلول شهر آب واجهت دولة العراق والشام مظاهرات معادية في العديد من المدن، وتوترات قوية مع الجيش الحر على أثر قيام أحد أفرادها باغتيال كمال حمامي وهو أحد قادة الجيش الحر في اللاذقية، وحرباً كاملة مع الأحزاب الكردية في شمال شرق البلاد.

أسهمت تلك التطورات في إظهار الجبهة السورية الإسلامية على أنها الأكثر مصداقية بين الفصائل السلفية المتشددة المعادية للنظام، ويبدو أن هذه المجموعة استفادت من نمو

العلاقات الجيدة مع قطر مؤخراً، والتي ربما جاءت كرد فعل على نجاح المملكة السعودية في شراء فصائل من الجيش الحر كأحفاد الرسول وإخراجها من مجال نفوذ الدوحة. ففي محافظة إدلب قام أحرار الشام وشريكه (إلى حد ما) الفصيل السلفي في الجيش الحر صقور الشام باستخدام مكثف لصواريخ الكونكورس روسية الصنع، والصواريخ المضادة للدبابات التي تم شراؤها من ليبيا من قبل قطر. ولكن ربما ينبغي على أحرار الشام توخي الحذر لأن الإمارة شريك لا يعتمد عليه، فهي تتسم بطبيعتها بسياسات متعارضة، تقبل الرضوخ في بعض الأحيان للضغوط الأمريكية، إضافة إلى الدافع المزمن لإصلاح العلاقات مع المملكة العربية السعودية.

على أية حال، تُظهر التطورات العسكرية الأخيرة في سوريا بأن المعارضة العسكرية باتت تعتمد بشكل متزايد على دعم الدول المؤيدة لتأمين الخدمات اللوجستية، فقد ولت الأيام التي كانت قادرة فيها على اقتحام مواقع النظام ضعيفة التحصين ببنادق هجومية وبضعة بنادق آر بي جي، حيث تطلب تراجع القوات الموالية للنظام عن قواعد شديدة التحصين زيادة كمية ونوعية كبيرة في عملية تسليح المعارضة، وهذا ما تستطيع توفيره حكومات أجنبية فقط وتعجز عنه الطوباويات الجهادية. وبالنظر إلى أن المملكة العربية السعودية قد عقدت العزم للسير في هذا الطريق، فمن المرجح أن يستمر الوضع على تفضيل المعتدلين من المتمردين على إخوانهم في السلاح المتطرفين، في المستقبل المنظور.

ترجمة: ريما جباعي

تجربة الإِسلام السياسي في الشرق الأوسط

محمود الزيبق

مع أن المرحلة التي يكثر الباحثون في تحليلها كمرحلة جديدة في وجود «الإِسلاميين» في ساحات السياسة عقب عقود من الحجر والاضهاد والقمع هي مرحلة ما بعد الربيع العربي إلا أن فهم واقع التجربة الإِسلامية السياسية الحالية لا بد له من الرجوع إلى ما قبل الربيع العربي إلى تاريخ ليس بالبعيد ويمكن أن نحدده بتاريخ غزو العراق عام 2003 يوم تشكلت لدى الرئيس الامريكي السابق جورج بوش وإدارته فكرة الشرق الأوسط الجديد.

أرادت الإِدارة الأمريكية في تلك المرحلة أن تجد حلا لمشكلة المواجهة بين شعوب هذه المنطقة والغرب عقب أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر بآلية تقضي على «الإِرهاب» الذي طرح بوش مصطلح الحرب عليه في تلك الفترة بطريقة طويلة الأمد على الأقل أمام انعدام احتمالات إلغاء المواجهة والتصادم بشكل جذري.

انتهت أبحاث الإِدارة الامريكية إلى أن مشروع الإِسلام السياسي المعتدل المستلهم من تجربة حزب العدالة والتنمية التركي قد يكون الحل الأفضل لمواجهة «الإِسلام المتطرف» حيث تجمع تلك التجربة بين العلاقة الطيبة مع الغرب ومشاريع التنمية الاقتصادية البديلة عن الفساد والتي ستحدث طفرة نوعية في علاقة الحكومات ومواطنيها في المنطقة لا سيما حين

تكون بواجهة إسلامية تميل إلى عاطفة الشعوب الغالبة.

والحديث عن هذا التصور الأمريكي لحل المواجهة بين المنطقة والغرب ليس مجرد افتراض أو تحليل بل هو واقع تثبته خطوات الإدارة الامريكية في تلك المرحلة وأولها ما وقع في عراق ما بعد الاحتلال حيث أن إدارة بوش لم تغض النظر عن وصول الإسلاميين من السنة والشيعة إلى الحكم عقب الانتخابات فحسب بل وضعت ثقلها لدعم الاتجاه الإسلامي في الحكم هناك عقب الانتخابات الفعلية الاولى في 2005 حيث سلمت رئاسة الحكومة لإبراهيم الجعفري وهو من حزب ديني شيعي كما سلمت رئاسة البرلمان لمحمود المشهداني وهو شخصية إسلامية سنية وكان للحزب الإسلامي العراق «الإخوان المسلمون» حظ جيد في البرلمان كما ثبت أن قيادة الاحتلال العسكري عرضت منصب رئاسة العراق على عدد من الشخصيات الإسلامية السنية قبل أن يصبح منصب الرئاسة للأكراد عقب اعتزال الغالبية العظمى من السنة لتلك الانتخابات، لعل جورج بوش كان مقتنعا أن تلك الوجوه الإسلامية من الطرفين ستساهم في تهدئة الشارع العراقي نوعا ما.

الخطوة الثانية في اتجاه الإدارة الأمريكية نحو تجربة الإسلام السياسي كانت في انتخابات الداخل الفلسطيني عام 2006 يوم كانت استطلاعات الرأي تظهر أن حماس ستفوز بالانتخابات وأصرت الولايات المتحدة على أن تجري الانتخابات بنزاهة لتفوز حماس. يمكن القول أن إدارة بوش كانت مقتنعة بأن إدخال حماس في لعبة السياسة قد يفرض عليها قواعد هذه اللعبة أو يأخذها إلى تسوية سياسية إضافة إلى أنها خطوة أخرى في تجربة مشاريع الإسلام السياسي والتي يمكن مراقبتها واختبارها كتجربة صغيرة لما سيقدمه الاخوان المسلمون سياسيا لا سيما أن اسقاط هذه التجربة ممكن في اي لحظة من خلال إسرائيل التي لم تكن راضية تماما عن الفكرة الأمريكية وكانت تخشى أن الخطوة ستقدم المزيد من الدعم لحماس.

كانت هذه الخطوة في فلسطين على صغرها مهمة لدراسة المنطقة أكثر لا سيما أن التجربة العراقية لا يمكن القياس عليها لخصوصية المشهد العراقي وتوزيعاته الطائفية. وخاصة إذا تذاكرنا أن ادارة بوش كانت تفكر جديا بتكرار مشروع احتلال العراق في سوريا وكانت الحجج لذلك جاهزة متمثلة في اغتيال الرئيس رفيق الحريري ودعم النظام السوري لمن تصفهم الولايات المتحدة بالمجموعات الإرهابية.

سياسيون مخضرمون كوليد جنبلاط اقتنعوا من الامريكيين تماما بأن غزو بوش لسوريا قادم لا محالة ولذلك قلبوا الطاولة على الأسد في تلك الفترة.

لكن مشروع الشرق الأوسط الجديد توقف فجأة في تلك المرحلة ولم يكمل بوش خطواته إلى سورية لعوامل عدة اقتصادية وسياسية لكن أبرز وأهم تلك العوامل هو نجاح المقاومة العراقية بصناعة ضربات موجعة للاحتلال الأمريكي أدت إلى تكلفة باهظة بشريا واقتصاديا من المهم أن نذكر أيضا أنها كانت أبرز عوامل انتقال الحكم من الجمهوريين إلى الديمقراطيين

عقب حكم بوش وتوقف المشروع الذي كان مبنيا بالدرجة الأولى على الغزو العسكري.

مع بداية الربيع العربي عاد مشروع الشرق الأوسط الجديد والذي يقوم على «الإسلام السياسي المعتدل» إلى الواجهة من جديد بطريقة أخرى تحكم خطواتها الثورات والشعوب العربية هذه المرة وليس الغزو العسكري الأمريكي..

وهنا لا بد من تفصيل مهم أن عودة المشروع إلى الواجهة لا يعني أن الربيع العربي هو صناعة أمريكية كما يروج أعداء الثورات.. ولكن آلية المشاريع والدراسات التي توضع في الادارة الامريكية تتسم بالمرونة بحيث يمكن تطبيقها بسهولة على مستجدات الواقع التي طرحها الربيع العربي فجأة في المنطقة.

البعد الإسلامي بدا واضحا في الشوارع العربية الثائرة وإن لم يكن وحيدا وكان من المناسب أن تتيح الادارة الامريكية له الفرصة كما حصل في تونس ومصر. ومن المهم أن نشير أيضا أن هذا لا يعني ان ثم تحالفا ما بين القوى الإسلامية في هذه الدول وبين الولايات المتحدة وإنما انتخابات حقيقية نزيهة أتت بهؤلاء الذين لم تعترض الولايات المتحدة طريقهم استكمالا لدراستها لقدرة الإسلاميين بعد دخول معترك السياسة على تحويل المواجهة الغربية مع الإسلام إلى حوار أو تعاون على الطريقة التركية. بل إن المؤكد أن الولايات المتحدة شجعت الإسلاميين على تصدر المشهد السياسي فرأينا أن الإخوان الذين كانوا أعلنوا أنهم لن يقدموا مرشحا للرئاسة في مصر بادئ الأمر عدلوا عن قرارهم وقدموا محمد مرسي بعد حظر خيرت الشاطر بفعل عاملين أحدهما التشجيع والرضا الأمريكي والآخر هو الخوف من وصول إسلاميين آخرين إلى سدة الرئاسة كعبد المنعم أبو الفتوح المنشق عن الإخوان الأمر الذي قد يسحب من الإخوان جزءا من جمهورهم وشعبيتهم.

ولكن ماذا حصل بعد أن وصل الإسلاميون إلى سدة الحكم؟ ومن هم المتضررون من تجربة الإسلام السياسي الغضة؟

لا شك أن لأخطاء الأحزاب الإسلامية التي وصلت إلى واجهة السياسة دور مهم في حالة العداء التي يشهدها الاسلام السياسي لكن الخطر الاكبر عليه يكمن في خصومه.. فإضافة إلى من ينافسون الإسلاميين في بلدانهم على قيادة الدفة ومن يخشون من الإسلاميين في تلك الدول وإن كانوا خارج إطار المنافسة السياسية لهم، هناك متضررين آخرين كثر من تحول المنطقة إلى الإسلام السياسي.

لقد غفل كثير من الباحثين العرب عن مشروع فلاديمير بوتين الذي طرحه بين يدي عودته للرئاسة بقوة في روسيا والمتمثل بالحديث عن « أوراسيا «كتكتل سياسي جديد يواجه الهيمنة القطبية الامريكية.. بمعنى آخر استعادة المجد السوفيتي السابق وربما بتوسع أكبر بكيان سياسي جديد يحمل قوة الاتحاد السوفيتي ولا يحمل عقائده الشيوعية أو الاشتراكية.. من يحمل للرئاسة حلما بهذا الحجم سيضع نصب عينيه كما هو واضح ضمان ألا تتفرد الولايات المتحدة بوضع الرؤى وإدارة منطقة حساسة كالشرق الأوسط لا سيما

إن كانت تلك الرؤى تمثل خطرا حقيقيا على روسيا الحالية وليس على مشروعها الضخم المستقبلي.

مهم جدا أن نعرف أن واحدا من كل خمسة روسيين يدين بالإسلام وإن نسبة الإسلام في جمهوريات روسية كداغستان وأنغوشيا والشيشان تزيد عن 90% وتزيد نسبة الإسلام عن 50% في أكثر من عشر جمهوريات روسية أخرى ما يعني أن توسع مشاريع الاسلام السياسي ونجاحها قد يشكل تهديدا حقيقيا على روسيا القيصرية بجمهورياتها. مهم جدا أن نذكر هنا أن المشروع الناجح الذي وضع نموذجا لانتشار الإسلام السياسي هو مشروع تركيا المجاورة لروسيا وفهم تاريخ الخلاف الروسي التركي وحساسيات العلاقة بين البلدين قد يساعدنا في فهم ما يمكن أن يكون مخاوف حقيقية لروسيا.

لذلك ليس غريبا أن تكون روسيا بهذه الصلابة تجاه ما يحدث في سوريا التي يبدو واضحا أن التغيير فيها هو حجر الارتكاز لتغيير كامل المنطقة المحيطة بها.

إيران أيضا من الدول المهتمة ألا تكون تركيا نموذجا للتغيير في العالم العربي بدافع من عاملين أولهما العامل الطائفي والآخر هو الندية التاريخية مع تركيا.

ومن أهم المتضررين من واقع الإسلام السياسي الجديد في المنطقة، تلك الحكومات العربية المجاورة لدول الربيع العربي والتي تتحسس رأسها من ثورات مشابهة.. لا سيما أن معظمها يفيض بدواعي الثورة.. وقد تجد الشعوب في واقع الاسلام السياسي عنصر محببا إليها حتى في الدول التي لا تبدو الثورة فيها حاجة ملحة ظاهريا.

لذلك لا عجب أن تبذل تلك الدول ملياراتها وضغوطها السياسية وماكينتها الإعلامية في محاربة هذا الواقع الجديد وليست تلك الحرب إلا جزءا رخيصا من دفاع عن عروش مشابهة لتلك التي أسقطتها الثورات.

ليس غريبا هنا أيضا أن تكون النكتة السمجة التي وجهت للرئيس المصري محمد مرسي اتهاما وهي « التخابر مع حماس » عملا مدروسا وممنهجا لتكون بابا للطعن في إسلاميين آخرين في المنطقة ولخلق عنصر الكراهية بين حماس وجزء كبير ومهم من الشعب المصري هم خصوم مرسي. دعونا لا ننسى هنا أيضا أن أهم خسائر إسرائيل من تغير الحكم في مصر هو فك الحصار المضروب على قطاع غزة بشكل أو بآخر.

إن حالة الازدواج تلك بين الربيع العربي والإسلام السياسي الذي يلوح كمستقبل لبلدانه جعلت ربيع العرب نفسه ومستقبل حرياتهم وحقوقهم على المحك في حالة الخطر أمام موجة العداء العارمة للإسلام السياسي. لعل هذا الواقع يستدعي تجديد طرح الحقوق والحريات لدى الشعوب العربية بقالب جماعي يغادر الحدود السياسية لكل بلد والتي أصبحت عبر العقود الماضية حدودا فكرية مسلمّة.. من حق الثورات أن تتسع بآفاقها وأحلامها لمواجهة ما يتهددها من مخاطر ولن تحمل الثورات معناها الثوري إلا حين تتجاوز مسألة الحدود الثقافية والفكرية المفروضة بسياسة الأمر الواقع.

ملف الاسلام السياسي

ليس كل من يدعو للجهاد ويرفع العلم الاسود «قاعدة» :

في رموز الإِسلاميين ومعانيها المتعددة

عدي الزعبي

ينطلق هذا المقال من فكرة بسيطة و متداولة بشكل كبير. لا يشكل الإِسلاميون كتلة واحدة صلبة صمّاء، و كذلك الليبراليون و اليساريون و القوميون. في معظم الحالات لا يبدو أن لفظ «الإِسلامي» أو «العلماني» أو «اليساري» أو «الليبرالي» يحمل بذاته الكثير مما يدل على التوجهات الفعلية لأولئك الذين يحملون أياً من هذه التوجهات. من المفيد دائماً إبراز التمايزات الدقيقة، وحتى التناقضات، داخل التيار الواحد. رأينا في سوريا، كما في غيرها، كيف ينقسم كل معسكر في تقييم ما يجري. هذه التسميات قد تخفي وراءها تمايزات وآراء أكثر أهمية و جدية.

التعميم الذي يرى في الإِسلاميين ثلة من الإِرهابيين نراه عند النظام السوري و بعض العلمانيين المتشددين. اعتمد النظام في الأشهر الأخيرة على بروباغندا تقول أن كل مسلحي

المعارضة إرهابيون ينتمون إلى القاعدة، و لفرعها السوري جبهة النصرة. تلقي هذه البروباغندا صدى عند يساريين و ليبراليين في العالمين العربي والغربي، ودعماً صريحاً من روسيا.

ما يلي محاولة لإضاءة جانب بسيط من تمايزات الإسلاميين داخل الثورة السورية. للإسلاميين رموز كثيرة، يتبناها معظمهم. هذه الرموز تخفي وراءها اختلافات كبيرة. للوصول إلى هذه التمايزات، علينا أن نستمع إلى ما يقوله الإسلاميون عن أنفسهم. من هذه الرموز علم القاعدة الأسود و توصيف المجاهد. نلاحظ انتشار أعلام القاعدة السوداء و المجاهدين على الأرض السورية. تبعاً لقراءة متسرعة، هذا يشكل خطراً على الثورة. كل هؤلاء يحملون فكر القاعدة، وسيحوّلون سوريا إلى أفغانستان جديدة. ليس كل مسلحي المعارضة ينتمون إلى القاعدة. سأعتبر أن هذه الحقيقة معطاة بداهةً. ولكن هل كل من يدعو للجهاد ويحمل علم القاعدة ينتمي للقاعدة؟ إجابتي أن لا.

لا يوجد معنى واحد واضح و ثابت و نهائي لمفهوم الجهاد و للعلم الأسود المنسوب للقاعدة. الافتراض بأن كل المجاهدين، وكل من يحمل العلم الأسود ينتمي للقاعدة افتراض خاطئ. بعضهم بالطبع ينتمي للقاعدة، ولكن ليس الجميع. توحي هذه الرموز بوحدة فكرية لمن يتبناها. هذه الوحدة مخادعة. بدلاً من النظر إلى الرموز، والمصطلحات العامة، يجب أن نسأل أصحاب العلاقة أنفسهم عمّا يرونه في ممارسات وسياسات القاعدة. من هنا، ليس علم القاعدة، ولا لقب المجاهد، ما يحدد فكر المقاتل. ما يحدده هو ما يقوله صراحةً و ما يدعو إليه علانيةً.

علم القاعدة

يبدو أن هناك صراعاً في المناطق المحررة بين من يحملون علم الثورة و من يحمل علم القاعدة. قامت مجموعات إسلامية مسلحة، كأحرار الشام و جبهة النصرة و الدولة الإسلامية، أو الهيئات الشرعية المدعومة من الكتائب الإسلامية، بإنزال علم الثورة أو إزالته من على الحيطان أو اللوحات الطرقية في مناسبات متعددة. و يبدو أن هناك دعوات صريحة للتخلي عن علم «العلمانيين». هكذا يبدو أن علم القاعدة رمز لمشروع إسلامي متناقض جذرياً مع مشروع الدولة المدنية. هذه هي ثنائية الإسلاميين / المدنيين مكثّفة في رمزي علم القاعدة وعلم الثورة.

ما سبق يشكّل جزءاً من المشهد. ولكن ليس المشهد كاملاً. الغرض مما يلي هو كشف التمايزات الدقيقة خلف استخدام العلم. ما أود قوله أن العلم الأسود لا يمثّل القاعدة بالضرورة.

أولاً، ليست كل الكتائب الإسلامية في سوريا تتبع، أو تتعاون، أو تحمل فكر القاعدة، حتى إن كانت أجندتها إسلامية خالصة. انتقد أحرار الشام، مثلاً، بيان البغدادي الداعي للعمل تحت مظلة القاعدة. ينطبق هذا على كتائب إسلامية أخرى. لذا، فليس كل من يتبنى العلم الأسود، حتى إن كان داعياً لدولة إسلامية، و رافضاً لعلم الثورة، يتنمي إلى

القاعدة.

ثانياً، نجد هذا العلم منتشرأ بين بعض محاربي كتائب الحر، التي بالطبع لا تتبع تنظيم القاعدة ، ولا تسعى إلى إقامة دولة إسلامية. لقد رأيت علم القاعدة مترافقاً مع علم الثورة في عدة جبهات. كان للبعض من المقاتلين ممن يتبنون العلمين عداء صريح و مباشر للقاعدة، و في بعض الأحيان انتقادات حادة حتى للكتائب الإسلامية التي لا تتبع القاعدة، كأحرار الشام وحتى للهيئة الشرعية.

ثالثاً، يرى بعض مقاتلي الكتائب الإسلامية (و ليس جميعهم)، و مقاتلي الحر الذين يحتفظون بعلم الثورة و العلم الأسود معاً، أن العلم الأسود يمثل راية لا إله إلا الله، و التي يرفعها المسلم المؤمن. سيضيف بعض مقاتلي الحر، أنه لا تعارض بين هذه الراية و علم الثورة. وجهة النظر هذه لها أهمية كبرى، فهي لا تنطبق فقط على المسلحين. بعض المتدينين المدنيين يرفضون انتقاد راية لا إله إلا الله، مهما كانت الأسباب. بعضهم لا يتعاطف مع القاعدة، آخرون يرون في القاعدة خطراً. غيرهم يرى في النصرة والدولة الإسلامية المنقذ الوحيد.

رابعاً يميل البعض، من مدنيين و مسلحين، لإبعاد الشبهات عن ارتباطهم بتنظيم القاعدة، إلى رفع العلم الأبيض بدلاً من الأسود. ليس للراية البيضاء نفس أثر الراية السوداء في النفوس.

مما سبق، نرى أن لا تناقض ضرورة، على مستوى المفهوم، و في الواقع المعاش، بين حمل الراية السوداء أو البيضاء، وبين علم الثورة. يجب التوقف عن إطلاق صفة علم القاعدة على الراية السوداء. ببساطة، تبنى تنظيم القاعدة هذا العلم، و هذا لا يلزم البقية بفكر القاعدة إن تبنوا هذا الرمز. المحك بالطبع هو ما يقوله المقاتلون والناشطون أنفسهم الذين يحملون العلم عما يسعون إليه.

الجهاد و المجاهدون

ما سبق ينطبق على الجهاد. ينتشر في سوريا خوف من إعلان الجهاد، حيث يخشى البعض أن تتحول سوريا إلى محج للجهاديين و الإرهابيين القادمين من كل بقاع الأرض، كما حصل في أفغانستان و العراق. هذا الخوف مبرر و مشروع. ولكنه ايضاً يطرح ثنائية و همية : المجاهدون القاعديون مقابل المدافعين عن الحرية و الديمقراطية. في الإعلام الغربي الأمور أكثر تعقيداً، حيث يكون مفهوم «الجهادي» مرادفاً للإرهاب سلفاً.

ليس المطلوب دراسة فقهية لمفهوم الجهاد في الإسلام، بل محاولة لقراءة ما يراه المقاتلون أنفسهم في الجهاد. يبدو أن معظم المحاربين، في الجيش الحر، كما هو حال كل مقاتلي الكتائب الإسلامية، ينظرون إلى أنفسهم كمجاهدين. لا يعني ذلك أن مقاتلي الحر منخرطون في مشروع دولة إسلامية، ولا أن كل المجاهدين في الكتائب الإسلامية يريدون

حكم القاعدة. أيضاً، بعض المدنيين المنخرطين في الثورة يرون أنفسهم كمجاهدين. معظم هؤلاء المدنيين «المجاهدين» أقرب إلى دولة ديمقراطية تعددية.

لذا، لا يجوز الخلط بين الجهاد الذي قد يحول سوريا إلى أفغانستان أخرى، و الجهاد الحاصل اليوم. الخط الفاصل بين «الجهادين» هو ما يصرح به المجاهدون أنفسهم. معظم المقاتلين يرون أنفسهم كمجاهدين، و لا يريدون مقاتلين أجانب و لا فكر قاعدة. لا يوجد ارتباط ضروري، من حيث المفهوم، و في الواقع المعاش، بين الجهاد والقاعدة.

المقامات في القلوب

من الضروري إذن الدخول في تفاصيل رؤى الإسلاميين و خلافاتهم حول مشاريعهم السياسية. المثال الأبرز هو رؤيتهم للمقامات. المجاهدون الذين يتبنون الراية السوداء يختلفون بشدة حول هدم المقامات الذي دعت إليه النصرة. هذا الأمر يشكل محكاً أكثر اهمية من الراية-العلم أو من لقب المجاهد. ينعكس ذلك في غضب المدنيين المتدينين بالمجمل من هدم مقاماتهم.

لا يجوز الحكم على الإسلاميين، أو غيرهم، بالرموز التي يتبنونها أو الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم. هذه الرموز و الأسماء توحي بوحدة فكرية، و تجعل من الصعب رؤية الواقع و التمايزات التي يخفيها. يجب دوماً الاستماع إلى هؤلاء الناس و الإنصات بهدوء إليهم. ما ينطبق على الإسلاميين ينطبق على غيرهم. على سبيل المثال، لا يدافع كل اليساريين عن الأسد: تشومسكي ليس غالاوي، فواز طرابلسي يختلف عن أسعد أبو خليل. أيضاً، علمانية نبيل فياض ليست هي ذاتها علمانية صادق جلال العظم...إلخ.

في حالة الإسلاميين في سوريا، لا يجوز استعداء المقاتلين و الرأي العام المتدين بانتقاد الجهاد و المجاهدين و راية لا إله إلا الله. يرى بعضهم أن هذا الانتقاد موجه للإسلام نفسه، و لهم، هم الذين يواجهون النظام معنا لبناء سوريا حرة، خالية من القاعدة ومن الديكتاتورية. انتقاد القاعدة ومواجهتها لا يتم إلا بتفهم وبالعمل مع الإسلاميين المعتدلين، والأهم، مع المتدينين العاديين الذين يواجهون عنف النظام يومياً. إن أنصتنا إلى الإسلاميين سنجد نقاط تقاطع كثيرة مع معظمهم.

في حلب القديمة، بجانب الجامع الأموي، التقينا مجموعة مقاتلين من ريف حلب. كانوا ينشدون أناشيد دينية بأصوات صافية. العتمة ليست كاملة. خيوط من أشعة الشمس تتسرب من سقف السوق. الساعة الثالثة ظهراً. احتفى بنا المقاتلون. بعضهم بذقون طويلة وشوارب محفوفة، وراية لا إله إلا الله السوداء على رؤوسهم. تذمروا من النصرة علانية و بصراحة. «كلنا مجاهدين، بس مو هيك بيكون الجهاد. ما بيصير يجبروا العالم أنو ما يدخنوا. ما بيصير يجبرونا نفهم الإسلام متل ما هنن بيفهموا.» حكوا لنا عن مواجهة

مسلحة مع النصرة في إحدى القرى، اضطرت بعدها النصرة للانسحاب، والسبب وجود مقام في القرية. من مكاني، أستطيع رؤية الخراب الكبير في السوق المقابل. «فينا نفرجيكم القناص. تلت دقايق مشي من هون». «لا شكراً، بلا هالشوفة اليوم». نهاية السوق شبه مغلقة بحجارة ما تهدّم من السوق. يستطيع المرء المرور من خلالها بصعوبة. في مكان قريب، خلف هذه الحجارة، عسكر النظام. أنظر حولي. معظم المقاتلين في بداية العشرينات، هل هم أحياء الآن؟ ما الحكمة من موتهم؟ كان تولستوي العجوز يعود إلى المسيحيين العاديين لفهم أسرار الحياة، لا إلى القسس و الفلاسفة. ربما، في النهاية، الذي تبقى من سماحة الإسلام سيشع من قلوب هؤلاء. سألتهم، «أنتو شو رأيكون بالمقامات يلي بدها تهدها النصرة؟» المقامات التي يخشاها هؤلاء هي المقامات التي في القلوب، المقامات التي تجعل الناس تعبد المال و المصلحة، لا الله عز وجل. يبني الناس مقامات لغير الله في قلوبهم، و يعبدونها

«لازم نهد المقامات يلي بقلوب العالم، مو المقامات يلي ما بتعني شي. إزا الواحد فهمان دينو صح، بعمرو ما بيعبد عبد متلو. هدول ما بيهتمو غير بالقشور. كلنا عمنجاهد في سبيل الله، بس ما منرضى نضر حدا و لا نزلّ حدا. بس نهدّ المقامات يلي بالقلوب، رب العالمين بيرضى علينا. الله عارف يلي بالقلوب.»

اجتماع

في سبيل مقاربة سوسيولوجية للسلوك السياسي في سوريا : بعض النقاط المنهجية

محمد شاويش

من المفيد في حالات الثورات والحروب الوطنية التأكيد على فكرة وحدة الشعب في وجه العدو (النظام الدكتاتوري ـ العدو الخارجي . .) وهذا يحدد سلوكاً مثالياً ينبني على تصور مثالي للشعب الذي تنطلق منه الثورة (أو الحكومة الوطنية التي تحارب عدواً خارجياً) .

وكما هو الحال دائماً، لا تمانع المقاربة العلمية في الإقرار بفوائد هذه الفكرة المثالية في التعبئة وتحديد معايير السلوك النموذجي المطلوب من الجماهير التي يتوجه إليها الخطاب التحريضي الثوري (أو خطاب السلطة الوطنية)، ولكن هذه المقاربة لا تستطيع أن تنطلق من هذا التصور المثالي عن وحدة الشعب المفيد في التحريض (والمرغوب في وجوده في الواقع مع أن التجربة تدل على أن هذه الرغبة لا تتحقق)، بل عليها أن تتعامل مع واقعة موضوعية تقول : إن الشعب ينقسم إلى كتل كبيرة تختلف بين بعضها في ما ندعوه « السلوك السياسي »، ومن مهام المقاربة العلمية (المنتمية إلى هذا القطاع العريض من البحوث الذي يندرج تحت الاسم العام « علم الاجتماع ») أن تضع أدوات نظرية لوصف هذه الكتل وتحليل آليات تكونها والسلوك السياسي الخاص بكل منها .

في هذا المقال أريد وضع بعض النقاط المنهجية التي أراها مفيدة مستقبلاً لتحليل اجتماعي من نوع جديد للسلوك السياسي للجماعات الكبرى المكونة للمجتمع السوري، تحليل يكون آخذاً بعين الاعتبار الاتجاهات الفكرية والقيمية للجماعة بما هي مترابطة مع تموضعها الاجتماعي والاقتصادي ترابطاً لا ينفك ويتجلى كوحدة واحدة أسميها هنا «الوسط الاجتماعي الأخلاقي».

لأجل بعض التوضيح لهذه المسألة رأيت إجراء مقارنة منهجية مع تجربة علم الاجتماع الألماني لتناول سلوك الجماعات الألمانية في مرحلة عاصفة قد تذكّر بالمرحلة الحالية التي تشهدها سوريا، وإن كنت سلفاً مقتنعاً أن حال المجتمعين تختلف عن بعضها كثيراً من نواح اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية. ورأيت أيضاً أن من المفيد جداً المقارنة مع مجتمع شقيق مجاور تتمتع قواه السياسية والاجتماعية الفاعلة بحرية التعبير عن نفسها بقدر أكبر بكثير من المجتمع السوري في حالته الراهنة، ألا وهو المجتمع اللبناني.

كانت دراسة «السلوك السياسي» للجماعات المكونة للمجتمع الألماني في مطلع القرن العشرين الميلادي أي في المرحلة العاصفة التي سبقت وتلت الحرب العالمية الأولى، وانتهت بصعود النازية واستلامها للسلطة وإنهائها للنموذج البرلماني لجمهورية فايمار (1918 – 1933) أمراً اهتم به علماء الاجتماع الألمان كل الاهتمام. بدأ هذا الاهتمام قبيل استلام النازية للسلطة واستمر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبناء النموذج البرلماني الجديد.

من السوسيولوجيين الشهيرين الذين تصدوا لهذه الدراسة كان م. راينر ليبسيوس M. Rainer Lepsius (–1928) وأحب أن أعيد القارئ إلى مقال له بعنوان «الأوساط الاجتماعية الأخلاقية وعلاقات السلطة في الرايخ الألماني» وهو مدرج في كتابه «الديمقراطية في ألمانيا – تحليلات للتموضع– مقالات مختارة». (1)

من المعروف أن المدرسة الماركسية كانت هي المؤثرة آنذاك، وكانت سلوكيات بعض الجماعات (مثل العمال الصناعيين) تبدو مؤكدة لصحة التحليلات الماركسية، حيث حصل الاشتراكيون (وقد انقسموا كما هو معلوم إلى اشتراكيين ديمقراطيين وشيوعيين) في الفترة المعنية على أرقام عالية في الانتخابات البرلمانية لم تقل عن 40 بالمائة، وكذلك مالت الطبقة الوسطى Mittelstand إلى انتخاب الأحزاب اللبرالية، ولكن هذه الطبقة شهدت منذ النصف الثاني من العشرينات توجهاً متزايداً نحو اليمين، حتى وصل بها الحال في بداية الثلاثينات إلى الانقلاب عن اللبرالية في اتجاه النزعة القومية المتطرفة ممثلة في الحزب النازي الذي تحول من حزب صغير جداً إلى حزب جماهيري ضخم استطاع في النهاية أن يهزم كلا الاشتراكيين واللبراليين ويقضي على النظام البرلماني من داخله.

كان سلوك هذه الطبقة الوسطى سلوكاً ملغزاً ولا سيما أن التحليل الماركسي لم يكن مهيئاً لتوقع دور مستقل لهذه الطبقة (التي تسميها بعض الأدبيات الماركسية «البرجوازية الصغيرة»). وقد كانت بالفعل مؤيدة كما قلنا للاتجاه اللبرالي ولكنها انفضت عنه على حين

حافظ العمال الألمان عموماً على تأييدهم للاشتراكيين.

تولى ليبسيوس محاولة إيجاد خطوط عامة لتحليل تغيرات سلوك هذه الجماعات من المجتمع الألماني في تلك الفترة، وقد ناقش كتابات بعض من سبقوه في هذه المحاولة ولا سيما في موضوع سلوك الطبقة الوسطى التي نسبت إليها المسؤولية الأولى عن الصعود النازي. من هؤلاء ث. غايغر 1891-1952 (Th. Geiger) الذي كان متفائلاً بأن الطبقة الوسطى ستدرك مصالحها المشتركة مع العمال وتتجاوز حيرتها المؤقتة في تحديد موقعها الاقتصادي الفعلي، وهو ما كان مسؤولاً في رأيه عن تحولها باتجاه النازية في الانتخابات التي جرت في العشرينات، وهو تنبؤ لم يتحقق. وفي نقد تحليل غايغر الاقتصادي الطابع قال ليبسيوس: «لقد اتكل أكثر من اللازم على المصالح الاقتصادية النوعية للشريحة»(2). من هؤلاء أيضاً ر. هيبرله R. Heberle (1896-1991) الذي قام بدراسة لامعة لتحولات السلوك السياسي لفلاحي منطقة شليسفيغ - هولشتاين الذي تحول من تأييد اللبراليين إلى تأييد النازيين. ومن الجماعات التي تناول ليبسيوس سلوكها السياسي بالتحليل الطبقة الوسطى الكاثوليكية التي ظلت مؤيدة لحزب خاص يجمع روابطها وجمعياتها هو حزب المركز Zentrum. حاول ليبسيوس أن يربط تحولات هذا السلوك السياسي للجماعات المعنية بمجموعة من العوامل الخاصة بكل جماعة، وتشمل هذه العوامل اعتبارات أخلاقية ومناطقية علاوة على الاعتبارات السياسية. ولذلك يستخدم مفهوم «الوسط الاجتماعي الأخلاقي» das sozialmoralische Milieu ويرى أنه يمتلك في مقابل مفهوم الطبقة ميزة إطار مرجعي أوسع امتداداً وهو وحدة اجتماعية تتشكل عبر التقاء عدة أبعاد مثل الدين والتقاليد المناطقية والوضع الاقتصادي والتوجه الثقافي والتركيب النوعي الخاص للمجموعات الوسيطة (3) intermediäre Gruppen.

وقد اجتهد ليبسيوس في إيضاح أن هذه «الأوساط الاجتماعية الأخلاقية» تصرفت في موضوع النازية بدوافع مختلفة حتى لو كانت النتيجة واحدة، فالطبقة الوسطى كانت تريد من النازية تحقيق اعتراف اجتماعي بفضائلها (مثل الجد في العمل والتوفير) كطريقة مشروعة لوضع اجتماعي محترم، وفلاحو منطقة شليسفيغ- هولشتاين، في كل تقلبات ولائهم السياسي لأحزاب مختلفة إلى أن استقر ولاؤهم عند النازية، كانوا يريدون التعبير عن تميز هويتهم المناطقية في وجه السلطة المركزية، وكان الوسط الكاثوليكي موالياً بلا تغيير لحزب «المركز» ولاء كان تعبيراً عن الميل إلى الحفاظ على استقلال ذاتي ثقافي. وفي وجه النزعة لتفسير السلوك السياسي بعامل الموقع الطبقي وحده أوضح ليبسيوس أن السلوك السياسي للطبقة الوسطى الكاثوليكية كان مختلفاً بصورة واضحة عن سلوك المنتمين لهذه الطبقة من البروتستنت.

كان في يد ليبسيوس وعلم الاجتماع الألماني أداة مناسبة لمعرفة التوجه السياسي للجماعات الفاعلة التي كانت تدعم الاتجاهات السياسية الألمانية ألا وهي نتائج الانتخابات العامة (حتى عام 1933 طبعاً حين ألغى هتلر النظام البرلماني)، ولكننا حين نريد البحث عن

أداة مماثلة في دراسة السلوك الاجتماعي للجماعات السورية نفتقد لهذه الأداة طبعاً لأسباب لا تحتاج للإيضاح.

في تحليل ليبسيوس نرى أن البرنامج (الاقتصادي والسياسي إلى آخره) للحزب الذي كانت هذه الجماعات تنتخبه لم يكن دوماً هو الذي يلعب الدور الوحيد في اختيار الجماعات المعنية له، ولعل هذا مما يمكن تعميمه على تفضيل أو عدم تفضيل جماعات محددة لأحزاب بعينها، فعلاوة على البرنامج (أو حتى الشعار التكتيكي المباشر الذي يتبناه الحزب) تلعب عوامل أخرى دوراً مهماً في هذا الاختيار، من نوع طبيعة علاقة الجماعة مع الحزب الذي كان حاكماً من قبل، وعلاقة هذا الحزب الحاكم مع الأحزاب الأخرى (مثلاً تصوّت الجماعة لخصومه بغض النظر عن برنامجهم)، وأحياناً يكون الحزب مندمجاً «بوسط اجتماعي أخلاقي»، وهو ما كان الحال عليه في حزب «المركز» الذي كان تجمعاً سياسياً تشارك فيه كل الاتحادات العاملة ضمن الوسط الكاثوليكي (من المحتمل أن هذه الحالة كانت حالة حزب العمال البريطاني الذي ظل لفترة طويلة مؤلفاً من النقابات العمالية).

مفهوم «الوسط الاجتماعي الأخلاقي» سأستعيره بعد قليل مع تعديلات جوهرية تخص الفارق الكبير بين المجتمع السوري الآن (عام 2013) والمجتمع الألماني في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين.

في الصحافة المكتوبة والمرئية في أيامنا هذه ثمة مفاهيم تذكرنا بهذه المسألة تذكيراً قوياً، ففي لبنان مثلاً يتم الحديث عن «القاعدة الاجتماعية الحاضنة» لمنظمات معينة، ونرى بصورة جلية أننا لتوصيف الكتل الكبرى المتميزة عن بعضها في السلوك السياسي (أو بتعبير أعم: في «المواقف السياسية») لا بد أن نستعمل معايير ثلاثة على الأقل هي:

1 ـ التموضع الاجتماعي، وأعني به موقع الجماعة المعنية ضمن التشكيل الاجتماعي العام ومدى الاحترام العام الذي تحوزه والمقدرة على النفوذ إلى مواقع السلطة. حتى في نظام رأسمالي تحكمه الفئات الثرية يظهر ضمن هذه الفئات الثرية تميزات اجتماعية قائمة على أرضية غير اقتصادية، مثل المنبت الإثني والانتماء العرقي. وفي بلادنا تظهر تمايزات مهمة في التموقع الاجتماعي على أساس نمط الحياة (القروي، المدني، البدوي) وهذا الانتماء يحتفظ بفاعليته السلوكية (سلوك الذات تجاه الآخرين وسلوك الآخرين تجاه الذات) لأجيال حتى بعد تغير الأرضية الأصلية للانتماء مثل التحول من البادية والريف إلى المدينة.

2 ـ التموضع الاقتصادي، وأعني به النصيب الذي تحوزه الجماعة من الثروة المشتركة.

3 ـ نظام الأفكار والقيم الأخلاقية للكتلة المعنية، ويتضمن هذا النظام تصورات عن الوجود والتاريخ وتكوين المجتمع، وتصاغ هذه التصورات صياغة دينية أو ما ينوب عنها (صياغة تقدمها الأيديولوجيا)، وسلماً معيارياً تحدد على أساسه الجماعة مواقفها السلبية والإيجابية من الأشياء والأشخاص ومقدار الأهمية الذي تعيره الجماعة لمؤسسات اجتماعية معينة ولسلوكيات محددة، وينبني على هذا النظام ما يمكن أن نسميه «أسلوب الحياة».

في مقاربتك لسلوك ابن الضاحية الجنوبية في بيروت مثلاً تلاحظ تضافر هذه المعايير الثلاثة (التي أسميها التموضعات الثلاثة الكبرى التي تحدد «الوسط الاجتماعي الأخلاقي» في بلادنا)، وهي تقوده إلى سلوك سياسي يختلف مثلاً عن سلوك ابن بيروت.

وحين ندخل هذا المفهوم بمركباته الثلاثة سنجد أنه أغنى وأقدر على تفسير السلوك السياسي للكتل الكبرى المؤثرة في التوازن السياسي الداخلي عندنا من المفاهيم الشائعة لحد الآن، من نوع المفهوم القديم عن «الطبقة الاجتماعية» (المقتبس في بلادنا من الماركسية) والمفهوم الجديد عن «الطائفة». لا تحدد «الطبقة» لوحدها (بتعريفها اللينيني الشهير: «جماعات كبيرة تشغل مكاناً محدداً في عملية الإنتاج إلى آخره..) السلوك السياسي للكتل عندنا، كما أن «الطائفة» رغم كل المظاهر الضاغطة على الوعي الاجتماعي في أيامنا عاجزة عن تفسير هذا السلوك، لأن تطورات الثورة السورية أظهرت بجلاء اختلاف السلوك السياسي وفقاً لعوامل أكثر تعقيداً من التبسيط القائل إن الانتماء إلى طائفة (أو مذهب) هو المحدد الوحيد للسلوك الجماعي للكتلة الاجتماعية المدروسة، وهو ما نراه في الأمثلة الشهيرة التي تذكر غالباً في مقالات المهتمين بشؤون الوضع السوري القائم: لقد كان سلوك حوران (وهي التي بدأت الثورة عملياً) لا يكاد يتعلق بمذهب أهل درعا الديني بقدر ما يتعلق بمنظومتهم الاجتماعية (التركيب العائلي والعشائري) ومنظومتهم القيمية الخاصة التي لا ريب أنها تقودهم إلى سلوك سياسي (هنا حيال إهانات رجال السلطة وتعديهم على ما يعد في منظومتهم القيمية محرماً وإهانة لا تغتفر) يختلف اختلافاً ملموساً جداً عن سلوك «أبناء المذهب نفسه» في مدينة دمشق أو مدينة حلب. ولو أردت أن تتابع السلوك الثوري في ريف دمشق أو ريف إدلب أو أحياء مدينة حمص فستلاحظ تضافر التموضعات الثلاثة المذكورة أعلاه. وهذه التموضعات تراها في لبنان إن أردت أن تدرس القاعدة الاجتماعية لتيار عون مقارنة بالقاعدة الاجتماعية لحزب الكتائب مثلاً، أو إن أردت أن تحلل الاتجاهات الكبرى (المنتمية كلها للمذهب السني) التي تكوّن هذا التحالف العريض المندرج (بصورة مؤقتة؟) تحت قيادة تيار المستقبل، وسترى مرة أخرى أن هذه الاتجاهات تتمايز على خطوط هذه التموضعات الثلاثة الكبرى.

تؤثر هذه التموضعات الثلاثة في السلوك السياسي «للوسط الاجتماعي الأخلاقي» الذي يتكون على أساسها تأثيراً معقداً يجعل من سلوك كل «وسط» من هذه الأوساط له بصمة محددة، فالحرمان الاقتصادي والتهميش الذي عانى منه أهل الجنوب يتضافر مع تموضعهم الاجتماعي بما هم قرويون وتموضعهم القيمي الذي يدرج إدراجاً عاماً جداً يفتقر إلى الدقة تحت الانتماء المذهبي: «إنهم شيعة»، والحال مع «المسيحيين اللبنانيين» هو بعد أعقد ويتطلب لتحليله دراسة مفصلة لتأثير هذه المركبات الثلاثة الذي يتمخض عنه سلوك سياسي محدد (يمكن في لبنان قياسه عبر نتائج التصويت خلافاً للحالة السورية القائمة).

يشغل المركب الثالث (المنظومة الفكرية الأخلاقية) موقعاً حاكماً محدداً للسلوك

السياسي للوسط الاجتماعي– الأخلاقي فهو الذي يظهر على حيز الوعي فيما يختفي المركبان الأولان في ما يشبه اللاشعور، والمراقب يستطيع أن يرى ارتباطات اجتماعية دالة بين التموضعين الاجتماعي والاقتصادي ومنظومة الأفكار والقيم ومن ثم السلوك السياسي لجماعة محددة، لكن هذا لا يقبله غالباً أعضاء الجماعة المعنية بسبب المنظومة الفكرية نفسها التي تميل إلى الإطلاق وترفض النسبة الاجتماعية للأفكار، من الصعب أن تقنع الوسط الاجتماعي الأخلاقي الذي يمثله منتسبو الحزب الشيوعي السوري في السبعينات مثلاً بأن الانتماء الإثني والطائفي لعب دوراً في خياراتهم الفكرية والقيمية (ومن ثم السياسية)، وكذلك الأمر مع الأحزاب الأخرى كالحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب العمل الشيوعي وغيرهما، وإنما يأتي تقرير هذا الارتباط من خارج الوسط عادة (انظر ملاحظات ياسين الحافظ في كتابه «التجربة التاريخية الفيتنامية» عن الدور الذي لعبته كردية خالد بكداش في موقفه من فكرة الوحدة العربية مثلاً، وملاحظات الكاتبين نبيل سليمان وبوعلي ياسين في كتابهما «الأيديولوجيا والأدب في سوريا» عن خلفية الكتاب الاجتماعية التي قررت مواقفهم الأيديولوجية)(4).

وهذه الخلفيات تتجلى بوضوح لا مزيد عليه في انقسام المجتمع السوري في الموقف من الثورة السورية حيث يأخذ جبل العرب مثلاً موقفاً يختلف عن موقف مدينة دمشق الذي يختلف بدوره عن موقف ريف دمشق.

أعتقد أن من الممكن بصورة عامة تعداد ثمانية أوساط اجتماعية – أخلاقية كبرى عند تحليلنا للسلوك السياسي للشعب السوري في أثناء الثورة السورية:

الوسط الريفي– السني.

الوسط البدوي– السني.

الوسط المدني– السني.

الوسط الريفي– غير السني وغير العلوي.

الوسط الريفي العلوي.

الوسط الريفي الكردي.

الوسط المسيحي المدني وظل في حالة عدم فاعلية تاريخية (ما يشبه الحياد) رغم محاولات توريطه في الصراع. لذلك لا أجد إلى الآن له دوراً يدخله في تحليل القوى المساهمة في الصراع، والذين شاركوا منه في الصراع كانوا عملياً ملتحقين بواحد من الأوساط السابقة.

الوسط الفلسطيني– السوري.

قلما يذكر الوسط الأخير رغم مساهمته الهامة قديماً وحديثاً في الحركة السياسية السورية، والسبب هو وهم أن الفلسطينيين لا تشغلهم إلا المسألة الوطنية الفلسطينية بحصر المعنى. والحال أن هذا الوسط كان دوماً عالي الفاعلية في صفوف المعارضة السورية (تظهر ذلك نسبة المعتقلين من الفلسطينيين التي كانت دوماً أعلى من نسبتهم السكانية)، وكانت

خلفيته الإقليمية تؤثر بلا ريب في خياراته السياسية حتى ضمن المعارضة السورية نفسها، فقد كان الفلسطينيون في معظمهم ناصريون في الخمسينات والستينات، ثم تحولوا إلى اليسار والتيار الإسلامي في السبعينات والثمانينات، وكانت علاقتهم مع منظمات الثورة الفلسطينية لا تجعلهم يكفون عن الاهتمام السياسي بشؤون سوريا كمواطنين موجودين في البلد (وأغلبيتهم الساحقة الآن هي من المولودين فيها) .

لتفسير السلوك السياسي لكل من هذه الأوساط في الثورة السورية نحتاج إلى تحليل مركب يأخذ بعين الاعتبار مجمل العناصر التي تقود الوسط المعني إلى تصور محدد للنتائج الإيجابية التي سيجنيها من هذا السلوك الذي اختاره وللنتائج السلبية أو الأقل ملاءمة لمصالحه التي كان سيجنيها من سلوك آخر .

وتحليل هذا السلوك هو موضوع لمقال آخر .

هوامش

(1) Lepsius, M. Rainer, sozialmoralische Milieus und Machtverholtnisse im Deutschen Reich, in: Demokratie in Deutschland- soziologisch – historische Konstellationsanalysen - Ausgewohlte Aufsotze, Gottingen 1993 ,135-S. 11 .

(2) م . ن ، ص 55 .

(2) م . ن ، ص 38 .

(4)انظر : بوعلي ياسين ونبيل سليمان- الأدب والأيديولوجيا في سوريا 1967- 1973- -دار الحوار-الطبعة الثانية -اللاذقية1985- و ياسين الحافظ-التجربة التاريخية الفيتنامية تقييم نقدي مقارن مع التجربة التاريخية العربية-دار الحصاد -الطبعة الثالثة- دمشق 1997 . ينقل ياسين الحافظ في أحد الهوامش -ص104-105 رأياً لمكسيم رودنسون عن أثر كردية بكداش على موقفه من الوحدة العربية . لو كنت مكانه لتأنيت قليلاً في التفسير لأن مكسيم رودنسون رغم مزاياه يظل سائراً في التقليد الاستشراقي الذي يبالغ في دور الانتماءات الدينية والإقليمية للفاعلين السياسيين في بلادنا .

بحث

مغالطة القامع والمقموع

خلدون الشمعة

اذا اريد لبلدنا أن يصبح دولة فلا بد له ان يكف عن تمثيل أحد أبرز وأقبح الصيغ المعرفية المعتمدة «البراديم» في تعريف ما يدعى ب»الاستبداد الشرقي».

ماذا أعني بالاستبداد الشرقي؟ أعني به ذلك المصطلح الاستشراقي نفسه الذي صار رفضي الاعتراف بانطباقه النموذجي على بلدي سورية، إنكاراً للحقيقة، بل مكابرة فجة لا تصمد للفحص والتمحيص.

في المانيا أشار هيغل الى ان الاستبداد الشرقي يمثل انطولوجيا تتصل بكينونة قائمة بذاتها: فـ»منيرفا» رمز الحكمة طائر لا يبسط جناحيه إلا في فضاء أوروبا، عند الغسق. وبذلك أسس الفيلسوف الألماني لفكر المركزية الأوروبية. فأوروبا هي المركز الذي يغاير الشرق باستمرار.

وفي فرنسا رأى مونتسكيو ان النظام السياسي ينقسم إلى جمهوريات وممالك وأنظمة استبداد. والفارق بين الأنظمة الملكية وأنظمة الاستبداد الشرقي يتمثل في أن الأنظمة الملكية تعتمد تراتبية ثابتة بينما تعتمد أنظمة الطغيان على نظام العبودية. وفي الأنظمة الملكية يلتزم الأمير بالعادات السائدة، بينما يعتمد الاستبداد على التصرف وفقاً للأهواء وحدها. وفي أنظمة الطغيان لا توجد مؤسسات تفصل بين الحاكم والمحكوم.

وفي الفكر الماركسي يرتبط الاستبداد الشرقي بنمط الإنتاج الآسيوي. كما ان المجتمعات

السياسية الآسيوية تسيطر الدولة فيها على الأرض وما عليها من بشر وحجر.

آية ذلك ان الاستبداد الشرقي يفرض نموذجاً تتحكم فيه الدولة بالمجتمع المدني. كما تنعدم الحرية الفردية وحقوق التمثيل. ولهذا تحكم آنظمة الطغيان على نحو اعتباطي جُزافي، وتظل ثابتة لا تتغير. وقد أدى تأميم الأرضي من قبل ستالين الى استمرار نظام الطغيان القيصري في روسيا الاشتراكية. وهكذا انتقلت ظروف المجتمع الآسيوي من النمط الشرقي الى بيروقراطية الحزب الثوري.

ولكن الدكتاتورية في روسيا بنت دولة، وفي بلدي سورية، مزرعة المافيا العائلية الطائفية المنزع، يُمارس الفساد بها منذ خمسة عقود، ويتبلور نظام لا أعتقد أن له ما يماثله في القرن الحادي والعشرين، وأعني به نظام «الجملوكية» التي تستمد شرعيتها من مبدأ: «أسد.. أسد او نخرب البلد»، وهي تطرح بلا استحياء، مغالطة عنوانها: «أكثرية قامعة وأقلية مقموعة».

ووفقاً لهذه المغالطة المقلوبة التي يحل فيها المقموع محلّ القامع، يصبح الكلام عن الديمقراطية وحقوق الإنسان مبرراً للإطناب في الحديث عن حماية حقوق الأقليات التي يفترض أن تتمتع في أي انتقال الى الدولة المدنية الديمقراطية بحقوق المواطنة والمساواة، وهو حديث مشروط بالتحذير من خطورة نيل الأكثرية حقوقها المقموعة. وبدلاً من أن يطرح موضوع حقوق الإنسان على نحو يُدافع فيه عن السوري كمواطن، ويُعلى من شأنه باعتباره يمثل قيمة أخلاقية مطلقة، بصرف النظر عن جذوره الإثنية أو الدينية أو الطبقية أو الاجتماعية، فإن هذه الاعتبارات أصبحت تلعب دوراً تقييمياً بارزاً في إثارة قضايا الذين يتعرضون للقمع على أيدي أكثر من جهاز للمخابرات. وهكذا يرزح السوريون المحكومون تحت وطأة نظام استبداد جملوكي أشد عسفاً من أنظمة الاستبداد الشرقي التي أسهبت النزعة المركزية الأوروبية في رسم ملامحها. بل إن السوري لا يُدافع عنه الآن إلا ضمن شروط الصفة العنصرية أو الدينية أو الإثنية التي ينتمي إليها بالولادة لا بالاختيار.

وفي تقديري أن تعليل ما تقدم ربما يكمن في المؤشرات التالية:

أولاً: مشكلة الشرعية او المشروعية legitimacy في بلد يرزح تحت وطأة الاستبداد الشرقي، هي مشكلة التمثيل السياسي نفسه، التمثيل الديمقراطي في الدولة المدنية التي لا تعني الأغلبية فيها أغلبية ذات سمات إثنية أو طائفية محددة، بل الأغلبية التي يصنعها مواطنون يتمتعون بحرية الاختيار غير المكبلة بأغلال موروثة عما قبل نشوء الدولة، ويرتبط واحدهم بالآخر برباط تعاقدي يحميه القانون.

ثانياً: لا يوجد في المجتمعات العربية تمييز بين الوجود القانوني الذي يعتمد حق القوة Lawfulness وبين الوجود الشرعي أو المشروعي Legitimacy الذي يعتمد قوة الحق. وهذا يعني أن مشروعية الحكم ظلت تعتمد مبدأ العصبية الخلدونية أساساً لوجودها القانوني.

ثالثاً: ما زالت «الديمقراطية» شأنها في ذلك شأن الكثير من الأفكار المتفرعة عنها، ذات

بعد تزييني وتوثيني يجعلها أشبه بالتميمة التي ينظر اليها باعتبارها تحمل قيمة منفصلة في حد ذاتها وليست مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالممارسة الديمقراطية (الإجرائية) نفسها .

ولإيضاح هذا البعد التزييني التوثيني إسمحوا لي أن أنقل الحوار التالي من رسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الأندلسي الذي يقال إن المعرّي تأثر به في « رسالة الغفران » .

يسأل بطل « التوابع والزوابع » : يا أم عفيف بالذي جعل رداءك ماء وحشا رأسك هواء، أيهما أفضل الأدب أم العقل؟

فتجيب : بل العقل .

فيقول : وهل تعرفين في الخلائق أحمق من إوزة؟

فتجيب : لا !

والمفارقة في هذا الجواب تكشف عن موقف شائع في ثقافتنا العربية المعاصرة، وفي أجهزة الإتصال الجماهيري على وجه التحديد .

إننا هنا إزاء اختيار للعقل وتفضيل له، على الرغم من ان الجهاز الفكري الذي يقوم بهذا الاختيار، ونعني به العقل، كثيراً ما يكون غائباً أو غير موجود أصلاً .

وبعبارة أخرى فإن الإيمان المعصوب العينين هو الذي يختار العقل عن طريق التلقين .

إنه يرى العقل فكرة ناجزة وليس ممارسة عقلانية أو أداء أو طريقة في الأداء . وكذلك الأمر بالنسبة للديمقراطية . إنها تصبح في هذا السياق، كالعقل، التميمة المفضلة . إنها ليست ممارسة إجرائية تستند إلى مرجعية فكرية تتجلى في الأداء البرلماني الحقيقي الذي يمثل الأكثرية العددية، وإنما هي مجرد إضافة توثينية تمنح بعداً زخرفياً للمشروعية التي تعتمدها سلطة الاستبداد في تبرير وجودها واستمرارها .

رابعاً : يسهم الطرح القائل بأن الأقلية (أو الأقليات) هي المقموعة في مساعدة الأقلية القامعة على الإمعان في قمع الأكثرية . كما يمنحها غطاء زائفاً من المشروعية الايديولوجية الزائفة التي تعتبر نتاجاً طبيعياً للديمقراطية الوهمية التي تستند الى حق القوة بدلاً من قوة الحق .

خامساً : لا يوجد في ما يتعلق بالمفاهيم التي تتصل بحقوق الانسان في سورية، علاقة تتجاوز العلاقة الدلالية السطحية بين الإسم والمسمى . فالقوانين ليست أدوات إجرائية ترتبط بمفاهيم الحرية والعدالة والمساواة في مجتمع مدني لا تسيطر عليه الدولة، بل هي أسماء وضعت على أساس أنها تشكل الأثاث الفعلي لجهاز شرعنة السلطة، أي منحها الشرعية أو المشروعية . فهي مجرد تمائم أو أيقونات لمسميات مفرغة من المضامين ولا وجود واقعياً لها من الناحية الإجرائية . وقد قامت السلطة في سورية خلال العقود الخمسة الماضية بمأسسة منظمات وأحزاب مرتبطة بها وتخضع لها، مشفوعة بأخرى تمثل معارضات وهمية يسيرها ضباط المخابرات .

وفضلاً عن ذلك يمكن القول ان غياب مفهوم الديمقراطية والمساواة في الحقوق والواجبات

عن ممارسات السلطة الحاكمة، لا يمكن إلا أن يبطل فعالية القوانين الضامنة لحقوق الإنسان، وهي كثيرة ومتوفرة من حيث النصوص ذات الأساس العلماني والديني.

فهذه القوانين تصبح من حيث منحييها العقابي والثوابي جاهزة للتطبيق أو عدم التطبيق، وذلك تبعاً لاقتراب أو ابتعاد المواطن من مواقع السلطة.

سادساً: تلوح الحقوق التي يفترض أن يتمتع بها المواطن العربي، كما تعبر عنها الدساتير العرقية، وكأنها أهداف تتحقق أو لا تتحقق، أكثر منها مفاهيم حقيقية دالة على وجود ذي بعد إجرائي. وهي تبدو من حيث طابع التمني المسيطر عليها شبيهة بالاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر في 15 كانون الأول (ديسمبر) 1948. فهي بذلك تنتمي الى التفكير الرغبي (wishful thinking)... مجرد أمنيات.

بل إن الفضاء الدلالي الذي تدور في فلكه المفاهيم التي تحفل بها تلك النصوص القانونية الضامنة لحقوق الإنسان العربي، بلغ الاختلاط فيها حداً جعل من الممكن تكريس تلك المغالطة الأثيرة لدى بعض الإعلام العربي والغربي، حول أكثرية قامعة تجاه أقلية مقموعة، دونما مساءلة أعتبرها من قبيل تحصيل الحاصل، وتتصل باستحالة حدوث معادلة منطقية للقمع من هذا النوع في في ضوء غياب العملية الديمقراطية أصلاً.

آية ذلك كله أن أطروحة الأقلية الآنفة الذكر، والتي يروّج لها في الخطاب السياسي، في سياق الدفاع عن حقوق الإنسان التي تتعرض لانتهاكات خطيرة في المنطقة العربية، وفق حدود تختلف من حيث الدرجة أكثر مما تختلف من حيث النوع، بين بلد وآخر، أطروحة زائفة.

فليست هي الأقليات وحدها التي تتعرض لقمع منهجي مستمر على أيدي الأغلبية، وإنما الأغلبية – في حالات كثيرة – هي التي تُمارس ضدها أبشع أنواع انتهاكات حقوق الانسان المرتكبة من قبل النخب الحاكمة. وهذا لا يعني بأي حال، على صعيد آخر، عدم وجود قضية أقليات في العالم العربي. فهذه قضية قائمة بذاتها. إلا أن طرحها كقضية أقلية مقموعة مقابل أكثرية قامعة، واعتبار الأغلبية غير الحاكمة مسؤولة عن هذا القمع، هو الذي يعرقل تطور قضية الديمقراطية وحقوق الانسان كمسألة مركزية تهم الأغلبية والأقلية على حد سواء.

بحث

ما هو النظام الذي تريد الثورة السورية إسقاطه؟

فادي عزام

المعارضة السورية بكل أطيافها لم تستطيع الإجابة عن سؤالين جوهريين؟
الأول من هو تعريف النظام في سوريا؟ فلا يمكن أن تسقط شيئا لا تعرف ما هو؟
والثاني ما هو الشكل الاقتصادي والعقد الاجتماعي لسوريا بعد الثورة؟
فكل تعريفات النظام تصب في خانة الاستعارات العامة والخطابة الإنشائية وضعف القدرة على تفكيك بنية النظام، وتشخيص ماهيته، فكيف يمكن أن يكون أعلى شعار في الثورة السورية قد طرحه الشارع وهو إسقاط النظام وتعجز النخبة عن تعريف ما هو النظام، وتميّزه عن الدولة، فهل النظام فعلا بشار الأسد وعائلته، أم هو حزب البعث والمؤسسات الأمنية المتحكمة، بالقضاء والقدر السوري؟
وثاني سؤال: يلح على طرحه واضحا جليا، انشغال المعارضة بالتصورات الثورية لما بعد النظام.
وظهرت من محدثي العمل السياسي، مفاهيم قاصيرة لشرح واقع سوريا ما بعد الأسد،وهي اجتهادات، تعتمد على اجتراح بلاغة فارغة من المعنى. حول دولة مدنية ديمقراطية. أو أحقية الأغلبية باستعادة ما فرطت به وساهمت حقيقة بالتنازل عنه وتوصيل

بلد بمقدرات سوريا البشرية والطبيعية للارتهان لعصبة – أو عصابة لا فرق كبير – حاكمة، تمرست بكل أنواع الرياء السياسي والاجتماعي لتصادر مقدرات سوريا. وتحيلها إلى مقدرات شخصية لفئة، مجهولة التعريف، تسمى النظام.

بعهدة الأحزاب والتنظيمات الجديدة؟

السؤال الأول: ما هو النظام يستوجب المشاركة الجماعية في البحث عن تشخيص من هو النظام المطلوب إسقاطه ومحاكمته؟ و بالطبع وبشكل بديهي، يجب تحديد قوته وشكله وماهيته، ومنظومته ومصادر قوته، والأوراق التي يملكها كمقامر في البازار السياسي الدموي، ما هي مكوناته وطبقاته؟ من هم صانعوه وداعموه وممولوه الذين تستوجب الإطاحة بهم؟ لتصل الثورة إلى أهدافها أو بعضا من أهدافها.

فليس بالسلاح وحده تتم الثورات. وليس بدون سلاح يتم إسقاط المنظومة الإجرامية السورية أيضاً.

أعتقد أن تفكيك هذا اللغز، سيحيلنا إلى نتائج لا يرغب الكثير من المعارضين برؤيتها.

ومن هنا تبدو واقعية وبرودة العالم الغربي مثار سخط عند انفعالية وحرارة الثورة السورية البعيدة كل البعد عن الكياسة المنطقية للعقل الواقعي. وهذا ليس عيبا. فمنذ متى والثورات الحارة تنغمس في عز وجودها، ببرودة المصالح المتجلدة؟

السؤال الثاني : ما هو تصوركم وأدواتكم لما بعد سقوط النظام؟

هذا السؤال الدائم الطرح، وانشغلت الأوساط المعارضة بتقديم إجابات للخارج دون أن تشخص حقيقة رأي مكون كبير من الشعب السوري، ما اصطلح على تسميته الفئة الصامتة.

فيتم النقاش والاحتداد على مجهول غائم، مرة دولة إسلامية وتارة دولة مدنية، ومرة نظام ديمقراطي ومرة نظام شورى؟ وبحجة ان النظام علماني يجب أن نذهب لنقيضه وبحجة قياس كتلة غامضة اسمها السنّة يجب ان يكون الحكم إسلامي وغير ذلك من الجدل العقيم الساذج.

كان من الواجب أن يقوم مفكرو المعارضة أو حتى غير المعارضة، بطرح تصور أو مقترح عن النظام الاقتصادي والاجتماعي. بأضعف الأيمان وجود مقاربات حول اقتصاد الدول أو الأنظمة التي ستشبهها سوريا بعد الثورة؟

هل هي اللبرالية الخليجية كما الإمارات أو قطر مثلا ؟ أو مثل تركيا ؟ أما ستكون مزيج من الاقتصاد الحر واقتصاد السوق الاجتماعي السيئ الذكر؟ هل سيكون القطاع العام موجودا بزخم في الحياة الاقتصادية القادمة؟ أم سنتجه نحو الخصخصة على النموذج اللبناني في الحرية المالية وقوانين الضرائب العصية على الفهم السوري؟

معرفة النموذج البديل، يساعد أمثالي ممن لا يفهمون بالنظريات الاقتصادية ولا يريدون أن يفهموا سوى الحد الأدنى. كيف سيكون وجه البلد، كيف سنعيش؟ كيف سنتعايش؟

معظم الناس حقيقة، حولهم النظام إلى موظفين وملكية تابعة له في حالة بطالة مقنعة تحت مسمى الموظفين الحكوميين، وباقي الخلق ممن تحطمت حياته وخسر كل شيء، يريدون أن يعرفوا كيف ستكون سوريا العادلة المنشودة.

في الإمارات على سبيل المثال لا أحد يناقش ما هو النظام السياسي هناك رئاسي أو أميري، دستوري أو ملكي. لأن الأمن الاقتصادي والاجتماعي مصان لأبعد تقدير ومعزز بشرطة مدربة على احترام الحدود المعقولة من حقوق الإنسان، ولا أحد يعبأ بالسياسة– ما دامت حياته الصحية والاقتصادية بأعلى مستويات موجودة في العالم – على ما يبدو..

في سوريا التصور عن الوضع الاقتصادي وانعكاسه على حياة الناس يجب أن يولى الأولوية وخاصة في هذا الميقات بالذات، يحتاج الناس لأول مرة في تاريخ سوريا أن تخاطب النخبة مصالحهم لا عواطفهم. فليس بالممانعة فقط تستقر البلدان. كما ثبت لرأس النظام نفسه الذي صرح يوما لصحيفة الامريكية حول استحالة انتقال الربيع العربي إلى سورية لأن نظامها ممانع. ولا باستثمار دماء الشهداء نبقي التحريض على الانتقام المجاني دون طرح فكرة العدالة وتكريسها كمخرج وحيد ربما يكون الأقسى على المدى المنظور ولكنه الأفضل لمستقبل أطفال البلد.

حين طُلب من المعارضة تقديم صورة عن البديل انشغلت بخلق خطاب سياسي فوقي مليء بالنظريات أو متملق للمزاج العام للثورة، وحتى تلك التصورات الجدية والدراسات المعمقة لواقع الحال لم تصل إلى الناس وبقيت أسيرة النخبة. أو أرتهن لخطاب مصمم سلفا على وفق اجندة أخرها المصلحة الوطنية خطاب بمنتهى الدونية البدائية في المناطق المحررة لا تشجع أعتى المتحمسين لعدالة الثورة السورية أن يدعمها بحرف. فسلوكيات الفصائل الراديكالية الإسلامية جعلت النظام يبدو اسكندنافيا قياسا لمنطقها. فإذا كان التنظيم العالمي للإخوان المسلمين وكبار مفكريه، وطاقته وإمكانيته هو أفضل نموذج لما طرحه الإسلام السياسي حتى اليوم فما بالك بخطاب داعش أو النصرة أو أحرار الشام؟

ما خربه النظام يحتاج إلى فترة انتقالية لا تقل عن خمس سنوات لإعادة بناء البديهيات الاقتصادية والفكرية والأخلاقية.

خلالها يجب على البلد الاستنفار بكل إمكانياته بعد توفير الأمن العام بالحد الأدنى إلى قطاعات، التعليم والصحة والقضاء والبنية التحتانية وتكون إنتاجية البلد كلها الخاص منها والعام وثرواتها موجهة لهذه القطاعات. إذا سلم قطاعي التعليم والقضاء. وتوفر الأمن السوري ما بعد النظام سيحقق معجزة.

وإلا ما نفع أن يكون لديك أعمق برنامج سياسي معزز بكل الشرائع الحرة، والقوانين الرائعة وتأتي لتحكم بلدا مثل الصومال.

في النهاية نجد أن سؤالا أكثر بديهية من السؤالين السابقين، تبدو إجابته هي الأصعب،وتشخيصه هو شبه المستحيل ترى ماذا نعني بالضبط حين نقول (المعارضة السورية) ؟ فالحقيقة المؤلمة هي أنه لا يمكن أن تكون معارضا وثائرا معا بنفس اللغة.

فلسطين/سوريا

الثورة وقد شكّلت فكرةَ «فلسطين» الجديدة

سليم البيك

من بين الأمور الكثيرة التي ألزمت الثورةُ السورية بإعادة تقييمها وإدراكها، هو مفهوم «فلسطين» عند الكثير منا، هي فكرة «فلسطين» وما يمكن أن تدلّ عليه كثابت تتأسس عليه مواقف تجاه قضايا سياسية وثقافية عديدة. مع اندلاع الثورة السورية وضمن سيرورتها تجلّت الحاجة إلى إعادة التقييم والنقد والإدراك فيما يخص هذه القضايا بناء على فكرة جديدة لـ«فلسطين» بدأت بالتشكّل.

هل الرابط بين الثورة السورية وفكرة وقضية فلسطين بهذه العضوية؟ تماماً. ليست المسألة تجاوراً جغرافياً وبالتالي تاريخياً بين البلدين كأي متجاورين على الخارطة، هنالك ما هو أشمل وأعقد لما يضيفه التاريخ على هذه الجغرافيا، وكي لا نذهب بعيداً في التاريخ، لنذكُر الثورة الفلسطينية المعاصرة التي كانت لسوريا أرضاً (مخيمات ومدن وقرى) وشعباً دوراً محورياً فيها، في النقيض من الدور الاستحواذي والانتهازي الذي لعبه نظام الأسد الأب تجاه الفصائل الفلسطينية ومن خلالها، تجاه القضية ككل. كما أن هنالك ما هو أشمل وأعقد لما يضيفه الاجتماع/المجتمع على هذا التجاور الجغرافي، من المطبخ إلى الرقص إلى التفاصيل الحياتية مروراً باللهجة، وهو ما يتشاركه على كل حال شعوب المشرق العربي عامة، الأقرب

في بنيتها لتكون شعباً واحداً.

هنالك ما هو أعمق من كل ذلك إذا ما تكلّمنا عن البلدين سوريا وفلسطين وما يجمعهما تاريخياً وثقافياً واجتماعياً، لكن ليس هذا موضوعي بالأساس، بل ما أحكي فيه هنا هو ما يمكن أن يمتاز به هذين البلدين من خصوصية تجمعهما عضوياً إضافة لكل ما سبق، وهو اللاجئون الفلسطينيون في سوريا، في مخيماتها ومدنها.

شكّل وجود هذه الكتلة البشرية بأبعاده الاجتماعية والذي استمرّ لسنوات طوال منذ عام النكبة، شكّل بنية مجتمعيّة خاصة، تحمل أمكنة فلسطين بأسماء مدنها وقراها إلى سوريا، شكّل هذا الوجود حالة ما بين السوري والفلسطيني مماهياً إياهما، ما يشكّل إضافة للهوية الوطنية الفلسطينية، لا انتقاص. أجيال وُلدت في سوريا وعاشت وكبرت فيها وشكّلت ذكريات وعلاقات، مع الناس والأمكنة، هي الأجيال ذاتها التي تشكّل مدنهم وقراهم في فلسطين حالة الانتماء الأوّلي، كأنما للفلسطيني في سوريا انتماءين متكاملين، أحدهما واقعي ويومي وحياتي تشكّل في سوريا، والآخر حكائي تأمّلي وطني تشكّل في المخيمات في سوريا.

اليوم ومع الثورة السورية، توضّحت الانتماءات وخفّت تعقيداتها وبعض ما كان مكتوماً فيها، لدى الفلسطينيين في سوريا. تجلّى الانتماء مع الحالة السورية الجديدة: شعب لم يعد يطيق الاستبداد الذي يعيشه، فثار عليه وضحّى لثورته فعظمت به وعظم بها، هنا تبدّى بشكل أشدّ شعور الانتماء لهذا المجتمع، لهذا الشعب الذي تبدّى لديه في زمن سابق حالة انتماء مثيلة تجاه القضية الفلسطينية مع الثورة الفلسطينية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي.

اليوم هو الشعب عينه أطلق ثورته وما كان للفلسطيني في مخيماته إلا أن يعبّر عن حالة الانتماء الما فوق جغرافيّة وما فوق تاريخيّة التي تجمع بين الفلسطيني في سوريا، والسوري في سوريا، وتحقّقت الفكرة التي لم تكن يوماً إلا واقعاً لكن مغيّباً: أن المخيمات الفلسطينية هناك جزء من الإرض السورية، الأرض التي قرّر أصحابها الثورة على طاغيتهم ونظامه، فما كان لشركاء السوريين في هذه المخيمات إلا أن يتشاركونهم ثورتهم، بالعمل الإنساني والإغاثي بداية، ومن ثم بالحراك الثوري الفعلي وبمنح شهداءَ ودماً فلسطينياً لهذه الثورة.

بهذه العلاقة العضوية بين الفلسطينيين والسوريين في سوريا، ألزمت الثورة التي أطلقها السوريون إعادة إدراك لفكرة «فلسطين» كما لفكرة «سوريا»، نتحدث اليوم عن سوريا التي قدّم شعبها ويقدّم في بضع سنوات قد تمتد، قرباناً لحريته كما لم يفعل غيره في التاريخ المعاصر، هذه فكرة سوريا الجديدة التي تعيش سيرورتها وحالة تشكّلها في الوعي السوري والفلسطيني والعربي والعالمي، والحرية التي تتشكّل في سوريا الآن بدأت بالثورة على طاغيتها ونظامه، وقد لا تنتهي بإسقاط التطرّف الإسلامي الذي اجتاح البلاد.

أما فكرة «فلسطين» التي لا بدّ من إعادة إدراكها، فهي النقيض تماماً للفكرة المرتبطة

بإدراك النظام السوري وتوابعه من الفصائل الفلسطينية والأحزاب العربية لها، النقيض تماماً لأن فكرة فلسطينية جديدة قد تجلّت مع الثورة السورية، فكرة تعيد الاعتبار لمفاهيم كالحرية والإنسانية والعدالة وأن لا عزاء لفلسطين دونها، فكرة لها أنبياؤها، هم الفلسطينيون في سوريا، أتت من إيمانهم بالثورة السورية التي بدأت بتشكيل وعي جديد لقضيتهم، لفكرة «فلسطين» ولفكرة الانتماء لديهم إلى وطنهم كما إلى سوريا، بمعنى آخر: تشكّل وعي جديد لحالة الوحدة بين فلسطين وسوريا، وحدة بين ما جلبه معهم اللاجئون عام النكبة من فلسطين، وبدأوا، مع السوريين بجبلها بالمدن والشوارع والناس لخمسة وستين عاماً حتى يومنا هذا، وحدة كان لا بدّ من ثورة بهذه العظمة كي ندرك عمقها.

الفهم الجديد لفكرة «فلسطين» صار محكّها هؤلاء، صار مركزها هؤلاء، هنا نحكي عن فلسطين والفلسطينيين المنحازين دائماً لحريات الشعوب وثوراتهم، أنّى كانت هذه الشعوب، فكيف بالحديث عن السوريين وثورتهم؟ فكيف بالحديث عن ثورة صنّعت فكرةَ «فلسطين» الجديدة كما صنّعت فكرةَ «سوريا» الجديدة؟

سوريا /فلسطين

قراءة أخرى لسلطة الممانعة :

تمزيق المقاومة الفلسطينية وتفتيت وحدة الشعب الفلسطيني

أنور بدر

ظلّ نظام البعث السوري سنوات يتغنى على هامش ديماغوجيا المقاومة والممانعة، بأن فلسطينيي سوريا يُعاملون معاملة السوريين في الحقوق المدنية والاقتصادية وفي الدراسة والوظائف، امتيازات قلمّا تمتعوا بها في دول اللجوء العربية الأخرى. دون أن يُشير من قريب أو بعيد أن تلك الحقوق ليست هبة من دولة البعث، بل هي أقرت زمن الرئيس شكري القوتلي في القانون 60 لعام 1956، الذي نَظّم شؤون اللاجئين الفلسطينيين في سوريا وساوى بين الفلسطيني والسوري في جميع المجالات الوظيفية والمهنية والعلمية باستثناء أمور تخصّ الانتخابات والترشيح لعضوية مجلس الشعب، للتأكيد على الجنسية الفلسطينية فقط.

وقد سارت كل الحكومات المتعاقبة على هذا القانون، لأنه يُعبر عن حالة المزاج الشعبي

للسوريين في نظرتهم إلى بلاد الشام، أكثر مما يعكس رغبة السياسيين وأصحاب القرار السياسي، هذه النظرة التي أكدتها الجمعية التأسيسية التي انتخبت في عام 1919 زمن الحكومة المؤقتة لعلي رضا الركابي، حين رفضت الاعتراف بوعد بلفور أو بحدود سوريا التي رسمتها سايكس بيكو، وأصرت تمثيلها بلاد الشام كاملة، وهذا الشيء أكد عليه دستور 1928 الذي نصّ أنّ «البلاد السوريّة المنفصلة عن الدولة العثمانية هي وحدة سياسيّة لا تتجزأ، ولا عبرة بكل تجزئة طرأت عليها بعد الحرب العالمية».

مع استلام البعث للسلطة في أعقاب انقلاب آذار 1963 وجد في القرار السابق تساوقا مع أيديولوجيته القومية التي بنى سلطته على أساسها، فأبقى سريان مفعول القانون 60، لكنه كان يخشى من حرية الجماهير التي يتحدث باسمها، حين قرر احتكار العمل السياسي والنقابي المدني له فقط، وسعى في هذا الصدد للمساواة بين السوريين والفلسطينيين، فأنشا فرع حزب البعث الفلسطيني، كما أنشأ مجموعة من البنى والهياكل النقابية التابعة لسلطته الحزبية كاتحاد العمال والفلاحين والمرأة والطلبة والكتاب... وسوى ذلك كثير، أسوة بالاتحادات النقابية والمهنية التي احتكر من خلالها العمل السياسي والمدني والأهلي في سوريا، لاغيا حقوق الناس في تنظيم أنفسهم مهنيا وثقافيا ونقابيا وسياسيا.

إشكالية الساحة الفلسطينية منتصف الستينات أنها كانت تعاني مخاضات ولادة تنظيمات الكفاح المسلح، ومفهوم العمل الفدائي لتحرير فلسطين، ولم يتردد نظام البعث عن تسخير كل قواه الأمنية والعسكرية والأيديولوجية للسيطرة عليها، حتى لو أدى الأمر لاغتيال بعض القيادات الناشئة، أو تمزيق وتفتيت تلك التنظيمات العتيدة، مستغلاً بعض الضباط البعثيين في الجيش السوري، ذوي الأصول الفلسطينية، ليستخدمهم رأس حربة في مشروعه للهيمنة على المقاومة الفلسطينية، وكان البيدق الأهم في هذا المخطط هو النقيب «يوسف عرابي» ضابط فلسطيني في الجيش السوري، وهو على علاقة متينة بحافظ الأسد منذ ذلك التاريخ، وكان مرشحاً لقيادة حركة فتح، التي أطلقت رصاصتها الأولى في 1965/1/1، إذ بدأ مع مجموعة من الموالين للنظام السوري بتاريخ 9/ 5/ 1966 بتشجيع من نظام البعث، محاولة عسكرية للسيطرة على قيادة «قوات العاصفة/ الجناح العسكري لحركة فتح» في دمشق، مما أدى إلى مقتلٍ أحد قادة العمل الفدائي في الحركة، المناضل «محمد حشمة»، لتتم تصفية عرابي لاحقاً، وقد اتهم النظام البعثي عبد المجيد زغموط بقتل عرابي، فأودع في السجن حتى وفاته بداية القرن الجديد، بعدما أمضى في السجن سنوات تزيد على مدة سجن مانديلا، لكن نظام حافظ أسد كان حريصا أن لايعرف به أحد، ولم يخرج من السجن إلا جثة إلى المقبرة، كما سُجن في هذه القضية كل من: ياسر عرفات وخليل الوزير وممدوح صيدم ووليد نمر شريّم في سجن المزة، ليفرج عنهم بعد فترة قصيرة بتدخل وضغط عربي كبيرين، وفشلت مخططات الأسد لاحتواء حركة فتح، لكن المعركة لم تتوقف.

وكان أحمد جبريل البيدق الثاني، بل يمكن اعتباره «حصان طروادة» الأمن السوري منذ ستينات القرن الماضي وحتى الآن، ضابط بعثي في الجيش السوري من عائلة فلسطينية، منح لاحقاً الجنسية السورية، أسس سنة 1965 »جبهة التحرير الفلسطينيه»، وفي تاريخ 1967/12/11 انضمت جبهة التحرير بقيادة أحمد جبريل، مع حركة القوميين العرب وزعيمها جورج حبش، وأبطال العوده بقيادة وديع حداد، إضافة لمجموعة العقيد أحمد زعرور وبشير البسطامي، تحت اسم موحد وهو «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، لكن جبريل ما لبث بعد عام أن انشق عنهم إثر التوتر بين سوريا وجورج حبش، الذي وصل حد اعتقال هذا الأخير في سجن أو كركون «الشيخ حسن»، قبل أن يتمكن من الفرار أثناء نقله إلى سجن القلعة، وعدّل جبريل اسم المنظمة ليصبح «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة». كما انشقت جبهة التحرير الفلسطينية بقيادة أبو العباس عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة، لنفس الأسباب السابقة.

وما بين تجربتي يوسف عرابي وأحمد جبريل، قرر المؤتمر القومي التاسع لحزب البعث في أيلول/ سبتمبر 1966، تبني استراتيجية حرب التحرير الشعبية في الصراع مع إسرائيل، وسارع لخلق بدائل عن حركة فتح تحت سيطرته الأيديولوجية والأمنية، حتى لو كان الثمن تمزيق المقاومة الفلسطينية، فلم يكتف بتنظيم الجبهة الشعبية– القيادة العامة، بل أسس بتاريخ 10 / 12 /1966 منظمة الصاعقة «طلائع حرب التحرير الشعبية – قوات الصاعقة»، كفصيل فلسطيني فدائي مسلح يتبع قيادة حزب البعث السوري، ووضع تنظيم الصاعقة العتيد بإشراف رئيس مكتب الحرس القومي في قيادة حزب البعث وعضو القيادة القطرية فيه آنذاك «حديثة مراد»، لتستمر المواجهة بين تنظيم الصاعقة وتنظيم القيادة العامة أحمد جبريل الموالين لنظام البعث في سوريا، مقابل حركة فتح/ قوات العاصفة، و م.ت.ف بشكل عام، واستقلالية القرار الفلسطيني.

وجاءت أول إنجازات الممانعة مع تولي الأسد الأب سدة الرئاسة عام 1971، بسحب القوات السورية التي دخلت إلى الأردن لمؤازرة الفدائيين، بعد أيلول الأسود، مما أدى لخروج المقاومة الفلسطينية من الأردن إلى لبنان. ولم يلبث النظام السوري الذي كان متحالفا مع منظمة التحرير الفلسطينية ومع الحركة الوطنية اللبنانية هناك، أن انقلب على تحالفه المعلن معهما عام 1976، ليدخل بأربعين ألف جندي سوري إلى لبنان بموافقة أميركية ـ إسرائيلية ـ عربية، بحجة الدفاع عن المسيحيين فيه، بعد أن قدم عربون ولائه في تل الزعتر، دون أن ينسى هدفه الأبعد والمؤجل، لاستكمال مشروع الهيمنة على الفصائل الفلسطينية من خلال إحداث انشقاق في حركة «فتح» عام 1983، كما دعم النظام السوري حركة أمل أثناء حرب المخيمات في حصارها وقصفها للمخيمات الفلسطينية، والتي امتدت بين 1985– 1986، بمشاركة موثقة من القيادة العامة – جماعة أحمد جبريل في قصف المخيمات الفلسطينية بالصواريخ، وبأوامر من القيادة السورية.

بعد أن نجح النظام السوري بشق حركة فتح، وخرجت م.ت.ف من بيروت، تابع النظام محاولاته إضعاف شرعية وتمثيلة منظمة التحرير للشعب الفلسطيني، من خلال احتضان ودعم «حماس» لاحقاً ضد «فتح» و«م.ت. ف»، والاستقواء بمحور الممانعة الممتد من طهران إلى دمشق فحزب الله اللبناني وصولاً إلى حركة المقاومة الاسلامية – حماس.

وقد جاءت أحداث الربيع العربي لتفضح دور هذا المحور، ودور دمشق في علاقتها مع الفلسطينيين، فمنذ بداية الثورة السورية، ومع استشهاد أول فلسطيني «أسامة الغول» بتاريخ 2011/3/23 وهو يسعف الجرحى في مدينة درعا، لم يتردد النظام السوري على لسان بثينة شعبان مستشارة الأسد للشؤون السياسية من اتهام الفلسطينيين بالوقوف وراء تلك الأحداث والتظاهرات، حيث أصبح الفلسطينيون كلهم في خانة الاتهام، المتزامن مع تصعيد إعلامي توّج بخروج حماس من العاصمة السورية، وإغلاق مكاتبها بالشمع الأحمر، فحزب البعث الذي بنى الكثير من أمجاده على مقولات الممانعة والتصدي وتحرير كامل التراب الفلسطيني، لم ينظر إلى الفلسطينيين إلا كورقة يمكن أن تخدم مشاريعه أو العكس، حيث يمكن أن يتحول إلى جزار للشعب الفلسطيني عندما تتعارض مصالحه مع مصالح الفلسطينيين، كما حصل في تل الزعتر وسواه.

وليس مستغرباً وفق هذا السياق أن فلسطينيي سوريا وجدوا أنفسهم منذ اللحظة الأولى في خندق الشعب السوري ومطالبه العادلة، والتي دفعوا ثمنها آلاف الضحايا والمصابين، وآلاف المعتقلين والفارين والمفقودين، وجدوا أنفسهم مع ثورة الشعب السوري، ضد نظام الفساد والقمع الذي ساوى بينهم وبين السوريين في التنكيل والسجون والإفقار أيضاً، بينما قيادات أحمد جبريل وإعلامه المأجور لنظام الأسد يزور الحقائق ويتستر على جرائم نظام الأسد ضد شعبه وضد الفلسطينيين، ويدّعي أن دبابات الأسد التي دخلت إلى الرمل الجنوبي إنما جاءت لحماية الفلسطينيين من بطش العصابات الإرهابية، وهم الآن في مخيم اليرموك والحجر الأسود والتضامن يدافعون كذلك عن الفلسطينيين ضدّ العدو الوهمي ذاته المسمى عصابات إرهابية، بينما هم يساهمون بقتل الثوار من الشعبين السوري والفلسطيني معاً، ولن يسامحهم التاريخ على ذلك.

ولن يغفر الشعبان في سوريا للنظام مسرحيته السيئة الإخراج «الزحف السلمي إلى الجولان»، حين زج في أيار/ مايو من عام الثورة، أي بعد أقل من شهرين على انطلاقتها، بمئات من الشباب الفلسطيني والسوري على الحدود مع إسرائيل دون أن يؤمن لهم أية حماية، قاصدا بالتعاون مع المنظمات الفلسطينية الموالية له اللعب بورقة المقاومة ضد العدو الإسرائيلي، فكانت النتيجة عشرين شهيدا في أرض الجولان، وخمسة عشر آخرين على يد عصابات «جبريل» في مخيم اليرموك، بعد التشييع لشهداء الجولان، حين قام المشيعون بالتظاهر ضد عصابات جبريل والنظام السوري.

وعاد النظام يعزف على وتر المقاومة الوطنية إثر الغارات الإسرائيلية المتتالية، على مواقع

استراتيجية لمخزونه من السلاح النوعي، فأعلن السماح للفصائل الفلسطينية، بمباشرة العمل المسلح من الجولان، كرد حاسم على تلك الهجمات الإسرائيلية، لكنه بئس الرد حين يستقوي النظام بفصائل سبق وقام هو بإخصائها، كما سبق وأبعد جبهة الجولان عن أي فعل مقاوم خلال أربعة عقود من الزمن.

وعلى العكس من شعار تحييد المخيمات الفلسطينية، الذي رفعته أغلب التنظيمات الفلسطينية، للنأي بالنفس عما يحصل في سوريا، وجد فلسطينيو المخيمات أنفسهم كما هم جزءا من نسيج المجتمع السوري، فقاموا بفتح مخيمات درعا وحمص والرمل الجنوبي في اللاذقية واليرموك وخان الشيح أمام النازحين السوريين الهاربين من مجازر الأسد، حتى أن بعض الاحصائيات أشارت إلى أن مخيم اليرموك لوحده استقبل أكثر من 70 ألفاً من النازحين السوريّين، كذلك فتحت المراكز الطبية في المخيمات لعلاج الجرحى المدنيين ومن الثوار، كما شكل الفلسطينيون في سوريا أحد أهم شرايين الإغاثة، إلى المناطق المحاصرة، كدرعا مثلاً، مما عرّضت معظم المخيّمات الفلسطينيّة إلى مضايقات وحملات أمنيّة، وتمّ قصف بعضها بشكل متكرّر. فمخيّم درعا تعرّض للتدمير شبه الكامل، ومخيم الرمل الجنوبي ليس أفضل حالاً، بينما قصف مخيم اليرموك بالكيماوي. بالمقابل رفض الفلسطينيون لعبة «اللجان الشعبية» الموالية للنظام التي شكلتها «الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة» بزعامة أحمد جبريل، والتي تحولت إلى شكل من إرهاب المخيمات وبث الرعب بين سكانها، وما لبثت المناوشات بين الطرفين أن دفعت بالفلسطينيين إلى حمل السلاح والانخراط في الثورة المسلحة ضد همجية النظام الذي يقصفهم بكل الأسلحة والصواريخ، وضد شبيحته من أنصار جبريل وسواهم.

وفي أولى مظاهرات مخيم اليرموك التي خرج فيها الآلاف لتشييع أول ضحايا القصف الهمجي على المخيم، كان المتظاهرون يهتفون للشهيد ووحدة الدمّ الفلسطينيّ السوريّ، كما ندّدوا بالنظام وغنّوا بصوت ملحميّ واحد أغنية «جنّة» التي باتت أيقونةً مميّزة للثورة السوريّة.

وتتابع سقوط الشهداءِ الفلسطينيين، فوفق إحصائيات الثورة السورية سقط منذ بداية الثورة وحتى منتصف أب/ أغسطس الحالي 1540 شهيداً موثقاً، وهناك البعض ممن لم يتم توثيقهم بعد، فإذا علمنا أن عدد الفلسطينيين في سوريا يقارب 600 ألف فلسطيني بينهم 528،711 مسجلون في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا»، فإن نسبتهم بين شهداءِ الثورة السورية تصبح مرتفعة، وهذا يؤشر على حقد النظام تجاه المخيمات الفلسطينية والفلسطينيين الذين رفضوا الخنوع لسلطته. فقصف المخيمات بالطيران الحربي، ودكت أزقتها براجمات الصواريخ ومدافع الهاون، وصولاً إلى قصف مخيم اليرموك بالكيماوي، كما قصف العديد من المدن والبلدات السورية.

فإذا أضفنا لأعداد الشهداء، أن «70 الى 80 في المئة من فلسطينيي سوريا تمّ تهجيرهم

من المخيمات وفق تصريح المفوض العام لـ«الأونروا» فيليبو غراندي خلال زيارة له إلى سوريا بتاريخ 22/ 5/ 2013 أي نحو ثلاثة أرباع اللاجئين الفلسطينيين، نستطيع أن ندرك حجم المأساة التي اجترحها نظام الممانعة بحق الفلسطسنيين في سوريا.

وللمقارنة فقط نذكر أن عدد شهداء الانتفاضة الفلسطينية الأولى ضد العدو الإسرائيلي التي استمرت من 8/ 12/ 1987م وحتى تاريخ 4/ 5/ 1994م، بلغ 1550 فلسطينياً شهيداً، فيما وصل عدد شهداء الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى، منذ 28/ 9/ 2000 وحتى 8/ 2/ 2005، فقط 4412 شهيداً.

فإذا حسبنا نسبة عدد الفلسطينيين في سوريا إلى عددهم في الضفة والقطاع، وإذا أخذنا فارق الزمن بين سنتين ونصف من عمر الثورة السورية وسبع سنوات من عمر الانتفاضة الأولى وأربع سنوات ونيف للانتفاضة الثانية، سندرك أن نظام الأسد الذي يدعي المقاومة والممانعة، والذي أفقر الشعب السوري لخمسة عقود من الزمن بحجة أنه يعمل على تحرير فلسطين، هو أشد إجراما بحق الفلسطينيين والسوريين معاً، وفتكاً بهم بعشرة أضعاف جرائم وفتك الاحتلال الاسرائيلي الغاصب.

كذلك نذكر للمقارنة فقط، أن حصيلة شهداء مجزرة دير ياسين الأشهر في تاريخ فلسطين بلغوا 85 شهيداً من المدنيين العزل فقط. بينما مجزرة تل الزعتر التي ارتكبها النظام السوري في لبنان ذهب ضحيتها قرابة 5000 شهيد فلسطيني.

وعودة على بدء بخصوص الحقوق المدنية والاقتصادية التي كان يتمتع بها فلسطينيو سوريا، فإنه نظام الأسد فبل الثورة وبعدها، سحب الكثير من هذه الحقوف أو الامتيازات، ففيما كان يحق للفلسطينيين ولوج مختلف مجالات العمل والتعلم في مختلف الكليات في الجامعات السورية الرسمية قبل بدء حكم آل الأسد، فإن قيوداً بمراسيم حكومية، أو بأوامر تنفيذية غير معلنة، وضعت أمامهم بعد ذلك، فلم يعد بإمكان الفلسطيني العمل في الوزارات بعدما كان عدد منهم وصلوا إلى منصب وكيل وزارة، كما أنه لم يعد بإمكان الضباط الفلسطينيين من الرتب العالية الخدمة في الجيش السوري فيما كانوا قبل ذلك يتولون مناصب مهمة وحساسة في الجيش السوري، ولم يعد بإمكان الفلسطينيين، في عهد بشار الأسد، العمل في التعليم الرسمي، كما حظر على التلاميذ التسجيل في بعض الكليات، خصوصاً التطبيقية منها. وكل هذا تمّ ويستمر الآن باسم المقاومة والممانعة والعمل على تحرير كامل التراب الفلسطيني!

مقالة

سد الطغيان ونهر التاريخ

أحمد عمر

تعاريف الدكتاتور كثيرة، لعل احدها هو: الرجل الذي يكسر التاريخ، ويخنقه، ويعصر الجغرافيا، ويشوهها ويخلق بين مساحتها الجدر الوهمية والاجتماعية والسياسية واحيانا الحقيقة كما تفعل اسرائيل، فهي، اي اسرائيل، دولة دكتاتورية بين دول مستعبدة او متبّعة او خائفة. يمكن ان يعرف التاريخ تعريفا، في هذا السياق، كالتالي، هو الزمن المجرد مشخصا، او منقوشا او مكتوبا. الجغرافيا قياسا، تصبح الوطن بعد ملئه بالناس والمواطنين، واهل الديار. لايمكن خنق التاريخ او كسره الا بعد التحكم بالجغرافيا.

في سوريا على سبيل المثال، تجهل الاجيال الجديدة، تاريخها وتعتقد ان التاريخ بدأ منذ الحركة التصحيحية، حيث كانت الارض غمرا «وروح الله يرفرف على المياه» الاسد ليس باني سورية الحديثة وإنما خالقها ايضا. عداوة الطاغية مع التاريخ والذكريات اصيلة وهي «غريزة اساسية». يبدأ كل دكتاتور بمحو وحذف التاريخ القديم، ولهذا اصبحت البطولة في كتب التلاميذ البعثيين والطلائعيين مطوبة لكائنين هلاميين هما باسم ورباب اللذان لا يفعلان شيئا سوى الوقوف على اشارة المرور وقول صباح الخير والهتاف!

الوطن جغرافيا وحسب، حسب الدعاوة البعثية، جبال وانهار تجف، وحدود يدافع عنها بقوة وتخافر بشدة، ليس حرصا على امنها وإنما سعيا وراء الجباية والخوة والاتاوة وتهم التخوين. لم يكن السوري يعرف قرى بلاده و اثارها و معادن أرضها واهلها الا بعد الثورة.

عرفها بدماء اهلها.

الطرفة التي تروى عن الدكتاتور فرانكو بليغة في معنى التأزيل والسرمدة والثبات في المكان وفي الزمان، في معنى التخلّد والتأبّد وتجميد التاريخ. وتتمة الخبر أنه في سكرة الموت، جيء بالوزراء ففتح عينيه الكليلتين وسأل: ماذا يفعل هؤلاء؟ فقيل له: جاؤوا يودعونك! فقال: و إلى أين هم ذاهبون؟!!.

المستبد تعريفا هو الذي يتصرف في شؤون شعبه بلا خوف، ويحاول ما وسعه، تجميد نهر التاريخ في المجتمع الذي تسلّط عليه وسرقه إلى ملكيته. ويسمى التجميد باسم اجتماعي هو الاستقرار. الاستبداد هو حكم على الشعب بالسجن في حدود الوطن الحظيرة مع الأشغال الشاقة، ولعل أسوأ الأشغال الشاقة هي هتاف وتصفيق الشعب لجلاده!

المستبد يمنع السياسة في مجتمعه، والسياسة حركة من غير سلاح، والحركة حسب قوانين نيوتين زمان ومكان و مسافة وسرعة وزمن وتسارع، وتطور ونمو اقتصادي ومعاشي، والثبات سكون ومرض وتشوه. يجمّد المستبد الحياة في مجتمعه إلى بركة ومستنقع، ففي البرك والمستنقعات يسهل صيد الأسماك التي تحب العذوبة، بتعكير البركة (فرق تسد) أو حتى بالديناميت الصريح إن أمكن. يصفي مكانا و يعكر آخر حسب المشيئة والرغبة، وإذا كان الأصل في الأشياء الإباحة (في الإسلام) ففي كيان الاستبداد الأصل هو التحريم. التحريم هو أكبر ثروة اقتصادية لزبانية الزعيم وأجهزته، كل مسؤول، هو غير مسؤول من شعبه، وهو مفت وحيد في مجال عمله.

يركد المستبد حركة المجتمع في كلورفورم القهر الحامض، فيصبح هو مانح الحياة ومصدر الحركة، الاستبداد تحنيط لكل مرافق الحياة، ينسى المستبد أنّ الزمن يجري بهدوء، فكما يهرم الشعب في ظله الآسن من الخوف والتعب والعجز كذلك يهرم المستبد أيضا. او يتراكم فعله، أما الأطفال الذين يولدون فيجري خطفهم أو غسل أدمغتهم بالإعلام الديماغوجي التكراري التمجيدي التفخيمي ؛ في المدارس و فرق الكشافة وأشبال الثورة.. المستبد يفسد العلاقة الأسرية فالأبناء ليسوا ذراري آبائهم سوى جينيا لكنهم أبناء المستبد فكريا وايديولوجيا ومن هنا جاء مصطلح «الأب الجمعي»، ولم يكن أتاتورك هو «أبو الشعب» الأخير، يتزوج المستبد من الخلود فينجب الشعب!

الاتحاد السوفيتي كان بلدا مسورا ومحاصرا، ومختنقا في زجاجة الإيديولوجية الاشتراكية، وكذلك كان العراق وكوبا وتونس. وقد أصبحت كوبا متحفا للسيارات القديمة، وقد يعتبر محبو الانتيكات هذه حسنة من مناقب الاستبداد، كما كانت القنبلة النووية العراقية الوليدة حسنة من حسنات الطاغية العراقي! وقد لا تعدم لسم العقرب حسنة، وللأفعى مزية فالسم يمكن أن يستخدم دواء بشروط، لكن السم قاتل ومميت إلا بجرعات صغيرة جدا.

لا يستطيع المستبد أن يحكم بلا حصار وقيود (أحكام عرفية وقوانين طوارئ) حتى يتحكم في البركة إن بمنع العلم والمعرفة واحتكار المال، أو بالضرائب، أو بالمراسيم السلطانية

والفرمانات فالحصار « بيزنس »، وقد يكون نتيجة وعقوبة لأفعاله وسلوكه كما في حالة كاسترو. ندرج حصار غزة أيضا في هذه الترسيمة، إذا اعتبرنا إسرائيل هي الدولة المستبدة. المحللون يذهبون إلى أن المستبد الوطني غالبا أشدّ من المستبد الأجنبي الذي لا يعرف أسرار الحياة الاجتماعية والدينية وشؤونها كما المستبد الوطني الذي يعرف من أين تؤكل الكتف.

المستبد يعمل جاهدا على تكبيل عقارب الزمن، الماضي منه و الحاضر، أما المستقبل فيحضر في « سين التسويف والاستقبال » و وعود الخطابات لإشاعة الأمل في النفوس، الطغيان يحرص على الوعود، والتذكير بالخطط الموضوعة على المنضدة: سوف نعمل لكم الأرض جنة، فقط انتظروا قليلا... فاليأس قاتل، لكن الانتظار سجن آخر!!

تحاول أدوات المستبد الإعلامية جاهدة قتل الماضي، الطغيان يخاف من الذكريات، فلا يبقى منه سوى أشباح بعيدة، أو مزق منتوفة منتقاة. التاريخ عائم في أدبيات المستبد وإعلامه، ومرويات التاريخ ليست سوى أمجاد غائمة وأحجار أو قصص لا تصلح سوى للغناء وليس للاقتداء. أما الحاضر فهو ذروة الانجاز وهو القمة و « المعجزة « ، الخليفة العباسي المنصور منع سيرة عمر بن الخطاب، حتى لا تتم المقارنة بينهما. الطغاة يخافون من الذكريات كما يقول محمود درويش لذلك يحاول المستبد أن يستأنس الماضي بعدة طرق، بتأويل نصوصه، أو بناء جسور وأنفاق إليه، بجعل نفسه حفيدا للعظماء أو الخالدين أو الكرام (نبوخذ نصر، آل البيت..) أو الألقاب الفاخرة والصفات السنية. فالمستبد لا يستطيع سرقة الحاضر من شعبه إلا بسرقة الماضي أو تحييده أو ستره، أما المستقبل فيصبح مصادرا أو بعيدا مثل سراب.

إنّ الماضي الشخصي و العائلي و النضالي للمستبد أيضا غائم، قلّما تذكر أدبيات إعلام المستبد التاريخ الشخصي للزعيم، بالرغم من إفراط الإعلام في التدبيج و التصفيق له. قلّ أن نرى أهله، أمه وأبيه وسيرته، وان حضرت فهي مختصرة، و كاملة ومثالية و ضبابية، لا أصدقاء أو زملاء، أصحابه ومعلموه غالبا هم قتلى أو في السجون، الشهود على الماضي الشخصي شهود على جرائم و سوءات لذلك يجب التخلص منهم، هكذا فعل ستالين وصدام حسين والحبيب بورقيبة....يحاول المستبد ما وسعه إعاقة الزمن وتخديره في « الدولة » أولاً بمنع التداول، فالتداول يعني الزمن. و لا زمن في الكيان الطغياني سوى للهو والمباريات والطرب، وثانيا بحجب العلم والمعرفة أو بتحييدهما ومنعهما من التأثير وجعل المعرفة أسيرة جهاز الكومبيوتر أو الغرفة المغلقة، ومنعها من التفاعل والانتاش والإزهار. يجري توحيل الزمن و تدبيقه بالحواجز و العوائق والعقبات، فالموافقات على رخص ووثائق لوازم الحياة معقدة وتحتاج إلى تواقيع ورشا و« جهاد ».. في البلاد التي تحت الاحتلال أو البلاد التي ترزح تحت الاستبداد، الحياة ماراتونية بطيئة و لا يمكن التحرك إلا بوثائق معقدة وأختام وضرائب.شعار المستبد المتصوف في حبه ذاته: الرعية إن لم تشغلها بالباطل شغلتك بالحق.

إنها محاولة لجعل الناس في زمن متخلف عن زمن المستبد، في الكيان الطغياني زمنان: زمن « البطل » المستبد الفردوسي وهو زمن سحري، سريع، حريري و عسيل حيث كل شيء

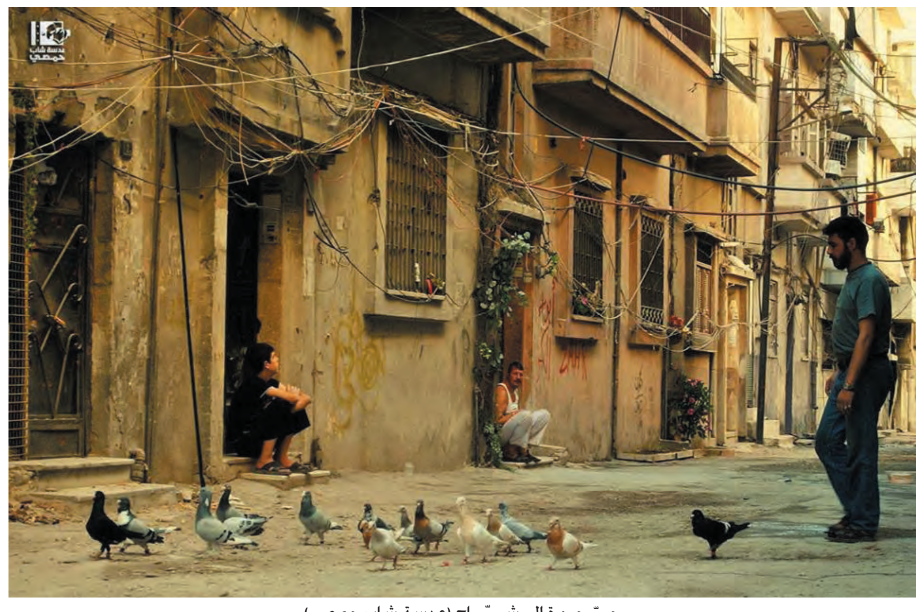
ملبى ومطاع ودان. وزمن جهنمي حارق وبطئ هو زمن الشعب الكومبارس.

«الوطن» المستبد به منفى قاس وبارد أو حارق، حتى وإن كان مسقط الرأس، ومرابع الطفولة، لكنه مكان عدائي. بل إنّ المنافي تعامل اللاجئين بأكرم مما تعامل به السلطات الاستبدادية رعاياها، والزمان منفى أيضا، حيث تهاجر الرعية إلى الأوهام والأحلام ومسابقات المليون واليانصيب و الأفلام والعقاقير المنومة والمخدرة وكرة القدم..

أما على الصعيد الشخصي البيولوجي فالمستبد يحتال على الزمن بوسائل عدة فهو لا يكاد يهرم، فالأدوية والأطباء يتكفلان بالدواء والصباغ والماكياج، يتكفلان بالتجاعيد والشيب. أجلى مظاهر احتيال المستبد على الزمن نجده في تكريس الزعيم صورة موزعة في كل مكان، صورته شابة قوية حاضرة، وهو غائب (في عالم الغيب) لا يشاهد إلا في المناسبات، كأنه يحاول التشبه بالله الموجود في كل مكان. الصورة جميلة، شابة، حتى إن شاخ، وتتولى برامج الفوتوشوب والريشة وزاوية التصوير مخاتلة الزمن.. الصورة لحظة مخلدة مجمدة في الزمن المجمد بدوره. المستبد يجعل نفسه فوق التاريخ وفوق الجغرافيا، من الصعب أن يصل إليه ابن رعيته، فهو فوق العرش الذي دونه كلاب وجنود.

أما انهيار الأخلاق والفساد فهو نتيجة للاحتيال على الزمن. فالراشي يرشو لتجاوز هدر زمنه و هدر عمره، والمرتشي يبيع ما هو حق للمواطن ليقفز إلى زمن متقدم عن زمنه الحقيقي:النتيجة فساد شامل وفصام عام. الزعيم له شخصيتان واحدة صالحة مثالية في الصورة، وصورة ثانية وحشية هي الحقيقية وتنفذها أجهزته. مرآة المستبد هي حرسه و أمنه و جواسيسه ومخابراته. والمواطن بدوره مفصوم الشخصية، بين الحقيقة في البيت ومع الأصحاب المخلصين، وبين مكان العمل ومع الناس حيث يسود الخوف، والخوف سيف آخر يقصر العمر ويذبحه ويصرم الزمن ويفرمه. الاستبداد يصنع المواطن الحلزون، المواطن البطيء، المواطن الهارب إلى قوقعته خارج التاريخ.

الوقت كالسيف قال المتصوفة، و المستبد يقطع شعبه بسيوف كثيرة أبرزها سيف الوقت. انه متأله قادر على الإماتة فقط، وقتل الزمن إماتة من الدرجة الثانية. المستبد فوق العرش مثل الإنسان الأول في الجنة، يسعى للتأبد، فيطمع ويأكل من شجرة الخلد، ويتوهم أنه خالد وفي حرز وحصانة في عسكره وحرسه وقبيلته وماله...، لكن كما أنه لا توجد جريمة كاملة كذلك لا يوجد استبداد خال من الأخطاء. فيسقط بفعل أخطائه أو بفعل الزمن الذي قتل بسيفه شعبه، فدوام الحال من المحال. يمسك المتصوف في حب السلطة بالشمس عن شعبه، و مع ذلك لا يكلم أحدا إلا من وراء حجاب البيان والخطاب او شاشة التلفزيون، فوقته مشغول بالعبادة.. لذاته. انظر الى حصاد اربعين سنة « بعثية »: التاريخ مجرد مسلسلات ممتعة او مملة، و الوطن ممزق الى انقاض جغرافيا او جغرافيا صافية!



حيّ جورة الشيّاح (عدسة شاب حمصي)

ابداعات المقموع

حوار

الكاتب والمسرحي السوري غسان جباعي:
«لابني المعتقل: لا تنس آخر شعاع من ضوء الشمس»

حاوره: عادل العوفي

قضى سنوات طوالاً في سجون النظام، تهمته الوحيدة التي لا تغتفر هي الكلمة والفكر الحر. فنان راقٍ ومبدع يهوى أبا الفنون (المسرح) ويعتبره ملعبه الأول.

ليس غريباً أن يعيش ابنه المسرحي (عُمَر) نفس تجربته المرة في أقبية العار.. يفتخر بتلك السنوات حيث حوّل– هو ورفاقه– السجن إلى مركز ثقافي ومشغل للفنون اليدوية..

ليس غريبا أن ينحاز لثورة شعبه في وجه الديكتاتورية.. إنه الكاتب والمسرحي السوري القدير غسان جباعي الذي سمح لنا بالنبش في أسراره المؤلمة والمضيئة كذلك، وشاركنا همومه وأحلامه في هذا الحوار الخاص:

● دعنا نعد بك إلى الوراء وتحديداً إلى فترة سجنك التي امتدت إلى عشر سنوات، هل لا يزال هذا الهاجس حاضراً بقوة في حياتك بما يحمله من ألم وعذاب وقهر؟ وكيف تحاول التعاطي مع وضعية ابنك الفنان عمر جباعي المعتقل حالياً في أقبية النظام؟

● تجربة الاعتقال لا يمكن أن تُنسى.. إنها وشم تحمله الروح التواقة للحرية وتتباهى به

حتى النهاية، خاصة إذا كانت فترة الاعتقال طويلة جداً وقاسية، بلا ذنب يعاقب عليه القانون ودون محاكمة.. ثم إن السجين في بلدي يبقى سجينا حتى بعد خروجه من المعتقل، فلا يحق له السفر ولا يحق له العمل أو حتى العيش باستقرار وكرامة إنسانية.. فكيف يمكن أن ينسى!! كيف ينسى الإهانة والذل وهدر الكرامة الإنسانية!! كيف تُنسى الشتيمة الأولى والصفعة الأولى على الوجه، وعضَة قيد الحديد الأولى على المعصمين والساقين، واللقاء الأول مع الموت وجها لوجه تحت التعذيب؟! لكن السجن لا يولد لديك الألم والعذاب والقهر فقط، بل يولد أيضا التحدي والأمل والحضور المتألق للطاقة البشرية الكامنة لديك.. لقد حوّلنا السجن مع الأيام إلى مركز ثقافي ومشغل للفنون اليدوية والنحت..

قرأنا آلاف الكتب وكتبنا آلاف القصائد والقصص والروايات، وصنعنا أيقونات ما زلنا نحتفظ بها حتى الآن، من نفايات قطع الخشب وبذور الزيتون واللوز والدرّاق والحجارة والعظام..

أما بالنسبة لابني عمر.. فهم يتوارثون سلطة الاستبداد ونحن نتوارث السجون والمنافي، والطريف في الأمر أن يعيد التاريخ نفسه بهذه القسوة، فقد اعتقل ابني الشاب بنفس السن الذي اعتقلت فيه، كان عمري 32 عاما، وكان ابني يؤدي الخدمة الإلزامية مثلي، وهو الآن في نفس الفرع الذي قضيت في أقبيته سنة كاملة تحت الأرض. الفرق الفاصل بيننا أن جيلنا سجن في زمن الخوف والخنوع، حيث لم يكن أحد يجرؤ على المطالبة بنا أو التلفظ بأسمائنا، وحتى الجيران كانوا يشيحون بوجوههم كي لا يلقوا التحية على أهلنا، بينما يسجن عمر اليوم في زمن الثورة الشعبية الوطنية العارمة، ثورة الحرية والكرامة..

• هل قدر المبدع الحر في سوريا أن يتجرع من كأس التعذيب والاعتقال؟ وما أوجه الشبه بين مسيرتك ومسيرة ابنك الشاب؟

• الإبداع بما يحمله من قيم الحق والعدل والجمال والمعرفة، القيم التي وجد الإبداع من أجلها، ويعيش لأجلها، لا يمكنه أن يتصالح مع الاستبداد والطغيان، الذي يعمل على ترسيخ قيم الظلم والذل والفساد والتخلف. والإبداع لا يمكن أن يعيش إلا تحت ضوء الشمس وفضاء الحرية بينما لا يمكن للاستبداد أن يعيش إلا في العتمة أو تحت الأضواء المصطنعة، ولا يمكنه أن يستمر ويستقر إلا بقتل روح المبادرة وكم الأفواه وإنعاش روح الابتذال والسطحية والجهل والمحسوبية والعبودية.. كان ذلك منذ الأزل وستبقى المعركة مفتوحة عبر كل الأجيال.. وهذا هو وجه الشبه بين مسيرة جيلي جيل الثمانينات وجيل ابني عمر..

• أنت من الأسماء المسرحية المعروفة جدا في سوريا، ما دور أبي الفنون في هذا الظرف العصيب من تاريخ سوريا الحديث؟ وهل يؤمن الجميع بهذا الدور؟

• المسرح الرسمي يقدم بعض العروض التافهة التي لا يستطيع أحد حضورها، ليس من أجل المسرح بل كي يقولوا «كل شيء على أحسن ما يرام»، أي أنها ليست ذات طابع مسرحي بل سياسي.. والحقيقة لا يستطيع الإنسان الشريف التفكير بالمسرح وشعبه يقتل

ويهجر وبلده يدمر أمام عينيه.. حتى المدارس أقفلت أبوابها والكهرباء مقطوعة والطرق خطرة مليئة بالقناصة.. علينا أولا أن نوقف القتل والتدمير، أن نرفع الحواجز ونحقق الأمن، أن نؤمّن السكن والغذاء والدواء للنازحين.. قد يستطيع المسرحيون خارج سوريا فعل شيء، وربما تستطيع تحقيق ذلك القصيدة والأغنية واللوحة والصورة والصوت.. أما المسرح فالفرص أمامه معدومة..

• عانيت كثيراً بسبب مواقفك الثابتة والواضحة، هل يساورك الندم بعد كل هذه المسيرة؟ وعلى ماذا أنت نادم بالضبط؟

• لست نادماً على شيء.. لقد قلت كلمة حق في وجه سلطان جائر، وهذا ما أعتز به. ربما أشعر بالخجل لأنني ما زلت حياً حتى الآن، أخجل من هذه الأفعال المشينة التي يمارسها النظام ضد شعبه، أخجل عندما تدك دمشق بالصواريخ من جبل قاسيون، أخجل كلما سقط فتى أو فتاة بعمر الورد بينما أجلس أنا خلف طاولتي، أخجل من دمائهم وشجاعتهم وتوقهم للحرية والكرامة التي فرّطنا بها وهدرناها عقوداً، أخجل أن أتنفس الهواء الذي كانوا يتنفسونه وأن أتواجد في المكان الذي قتلوا فيه، أخجل كلما رأيت مواطناً سورياً يجلد على أيدي جبهة النصرة وغيرها من الظلاميين الغرباء الذين سرقوا دماءنا وتضحياتنا، ويريدون لنا أن نستبدل الطغيان السياسي بطغيان ديني لا وطني، كما أخجل بالنيابة عن هذا العالم المتحضر المدافع عن حقوق الإنسان والذي أصبح فجأة بلا ضمير ولا إنسانية.

• الشعب السوري انتفض عن بكرة أبيه ضد الظلم والاستبداد، أنت فنان اختار الاصطفاف بجانب الحق، كيف تقيم دور وأداء الفنانين أثناء الثورة؟ ولماذا اقتصر دور هؤلاء على التطبيل والتزمير لطرف دون الآخر وباحتشام شديد؟

• الفنانون الذين انحازوا للنظام هم من صنع هذا النظام.. الفنان الحر كان حراً قبل الثورة وعندما قامت انتمى إليها. أما أشباه المبدعين المقعدين الذين يحتاجون إلى عكازات النظام والذين صنعهم الإعلام والامتيازات والعلاقات العامة، فمن الطبيعي أن ينتموا لسيدهم لأن مكتسباتهم تزول بزواله. وللحق، عدد الفنانين الأحرار ليس قليلا، لكنهم غير معروفين كونهم كانوا بالأصل مطاردين ومحرومين من المشاركة ومهمشين لسنوات طويلة. وعلى أية حال فالثورة كما أعرف يجب أن تجرف في طريقها ليس النظام السياسي وحسب بل كل مرتكزات الاستبداد الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، مهما طال الزمن.

• لوسائل الاتصال الحديثة دور فعال أثناء ثورات الربيع العربي، باعتبارك تنتمي لجيل علاقته تبدو متوترة نوعا ما مع مواقع التواصل الاجتماعي مثلا، كيف استطعت التأقلم مع هذه المستجدات وبالتالي إنشاء حسابات على هذه النوعية؟ وما الدافع الحقيقي الذي جعلك تلتحق بالركب؟

• لا يستطيع المبدع أن يعيش بمعزل عن العالم، وإن سمح بذلك عرض نفسه للموت، عليه أن يكون دائما في قلب الأحداث، متصلا بالمشهد الثقافي والسياسي والفكري،

متفاعلا معه. كنا حتى في السجن نخترع شتى الوسائل للتواصل مع العالم الخارجي، عن طريق القراءة والزيارات والرسائل السرية. والمسألة لا تتعلق بجيل دون آخر فالمبدع السوري أصلا تأخر في استخدام النت بسبب حجبها من قبل السلطات ولذلك كان نهما في الإقبال عليها والتفاعل معها.

● شخصيا أجدك اسما لامعا في عالم الكتابة والمسرح لكنني أستغرب لقبولك ببعض الأدوار «الثانوية» في المسلسلات التلفزيونية، لماذا هذا الاختيار؟ وهل هو إجباري أم أنه نابع عن قناعة شخصية؟

● أنت محق تماماً. كان حظي سيئاً جداً في هذا الإطار.. في البدء أردت أن أتعرّف على هذه الفنون، السينما والتلفزيون من خلال مشاركتي ولو بأدوار صغيرة، وكنت أظن أنني ممثل موهوب، وعندما تبين لي أنني ممثل فاشل أقلعت عن المشاركة. لكن إلحاح بعض زملائي المخرجين علي وحاجتي المادية، كثيرا ما كانت تجبرني على قبول ذلك، للأسف الشديد.

● كيف ينظر غسان جباعي لمستقبل الثورة السورية؟ وهل أنت متفائل بالقادم؟

● منذ اليوم الأول لخروج المظاهرات في درعا قلت لزوجتي: انتصرنا.. وكنت أعلم حجم المأساة التي ستحل بالشعب السوري لأنه خرج إلى الشوارع وطالب بالحرية والكرامة، لكنني لم أكن أتوقع هذا الحجم من الحقد والخسة البشرية والسقوط الأخلاقي للنظام، أنا أكتب الآن وأنا تحت قصف الصواريخ، ترتج الأرض تحتي وفوقي، لكنني رغم الدمار والمجازر والجوع والتشريد أثق بحتمية انتصار هذه الثورة، ثورات الشعوب لا تُهزم، الثورة التي تستمر وحيدة أكثر من سنتين ونصف وتقدم مئات الآلاف من الضحايا لا يمكن أن تهزم، وهذا التاريخ أمامكم فادرسوه جيداً، حتى إذا هزمت الثورة تنتصر، تصبح مقدمة لثورة جديدة، وحتى أولئك الطائفيون الذين قدموا لمساعدة النظام، وأولئك التكفيريون الذين جاءوا ليقيموا دولة الخلافة ويعلموا بني أمية الإسلام، والذين يحاولون سرقة دماء السوريين وأحلامهم في الدولة المدنية الديمقراطية لجميع أبنائها، سيفشلون في مسعاهم ويعودوا من حيث أتوا.. أنا واثق من ذلك ومتفائل بمستقبل سوريا المشرق.

● متى سيعود المسرح عشقك الازلي إلى وضعه الطبيعي؟ وما هي أحلامك المؤجلة في هذا المضمار؟

● فن المسرح لا يقوم إلا على ثلاثة أرجل: المعرفة والجمال والحرية، وما يحدث الآن في سوريا لا يمكن أن يكون نهاية المطاف، بل نهاية الاستبداد وبداية الركض نحو الحرية. أما عن أحلامي فقد كتبت ذات يوم في صفحتي على الفيسبوك: «أحلم، بمناسبة يوم المسرح العالمي، بعرض محلي كرنفالي في ساحة الأمويين، يحضره جميع الشهداء والجرحى والمفقودين والمهجرين.. »

● ما هي رسالتك لابنك عمر ولكل المعتقلين السوريين في سجون النظام؟

● أقول لابني عمر:
إذا أخذوك بغتة
لا تنس رصيدك من قبلاتنا وخفقات قلوبنا
خذ معك أصابعنا إن شئت
واترك أوراقك المسرحية في درج الطاولة
خذ دموعنا ولهفتنا عليك
واترك ابتسامتك العالية خلف زجاج النافذة
ولا تنس أن تضع في جيبك الداخلي
آخر فقاعة هواء
وآخر شعاع من ضوء الشمس

الظلال السجينة أبداً . . .

إبراهيم صموئيل

مع دخول نيلسون مانديلا إلى المشفى وخروجه، انتابني ما يثير في النفس هواجس ومشاعر عن ألعن ما اخترعته البشرية منذ فجر تاريخها إلى اليوم: السجون . . وعن أعتى مَنْ تتقوّض روحُه من هذا الاختراع، قبل جسده: السجين. فما من كائن بشري في الدنيا يمكن توصيف حاله بدقة، في مرحلة من مراحل حياته، بأنه لا يكون من بين الأحياء، ولا يُعتبر في عِداد الأموات إلا: السجين!!

اقتلاع الناس من بيوتهم، وتهجيرهم عنوة، وتشريدهم في أصقاع الأرض خوفاً ورعباً على حيواتهم من القتل، فيه من الوجع والأسى والإهانة الكثير. إفقار الناس، وتجويعهم، يذلّهم ويحطّ من كرامتهم، غير أنهم يمكن أن يتدبّروا حاجاتهم العضوية– على الأقل– إلى الطعام والشراب، ولو على نحو ما، فيسكت نداء الطبيعة. المرضى يستسلمون إلى إرادة أعلى منهم، فيصبرون، ويأملون بالشفاء جراء علاجهم واستطباباتهم من آخرين، ولو على نحو بسيط. بل حتى الموتى، الذين يُقتلون في الحروب، أو على أيدي سلطات الطغاة وأنظمة الاستبداد، يُخلّفون للأحياء من أقربائهم وأحبائهم جروحاً غائرة تنزف في الذاكرة والوجدان، وآلاماً نفسية يصعب البراء منها، غير أنهم (القتلى) يتخلّصون من التنكيل بحيواتهم، ويدخلون في «راحةٍ» من العسف والتعذيب المرير.

السجناء ليسوا كذلك!

حين يُعتقلون– خصوصاً في الدول العربية والعالم الثالث– إنما يُساقون إلى برزخ لا حياة فيه، ولا فيه ممات! إلى «مكانٍ» لا يتصل بالأرض، ولا ينفصل عنها! وحين يُعتقلون إنما يُحشرون في أزمان لها مبتدى، غير أن منتهاها مجهول لدى السجناء وحتى لدى السجّانين أحياناً! هناك، في السجون والمعتقلات، يظلّون معلّقين من شرايين انتظارهم، وأوردة توقهم، في حالة شاذّة عن المسار الآدمي بين لحظتي الولادة والموت: لا هي تقطع المسار، ولا تواصله! لا تحيي الكائن، ولا تُميته! لا تبث فيه الحضور، ولا تدهمه بالغياب! لا تُنعش فيه الأمل، ولا تخدّره باليأس.. وذلك كله في مكان ناءٍ على الأغلب، محوط بالسرية والتكتّم والتعتيم بأكثر مما يُتخذ لأمكنة ومراكز تصنيع وتخزين أسلحة الدمار الشامل!!

في ذلك «اللامكان» و«اللازمان» يرقد السجناء. يرقدون أحياء يعتمل في دواخلهم أشهى ما في الحياة من توقٍ وشوقٍ ورنو وتطلّع.. ولكنْ، داخل قبورٍ مغلقة، كتيمة، لا يدخل إليها ضوءٌ، ولا تتسرب منها ظلمةٌ، لا يصلها مُستطلع لما يجري، ولا يخرج منها مُنبئٌ عن واقع الحال! يرقدون في ثنايا التعذيب، وبراثن التنكيل والتمثيل بالأجساد، ومخارز حقد الطغيان المنفلت من عقاله، وأفانين العمليات الجارية عليهم بغية هرس الإنسان فيهم وتحويل الركام إلى حيوان بهيم، وهو ما كُتب عنه آلاف الصفحات سواء في الوثائق والشهادات، أو في الأعمال الأدبية على غرار ما قدّمه يوسف إدريس في قصته الطويلة الشهيرة «العسكري الأسود» أو عبد الرحمن منيف في روايتيه ذائعتي الصيت: «شرق المتوسط 1975» ثم وضعه خطوط تشديد حمراء تحتها في روايته: «الآن..هنا 1991» وغيرهما الكثير من الكتّاب العرب.

ورغم ذلك، فالآفة الكبرى لا تكمن فحسب في تعذيب الجسد، وكيّه، وإدمائه، وابتكار كل ما يخطر للمخيلة– أين منها غريزة الوحوش؟!– من أفانين الهدم والتشويه والمسخ... وإنما أيضاً– قبل ذلك وأخطر منه وأدهى– تعذيب الأرواح، وتمزيق بنيتها، وعطب مكوّناتها بغية تحويلها إلى هشيم يستوطن عدداً من السجناء– حتى بعد إطلاق سراحهم– ويلازمهم ما داموا أحياء يرزقون!!

بلى، يُطلق سراح السجناء– ممن نابهم الحظ فلم يقضوا في السجون– غير أن ظلالهم تبقى أسيرة الجدران! تماماً كما أطلقت الطغمة العنصرية سراح نيلسون مانديلا في الثاني من فبراير شباط 1990، ولكنها فعلت بعد أن دأبت منذ العام 1963، وعلى مدار سبع وعشرين سنة، على العمل الحثيث لفصل ظله عنه. في ذروة شبابه ورجولته– في الخامسة والأربعين من عمره– زُجَّ به في السجن، وفي سفح شيخوخته، حين بلغ الثانية والسبعين، أُطلق سراحه، ولكن من دون ظل! ظلّه بقي هناك، في السجن، شاهداً على الاستبداد، وكذا بقيت ظلال ملايين السجناء في بلداننا، الذين اُعتقلوا لسنوات وأُفرج عنهم، بقيت في كهوف المعتقلات.

والآن.. مَنْ في مقدوره أن يُخلي سبيل الظلال؟! مَنْ في مكنته أن يُطلق سراح الآهات المجروحة التي ندّت عن السجناء في عتمات السجون؟! مَنْ يستطيع أن يُعاود جمع أحلامهم

التي سُفحت في تلك الليالي الصامتة الموحشة؟! فكم من مرة بكى مانديلا– وبكى ملايين السجناء أمثاله– وهم يتذكرون أصدقاءهم وصديقاتهم؟! كم مرة ضربوا الأبواب الموصدة بقبضاتهم حتى وهنت دون جدوى؟! كم مرة انطووا على أنفسهم واستحضروا بيوتهم وأسرهم ليتنشقوا عبق روائحهم، ولو في الوهم؟! كم مرة قوَّضهم اليأسُ فكفروا بالحياة كلها مذ كانت؟! كم مرة رنوا ورجوا ووعدوا أنفسهم، وأكدّوا وعودهم، ثم خابوا؟!.

لا عارَ في الدنيا كعارِ السجون.

لا ظُلم مهما قسا واشتدَّ، يماثل ظلم السجن وقهره. لا وحدة تدانيه، ولا وحشة تقاربه، ولا انكسارات تماثل انكساراته، ساعة تضيق الجدران والأبواب الموصدة بالسجين، وتضيق بتوقه واشتهاءاته، تضيق بحمّى تنفسه ونبضِ قلبه، وبالدم الذي يسير في عروقه.. لحظة تأخذه غفوة في النهار فتتجمّع، في برهة، كلُّ السهول الخضراء الفسيحة على أحلام يقظته، أو شبه نومه، وتدهمه شموسٌ فيشتهي لسعها، ويحيط به ضجيجٌ فيتمنى صخبه. يرنو إليه الأصدقاءِ والأحباء والأهل وأطباق طعام البيت وأزيز سريره وملمس وسادته وروائح تغلغلت فيه وشكَّلته... حتى إذا ما فتح عينيه واستيقظ من غفوته وجد الطغاة والجدران الصمَّ ولون الوحشة تنيخ عليه وتسحل روحه!.

إن كل ما وُثِّق، وكُتب، وصُوِّر، ورُسم، ومُثِّل، وعُزف.. يظل– رغم أهميته– على حواف التجربة، على أطرافها، أما التجربة عينها فتظل عصيّة على التعبير. ألهذا يلتزم سجناءٌ عديدون الصمتَ المطبقَ بعد خوضهم التجربة، فيمضون ما تبقّى من حيواتهم، ثم يرحلون، ومعهم ترحل أهوالٌ تتجاوز قدرة العقول البشرية على تصديقها؟! ربما لهذا، أو ربما يكون لعارٍ، على جبين البشرية والعالم أجمع، لا يزال ماثلاً، ولمّا يُمحَ بعدُ؟!

ابداع الأسير

من رسائل معتقل إلى أمّه

ابتسام تريسي

1

أمّي الحبيبة..

كنت – ومنذ أشهر– أستعدّ لهذا الموقف، روّضت نفسي وجسدي على تقبّل أيّ نوع من التعذيب، درّبت جسدي على الاحتمال بمضاعفة ساعات الرياضة، وهذا ما ساعدني على احتمال الألم في الأيام الأولى للتحقيق. لكن من قال يا أمّي إنّ الألم هو ألم الجسد الذي يمكن لكلّ منا أن يحتمله في سبيل أن ينال وطنه الحريّة! أذكر عندما كتبتِ عن «نجيب السخيطة» والآلام التي تحمّلها في سجن القشلة في حلب، وحين مرّر الفرنسيون عربة «الدريس» فوق جسده على البيدر كما يفعلون بالحنطة، كلّ هذا لا يقاس بما يحدث لي الآن.. ألم الروح أكبر وأشدّ وطأة يا أمّي. كيف لي أن أحتمل تلك الألفاظ النابية التي يقولونها عنك!. اكتشفت داخل معتقلات الديكتاتور أنّ نظريتي «بأنّ الجسد السليم يستطيع أن يدفع بالروح لالتماس جمال الكون» مشروطة بالحريّة. لا يمكن لجسد معتقل أن يلتمس جمال الكون، لا يمكن لجسد سليم أن يكون حاضناً لروح جميلة. لم أعد مؤمناً أنّهم لن يستطيعوا الوصول إلى روحي – كما أكّد لي توفيق– ولن يمسوها بسوء! بل استطاعوا أن يتركوا في أعماق روحي بقعة عتمة وسط النور الذي حاولت أن أحافظ عليه

طيلة فترة اعتقالي.

يخرج شخص آخر من جسدي، يجلس في الركن.. هناك حيث العتمة القاتلة، لا ملامح محددة له، لكنّي أسمع صوته الهادئ، يلوث روحي بتلك البقعة السوداء يضرّج جدرانها ويخطّ عليها عباراتهم البذيئة، تهديدهم، أسلوبهم القذر في ابتزازي.. هل أتخلى عن جسدي؟ قولي لي.. هل أتخلّى عنه في سبيل سلام روحي؟

كنت واثقاً أنّك تملكين حدساً يجعلك تعرفين أنّي حي أرزق.. وهذه الثقة تؤلمني، لأنّي أدرك أنّك تشعرين بي وتتألمين وأنت هناك على الضفة الأخرى من النّهار.. تعرفين ما يجري لي بالضبط، تلومينني على لحظات الضعف والهشاشة وفقدان الإيمان! لا أجرؤ على إخبارك بما يجري كي تكفي عن لومي، أو تجدي لي عذراً فيما أفعله بنفسي. أدرك أنّ هناك أطرافاً أخرى في الحياة، وأنّ حياتي لا تعنيني وحدي، وأنّه ليس من حقّي أن أتصرّف بهذه الطريقة.. أدرك يا أمّ نور، سامحيني على لحظة الضعف هذه.. اعتبريها تماماً فشة خلق، وسأعود كما تحبين!

2
يا أمّي..

ليس فلسفة للموت، لكنّ صديقي الذي أصبح أنا وهو يحتضر بين يديّ وجلده المحترق بنار حقدهم لم يعد قابلاً للّمس، وصارت يداي تحملان بصماته رماداً.. قال لي: «النار التهمت جسدي الضعيف، لكنّهم لم يستطيعوا أن يمسوا روحي.. روحي امتزجت بهذه النار، وستمتد ملتهمة أجسادهم يوماً». ما أنا على ثقة منه أنّ النار لم تغوه ليتبعها إلى عالم الأشباح، مودّعاً الحياة بكلّ ألقها.. فلم يكن الموت خياره حتّى الساعة التي ألقوا فيها بجسده إلينا بلا مبالاة حاقدة.

عرفته خلال الأشهر الماضية مؤمناً بمقدرته على تحدي الموت ورغبته في الحياة.. لم يذكر أمامي مرّة واحدة أنّه يعشق الفناء، ويجد فيه الخلاص! لكنّ الملفت للنظر أنّه في اليوم السابق لموته المأساوي كان يحدّثني عن عيد الشمس عند قبائل «الناتشيز» – في معرض وصفه للثورة– (بأنّهم كانوا يحافظون على شعلة النار بصبر وبطء عجيبين.. وفي ليلة احتفالهم يتركون النّار المشتعلة منذ عام تنطفئ قبل الفجر، ثمّ يقوم الكاهن بحك قطعتين من الخشب الجاف ببعضهما متمتماً بكلمات سحرية بصوت منخفض ترتفع وتيرته تدريجياً مع ازدياد وتيرة حركة الاحتكاك والفجر يقترب، حينئذ يقوم منادٍ متجول بتوصيل النار إلى أكوام البوص، فتنتشر النار بحركة حلزونية، تضيء لحاء أشجار البلوط فوق الهيكل، وتعطي بذوراً نارية تشتعل في بيوت القرية جميعها، فتنيرها لعام قادم!) وعقّب قائلاً: إننا نحتاج لتجديد النّار كي لا تهرم وتنطفئ يوماً من تلقاء ذاتها! وسألني بغتة «كيف تستطيع أن تشعل النار

وسط هذه العتمة؟». قلت هامساً: ومن قال لك إنّها منطفئة! أتعتقد أنّه يجب أن نرى بأعيننا كل شيء؟ هناك أمور ندركها بأرواحنا».

رأيتُ ابتسامته تنير جانب وجهه وقال بصوت جهوري لفت أنظار المعتقلين: «نعم، لسنا بحاجة للحديث عن الطاقة التي تتركها النار في الجسد بانتظار هبّة ريح.. فشهوة القتل الكامنة في أرواحنا ستدفع الجسد إلى الانتقام، فكلّما ازداد الحطب ازدادت النّار اشتعالاً».

أخافتني لمعة عينيه.. انقبض قلبي للحظات وأنا أتأمل تلك الطاقة الخفية التي يمتلكها البشر والتي تتبدّى بأشكال مختلفة بحسب المكان والزمان والظرف المحيط. تخيّلت أنّ «توفيق» في تلك اللحظة يملك قدرة شمشوم على تحطيم المعبد وإن كانت يداه مقيدتان!

يا أمّي بمَ سأقاوم العتمة بعد رحيله؟ هل سيكون للشمس عيدها وأبواب الزنازين مغلقة على أجسادنا التي تأكلها العفونة والحشرات والجوع؟.

4
يا أمّ نور.. أعرف أنّك تسألين..
لماذا الموت؟

مرّة أخرى ودائماً فهو المحرّض الأوّل على التشبث بالحياة. في العتمة تغدو الحواس أكثر رهافة وأشدّ ضياءً، وتتحوّل الأصابع إلى مجسات أخطبوطية تفرز روائح الكون، وألوانه، وأسطحه الخشنة والناعمة. هل خطر ببالكِ مرّة أنّ للّون ملمس تدركه أصابعنا مع اعتياد العتمة؟ قميص صديقي الناري له ملمسٌ لاذع، كلّما حاولت أن ألفت انتباهه إلى أمر يحدث حولنا بملامسة ذراعه، كان اللون يتسرّب تحت جلدي، ويصفع حواسي، ويستنفر ما تبقى من خلايا هامدة في جسدي بفعل الاعتياد والسكون وقلة الحركة.. إنّه الدّم.. الدّم الذي يجري هناك في الشوارع، الأزقة، البساتين، الجبال. إنّه الدّم المستباح يجعل كل ما حولنا قابلاً للاشتعال في لحظة.. ثمّ يهمد ويتلاشى وسط العدم.

هكذا كان توفيق شعلة من نار، تأججت، والتهبت، وتألقت، ثمّ انطفأت دفعة واحدة. حين غاب أصبحت الألوان أقلّ حدّة، انطفأ وهجها.. صارت السطوح أقلّ خشونة، أصابعي تشعر بملمس ناعم، ليس حريرياً، بل لزجاً وأملس كجلد أفعى.. إنّه اللون الرمادي للجدران.. إنّه لون الوقت الذي لم يعد قابلاً للحركة!. لم يكن بطيئاً بالنسبة إلى جسدي، فقد تمدّد فيه بسرعة غريبة، جعلتني أشعر بالكسل والفتور، ثمّ تيبست عضلاتي، واتّخذ جسدي شكلاً جنينياً لم أعد قادراً على الخروج منه. إنّه الماء... لكنّه ليس دافئاً وحانياً.. بل لزجاً ومقرف الرائحة.. هكذا استعضت عن القماش والجدران وحركة يدي، بعالم افتراضي لمخيلة متعبة لم تعد تحتفظ من العالم الخارجي سوى برجع صدى مشروخ لأصوات مبهمة، كانت في زمن ما واضحة تماماً، وفي متناول سمعي!...

ما زالت في متناول سمعي.. فقط غادرت مجال الرؤية، وبتُّ كأعمى يتلمّس ألوان الكون بأصابعه، فيأخذ اللون شكلاً لزجاً، دافئاً، حاراً، بارداً، خشناً، وحريرياً.. حسب درجاته وقربه من القلب وبعده عن الروح.. أصابعي صارت تحمل لي شكلاً جديداً للعالم عندما تدرك الألوان من حولي، وتترك فيّ أثرها المطمئن أو المستفز.. فصرت أخشى أن ألمس أيّ شيء يقترب مني.. خاصة هؤلاء الأشخاص الذي أرتاح لأصواتهم وأحاديثهم خشية أن يخدش ذلك الارتياح لونٌ مستفز!

قد لا يكون للموت معناه الخاص ونكهته المعتادة داخل المعتقلات، فهو أحياناً رفاهية يطلبها البعض للخلاص من تراكم الألم والوحدة والخوف من مصير شائك. لماذا رحل وتركني وحيداً أشارك شبحه بعضاً من ذكريات مشتركة وأخرى تشاركنا الحديث عنها؟. لماذا يفرض عليّ حضوراً يعذّبني، ويستفزني، فلا أكاد أجد السلام الذي تحاوله روحي لتكمل توغلها داخل العتمة القاتلة؟

بالنسبة لي الذي لا يموت أبداً هو ذلك الذي سيموت معي في اللحظة ذاتها، أمّا توفيق الذي مات بين يديّ، لم يعد جميلاً لأنّه ترك لي كل الأسى والرغبة في المحافظة على ذكرياته لتغدو بشكل ما هو، لأبقيه معي أطول زمن ممكن.

أمّا هؤلاء الذين يموتون وحيدين في العتمة والبساتين الموحشة، فيجبروننا على حمل وزر موتهم ما دمنا أحياء.. هل حقّاً وجدوا محمود وحيداً في الجبل ولم يتعرّفوا عليه إلاّ بواسطة ثيابه؟ قولي لي الحقيقة يا أمّي.. أخبريني.. لا تشفقي عليّ من الألم، لم تعد روحي المكتظة بأشباحهم تجد طاقة لألم جديد.. هل حقّاً عذّبوه حدّ محو ملامحه؟

هل عرفتِ لماذا الموت؟ وللمرّة المليون.. ولماذا لا نستطيع هنا أن نحكي عن شيء آخر في هذا التوقيت؟

5
يا أمّي...

تذكرين ليلة الخامس عشر من آذار؟ لا أشكُّ أنّها فارقت مخيلتك يوماً.. لأنّها تعنيك كما تعنيني. تلك الليلة التي لم ننم فيها، أنا على حافة النهاية وأنت على حافة الانهيار من الألم. كيف أعتذر لروحك عن تلك الليلة يا أمّي؟

في الثانية عشرة ليلاً كنتِ تلفين الشوارع في جولة للتعرف على أفرع المخابرات في المدينة.. لا ألومك على ذلك، وإن كان تصرّفك قد أرهق روحي، وحمّلني فوق طاقتي، لأنّي لم أستطع حينها أن ألتمس وسيلة أخبرك من خلالها أين أنا. توقفتِ في البرد وهدأة الليل أمام فرع الخطيب.. أبعدتْ الريح الماطرة شالك عن وجهك.. ولسعك برد ارتجفتْ له ضلوعك.. وهمست روحك «لستُ متأكدة.. ليس هنا».. ما الذي جعلك تذهبين إلى

فرع فلسطين؟.. كلّ تلك المسافة من الترقب التي قطعتها بلهفة لم تكن ذات فائدة.. لأنّ روحك شعرت بالفراغ والبرد والصمت الذي تقطعه السيارات العابرة بسرعة جنونية لتوقظ فيك حدساً لم يخطئ «ليس هنا.. بالتأكيد ليس هنا». حين تلكأت خطواتك ونبض القلب قريباً من «آمرية الطيران» كنتِ تشمين بقايا من رائحتي.. لم تستطيعي التأكيد أنّي موجود، لكنّ قلبك خفق بشدّة.. «كأنّه مرّ من هنا!» لم تخطئي يا أمّي.. كنت قد غادرت المكان عصر ذلك اليوم.. كنت آمل – كما أخبروك فيما بعد– أن يفرجوا عني ذلك اليوم كما أفرجوا عن عدد من رفاقي في المعتقل. أعرف أنّك لم تستطيعي النوم في الثانية صباحاً، وأنّ قلبك بدأ يخفق بعنف، وأنفاسك تضيق، وجسدك يرتعش بقوة.. لم يكن بيدي يا أمّي أن أوقف جنونهم ليستقرّ قلبك مكانه ويرتاح.. لم أستطع أن أصعد الدرجات، وأغادر ذلك القبو القذر.. للأسف يا أمّي ما شعرتِ به كان حقيقة، نعم.. كنت أخطو إلى الغيبوبة تحت التعذيب في اللحظة التي شعرتِ فيها بالاختناق وشهقتِ ولم تستطيعي التقاط أنفاسك.. شعرتُ بهذا يا أمّي.. قاومت الغياب لأجلك.. قاومت الموت لأجلك.. خرجت من غيبوبتي، امتلكت الصحو في الثالثة صباحاً لأمسح الدّمع عن عينيك، وأربّت قلبك لتهدئي وتنامي.

6
سمعتك يا أمّ نور

وصلني عتابك الشجي مخترقاً جدران الزنزانة وقلبي!

سمعتك يا أمّي تعتبين عليّ أنّي لم أزرك في المنام منذ خمسة أشهر!..

لا أدري يا أمّي كيف استطعتُ التسلّل قبل ذلك التاريخ إلى أحلامك.. ولا أشكّ أبداً أنّني حاضر في قلبك وروحك.

لكنّي لا أجد تفسيراً لعدم استطاعتي زيارتك.. هل أخشى على قلبك من التبدلات التي طرأت على جسدي؟ هل أخاف نظرة الفزع في عينيك؟ أم أخشى عدم تصديقك أنّي أنا.. ولست كائناً آخر!

تكثرين لومي يا أمّ نور وأنتِ على يقين أنّي لا أملك من أمري شيئاً.. أعرف أنّ ذلك حقّك.. أعلم يا أمّي أنّك تمنيت لو أخبرتك بكلّ شيء منذ البداية.. لكن عذري الوحيد أنّي خشيت عليك من الألم، وخشيت أن تمنعيني! ربّما لم أعرفك جيداً يا أمّ نور مع أنّي اختبرت صلابتك مراراً..

عندما اعتقلوني في المرّة الأولى وأغلقت هاتفي لمدة خمسة أيام.. عرفتِ بحدسك كلّ شيء ولم تصدقي كذبتي الصغيرة بأنّ هاتفي معطل! وعندما احتجزوني في المرة الثانية ليومين في عربين.. أيضاً كشفت كذبتي الصغيرة على الرغم من أنّك لم تنظري في عينيّ!

تذكرين يا أم نور؟ كنتُ كلّما كذبت عليك، تنظرين في عينيّ، وتقولين لي: لا تكذب عليّ، عيناك تشفان عن روحك وتقولان كلّ شيء.

أعرف أنّك منذ اعتقالي تكتبين لي مسجات لا تصلني، لأنّ هاتفي خارج نطاق التغطية.. وأعلم أنّهم منذ التاريخ الذي افتقدني فيه الحلم «حلمك».. قطعوا الخط وحرموك وهم تخيّل أنّ تلك الرسائل تصلني وأقرؤها ولا أجد وقتاً للردّ!

سامحيني يا أمّي إن لم أمر بك في منام..

ذلك لأنّي أرجو الله أن أمرّ بكِ في الواقع.. لأقبّل يديك طويلاً، وأبكي كما لم أفعل وأنا طفل صغير.

7
يا أمّي...

أعرف أنّها ليست المرّة الأولى التي أتسبب لكِ فيها بالهلع.. ربّما هي المرّة الرابعة! أم أنّ العدد أكبر يا أمّ نور؟

اعذريني لم أقل لك «صباح الخير يا أمّي» ربّما لأنّي لم أعد أشعر أنّ لهذه الكلمة معنى.. ربّما لأنّ الجدران الرمادية هذه المرّة أطبقت بقوة على روحي، ولم تعد تترك لي مجالاً لأستعيد أيّ صورة ملونة عن العالم.

يا أمّي.. يا أمّ نور..

سامحيني فالطفل ابن السنة والنصف الذي هرب منك يوماً حين فتحت باب الدار لأمر ما.. امتلك أجنحة منذ تلك اللحظة.. أعاده الله إليك بقدرته.. لا أشكّ أنّك تذكرين.. وتتندرين بتلك الحادثة، فقد كنتِ تفعلين ذلك دائماً.. تعيدين رسم المشاهد وقصّ حالات الهلع التي عشتِها وأحداث ذلك السبت المشرق من شهر شباط 1990.. يومها توغلت في زحام «البازار» وبقيتِ مع العائلة تبحثين عني طيلة اليوم.. ما رويته بعد أن وجدوني آخر النهار أمام دكان «شعبان» آكل كعكة اشتراها لي، أثار ذعرك، لكنّي يومها كنت مستمتعاً بتلك المغامرة.. بدخولي بيتاً لا أعرفه، ولعبي مع أطفال لم أرهم بعد ذلك ثانية وربّما التقيت بهم لكنّي لم أعرف أنهم هم أنفسهم.. البيت ذو الحديقة الكبيرة، والحمار، والشبّاك المحاط بقضبان حديدية!

أعرف أنّ سلسلة الهرب من البيت والضياع كانت تؤرقك دائماً لأنّي فعلتها بعد سنة ونصف أيضاً وكنتُ في الثالثة، ثمّ أعدت الكرّة وأنا في العاشرة حين غضبتُ من أولاد عمتي فعدت ماشيا من سراقب إلى أريحا.. آه يا أم نور.. كم احتمل قلبك من لوعات.. لكنّي أدرك أنّ اعتقالي كان أقساها!

أمّي.. كنتِ دائماً تقولين لي إنّ هروبي الأول حدث في يوم مشمس من شباط، وكان يوم سبت.. هل كان ذلك في الحادي عشر من شباط أيضاً يا أمّ نور؟

8
صباحك نور يا أمّي..
صباحك أنا.

أعلم أنّي تأخرت عليك كثيراً.. وأدرك حجم الجرح الذي تسببت لك فيه وأنت تعدين الأيام بانتظار عودتي..

هل أعتذر لروحك يا أمّ نور على تسرعي في إخبارك أنّي آتٍ إليك خلال شهرين؟

مضى الشهران ولم أصل.. لا أعرف كيف أشرح لك ما يجري الآن.. لا أعرف كيف أعبّر عمّا بي، لكنّي على يقين أنّك تعلمين، وتحسين بي..

تذكرين عندما أنهيتِ كتابة روايتك «المعراج»؟ كنّا نتناول فطورنا في المطبخ.. أذكر عندما حدّثتني عن يوسف وكيف عاد إلى أمّه على الرغم من موت جسده.. عاد ليجدها راكعة قرب قبره تقرأ القرآن، وقد صفّت أصص الزرع «الحبق والريحان والعطرية» حول قبره، كما كانت ترتّبها على درجات بيتهم في «عين كارم» حينها توقفتُ عن المضغ، ووضعتُ قطعة الخبز من يدي.. وتأملتُ اللهب المتصاعد من كأس الشاي.. خشيت يا أمّي أن أرفع رأسي لأنظر في عينيك.. انقبض قلبي للحظات... وأنت تروين لي ما حصل ليوسف.. تقلّصت روحي قبل أن تندفع عبر النافذة لترى تلك العودة تومض وكأنّها حقيقة.. كنتُ أراني هناك.. وكنت أراك «صفية» نعم رأيت تلك اللمعة الحزينة في عينيك.. ونهضت مغادراً بحجة أنّي شبعت..

لماذا خشيت لحظتها أن أكون يوسف.. وأن لا أستطيع العودة إليك بجسدي؟ لماذا تجسدتِ أمامي يا أم نور «صفية» أم يوسف؟

لم أدرك وقتها السبب بما حدث.. وخرجت من الحالة بسرعة بتفسير بسيط وهو أنّي تسببت لك بتعب روحي ونفسي مضاعف وأنت تعيدين الكتابة من جديد حين طيّرت لكِ ملف الرواية من الكمبيوتر!

تذكرين يا أمّي؟ يومها خرجتُ من البيت.. وبقيت أتمشّى على طريق الجبل لساعة متأخرة من الليل، وأنا أفكّر بحجم الإحباط والألم الذي تسببت لكِ فيه.. تذكرين «المسج» الذي أرسلته لكِ (لو كان الدمع يعيد الأوراق الميتة إلى الشجر لبكيت حتّى الصباح). ربّما ظننتني يومها بلا إحساس، وأنّي أتفكّه، وأمزح معك..

لكنّي حقّاً بكيت يا أم نور.. لأنّك أيضاً بكيت أمامي التعب والجهد اللذين بذلتهما خلال سنة كاملة في الكتابة..

تعلمين يا أمّ نور.. يوسف عاد إلى صفية لأنّكِ استطعت كتابة الرواية مرّة ثانية بإرادة ودأب أذهلاني.. فأحببت أن أعود إليك لأخبرك كَم تعلّمت من تلك التجربة يا أمّي!

سامحيني يا أمّي.. ليس بيدي أن أعود..

ليس بيدي أن أصدق الوعد..

ليس بيدي أن أحمل إليك فرحة صغيرة..

يذبحني حزنك.. ويبكيني.. كيف لي أن أمتلك مقدرة يوسف على العودة يا صفية؟

9

صباح الخير يا أم نور.. صباحك قلبي.. كيف حالك بعدي؟

مرّ عيد الثورة، وعيد الأم، ومازلت ألملم جسدي في مربع لا يتسع لطفل في السادسة.. أتذكر كيف كان هذا الجسد يتمدّد على أرض الصالة في بيتنا الذي تسطع ملامحه مخترقة دماغي للحظات ثمّ تنطفئ فلا أستطيع القبض عليها ثانية.. مجرد رماد في حلقي، مجرد رماد بين أصابعي.. أيعقل أن أتحوّل إلى مستحاثة كهؤلاء الذين يحيطون بي؟ ما شكل وجهي يا ترى؟ أحاول أحياناً أن أرسم شكلا لوجهي لأستطيع أن أعرف على أيّ هيئة صرت؟ على مرّ الأيام التي أحصيها بمنتهى الدقة تحوّل هذا الجسد الذي كثيراً ما عشقت كماله وانحناءاته واستقامته إلى شكل بدائي يجعلني أعتقد أنّ دارون لم يخطئ في نظريته.. قد لا أعرف بالضبط من خلال انحنائي وأنا في طريقي إلى التحقيق إن عدت إلى هيئة القرد التي كان عليها الإنسان البدائي، لكنّي ألمحه من نظرة جانبية إلى هؤلاء الذين يسيرون أمامي في الممرات الضيقة القذرة..

أستيقظ كلّ يوم.. لا شيء يشير إلى الزمن، أصواتهم وحدها من يعطي شكلاً ليوم جديد، تحضرين أمامي كما دائماً، تحثينني على النهوض: «نور، كفاك نوماً.. أريدك أن تشتري لي بعض الأغراض من السوق» أغفو من جديد ليوقظني صوتك: «نور.. انهض.. أريد بطاقة انترنت.. الهاتف مقطوع.. نور استيقظ.. كفاك كسلاً، انهض أريد أن تصلح لي الحنفية.. نور.. نور.. نور...».

لون الشمس، وشوارع دمشق، وجبل الزاوية.. رفاق المدرسة والجامعة.. والحلم.. المستقبل الذي بترت ساقاه و.. الانتظار!

أنتظر صوت السجّان ينادي اسمي لأذهب إلى المحاكمة من دون جدوى! أعلم أنّ ملفي عندهم مليء بكلّ التهم التي تثبت إنسانيتي وولادتي حرّاً.. مع هذا آمل أن يكتفوا باعتقالي – كما حدث لبعض رفاقي– ستين يوماً...

أرسم كلّ صباح – في مخيلتي– شجرة خضراء، أوزّع عليها لافتات صغيرة «الأمل.. سوريا.. المستقبل». يمرُّ الوقت ثقيلاً.. محتشداً بأصوات الجلادين وشتائمهم ولسع

سياطهم على أجساد عارية تنزف في سمعي أنينها وألوان الدّم الحار.. بركة من دم، تتسع وتتسع.. وتنقلب صحراء واسعة.. في وسطها يلوح سراب يعشي العين.. ما بين ضوء وظلّ يتشكّل النهار.. لا أحتاج إلى مخيلة لأراه فثمّة أشياء تبقى أقوى من ذاكرتنا ومخيّلتنا، ثمّة أشياء تسكننا، وتتجسد خارج ذواتنا كما الحقيقة لا لبس فيها.

يصرخ السجان يأمر السجناء بالنوم مع ملايين الشتائم يوزعها على كل المهاجع.. نهار آخر قد ولّى مخلّفاً وخزة في القلب وحسرة تحرق الحلق.

يجافيني النوم، صورٌ جديدة تستيقظ في رأسي المثقل بالماضي.. ما قبل العتمة.. الطريق إلى بيتنا، رائحة الأمكنة، شكل الأبواب المفتوحة على لحظة الشروق، النهر لحظة الفيضان، وصوتك لا يني يناديني.. يا نور...

المعتقل نور عبد الرحمن حلاق / اعتقل بتاريخ / 11/2/2012

بحث

روح لا تحدها جدران
ولا يهزمها التعذيب

د. رضوى فرغلي

جسد محبوس بين جدران ضيقة، وعتمة يغيب فيها الإحساس بالمكان والزمان، بينما الروح مُعلقة بالوطن.. والأطفال والأهل يتذوقون مرارة الفراغ الاجتماعي والعاطفي، ومستقبل مفتوح على كل الاحتمالات.

في عالمنا العربي تتحول السجون وأماكن الاعتقال والاحتجاز، المعلنة والسرية، إلى فضاء معتم لارتكاب أشد ألوان التعذيب النفسي والجسدي بحق المعتلقين، خصوصاً من يتم اعتقالهم لدوافع سياسية. فنادراً ما يكون السجن مجرد مكان لتقييد حرية الشخص- مع احترام كلّ حقوقه والحفاظ على كرامته الإنسانية- ولا حتى فرصة لتأهيله وإعادة دمجه في المجتمع.. بل يتحول إلى ساحة لممارسات وحشية وعنفية، تترك آثاراً نفسيه لا تمحى.

لا تخضع السجون عادة لإشراف قضائي، ولو حدث ذلك يكون بشكل صوري، كما لا يسمح للمنظمات الحقوقية بالزيارات الفجائية أو تقديم خدمات للمسجونين أو المعتقلين، إلا في أضيق حدود. وهو ما يشجع على أن تتحول ظاهرة «التعذيب» إلى نظام ممنهج، وليس حالات استثنائية، والتواطؤ المجتمعي، نوعاً ما، على قبولها أو التساهل مع مرتكب التعذيب والتبرير له.

وعبر التاريخ الإنساني تراكمت وثائق وشهادات، عن جرائم فظيعة ترتكب بحق المعتقلين ليس آخرها ما جرى في « سجن أبو غريب » وتم فضحه عام 2004. وقد قام مؤرخون وفلاسفة وعلماء نفس بتقديم دراسات ووجهات نظر عميقة، حول صيغ التعذيب، وتأثيرها على المعذبين، وكذلك سمات من يقوم بتلك الممارسات الوحشية.

التعذيب البدني

بداية، يشمل المعنى العام للتعذيب، أي عمل يُنزل آلامًا جسدية أو نفسية بإنسان ما وبصورة متعمدة ومنظمة كوسيلة من وسائل استخراج المعلومات أو الحصول على اعتراف أو لغرض التخويف والترهيب أو كشكل من أشكال العقوبة أو وسيلة للسيطرة على مجموعة معينة تشكل خطرا على السلطة المركزية. كما يستعمل التعذيب في بعض الحالات لفرض مجموعة من القيم والمعتقدات التي تعتبرها الجهة المُعذِبة قيمًا أخلاقية.

ولعل من أشهر أشكال الإيذاء البدني: إحداث إعاقة ببتر الأصابع، وضع عصابة على العين لفترات طويلة، ترك المجني عليه في مكان ضيق وقذر وسط حشرات، إطلاق الحيوانات المفترسة أو الكلاب المسعورة عليه، إجباره على السير فوق شيء محترق أو نثار الزجاج، تعليقه مقلوب الرأس، الكوي والصعق بالكهرباء، قلع الأسنان أو الأظافر، استعمال العصي أو السوط، الغمس في الماء المغلي أو البارد، الإخصاء، الاغتصاب وهتك العرض، تشويه الوجه والأجزاء الظاهرة من الجسم، سلخ الجلد، التجويع، السحل، إضافة الملح إلى الجروح، إيلاج الفلفل الحار أو البهارات إلى الأغشية المخاطية، المنع من النوم، إجبار الشخص على تناول عقاقير تؤدي إلى أعراض غير مريحة، وغيرها من « التفانين » التي تترك أذى جسدياً مباشراً، حيث ثمة تراث هائل، بل ومتاحف متخصصة في رصد « إبداع » الإنسان في قهر وتعذيب أخيه الإنسان!

الطابع النفسي

ويأخذ التعذيب طابعاً نفسياً هو أشد وطأة ومرارة من التعذيب الجسدي، مثل:

ترك الشخص في غرفة وحده لفترة طويلة وهو يسمع أصوات تعذيب الآخرين، بغض النظر إن كانت مجرد تسجيل أو تحدث بالفعل.

إجباره على مشاهدة تعذيب الآخرين.

استغلال خوفه ورهابه من أشياء معينة.

إجباره على التعري تماماً أمام الآخرين.

الإهانة اللفظية.

اغتصاب نساء أسرته أمام عينيه.

إهانة والديه أمامه.

الإيحاء بأنه سيتم قتله خلال ساعات.

فمثل هذه الحيل لا تمثل إيذاء بدنيا على الشخص نفسه بشكل مباشر، لكنها تهدف إلى تعذيبه نفسياً، وإهدار حرمته، وإذلاله، والحط من كرامته الإنسانية. فالجاني عادة لا يكتفي بتدمير وتشويه جسد الضحية، بل يهمه بالدرجة الأولى تدمير روحه وكسر إرادته، وتشويش وعيه وذاكرته وحواسه، والحصول على اعترافات بعينها منه.

الآثار النفسية للتعذيب

إن ما يصيب البدن،غالبا يمكن أن يبرأ منه الشخص المعذَّب بعد فترة ما، لكن الآثار النفسية تظل معه إلى الأبد، مثل خدوش في أعماق الروح، لا تبرأ ولا تندمل. فهي تدمر صورة الشخص عن نفسه، وتصيبه بالعديد من الأمراض النفسية، تبعاً لقدرته على الاستجابة والتحمل.

وهنا تلعب الإرادة الداخلية والصلابة النفسية دوراً مهما في إصابة الإنسان بالأمراض النفسية التالية على صدمة الاعتقال والتعذيب. فكلما كان الشخص قويا نفسيا، مؤمنا بقضيته، متمسكا بحقه النفسي في الحياة، يلقى نوعا من المساندة الخارجية من الأهل والأصدقاء والمجتمع، لديه إصرارٌ على العيش والخروج للحياة مرّة أخرى، وتسكنه طاقة إيجابية تساعده على الاحتمال.. كان ذلك حافزاً نفسياً قوياً لعدم إصابته بالأمراض النفسية أثناء وبعد خروجه من المعتقل، أو على الأقل عدم الاستسلام لها فترة طويلة وزيادة قابليته للعلاج النفسي وسرعة تجاوز محنته.

وهناك أعراض مرضية يمكن أن تبدأ بعد أسابيع أو شهور من الصدمة. وعادة ما تظهر في غضون 6 أشهر. ومن الاضطرابات الشائعة التي تصيب المعرضين للتعذيب:

القلق

الاكتئاب

الأرق المرضي

الميل للانتحار

فقدان الشعور بأهمية الذات

انعدام الأمل بالمستقبل

فقدان الكبرياء وعزة النفس

الشعور بالتيقظ دائما كأنه بخطر **vigilance hyper** بحيث لا يستطيع الاسترخاء

العجز عن التجاوز أو اتخاذ أي قرارات

المعاناة من الكوابيس واضطرابات النوم Nightmares

شرب الكحول وتعاطي المخدرات

وقوع الذاكرة تحت ومضات صادمة من لحظات التعذيب Flashbacks

تشوش وضبابية الوعي والإدراك، بصورة تجعله يقبل أموراً لم يكن أبداً ليقبلها في أحواله الطبيعية، أو يقدم على أفكار لا منطقية أو منافية لمبادئه، وهنا يحدث ما يسمى غسيل المخ Brainwashing حيث تعاد برمجة الشخص والتحكم في وعيه وتفكيره، وسلب إرادته كلياً، بالاستفادة من وضعه تحت ضغط عصبي هائل، وصدمات نفسية متكررة.

أوهام وهلاوس، مثل شعوره بأنه مراقب من الجميع حتى من أعز أصدقائه أو من أفراد أسرته.

يميل إلى الانطواء والتوحد مع الذات تحت وطأة الشعور بالعار والمهانة.

وفي النهاية، يعيش هذا الشخص، في حال الإفراج عنه، أقرب إلى جسد بلا روح، أو كإنسان محطم لا يعي من أمر كينونته شيئاً.

ومن ثم تؤثر تلك الحالة النفسية، التي يصاب بها الشخص، بدرجات مختلفة بالطبع، على قدرته على أن يعود شخصاً منتجاً وفاعلاً، بعد تدمير قواه العصبية والنفسية والإدراكية، فهو يتقهقر إلى مرحلة شبه بدائية، بالكاد يأكل ويشرب، ويعجز عن التفكير حتى في أبسط الأمور. وفي مثل هذه الحالة الرثة، من الصعب أن ينجح هذا الشخص في تكوين علاقات اجتماعية، أو استعادة علاقاته السابقة على التعذيب، بالكفاءة ذاتها.

وصفات علاجية

حددت الكلية الملكية للأطباء النفسيين، بعض الإرشادات النفسية المهمة للمُعتقلين وأسرهم:

إلى كل إنسان تعرض للتعذيب:

عش الحياة بصورة طبيعية قدر الإمكان.

عد لروتين الحياة والعمل المعتاد الخاص بك.

تحدث عن ما حدث لشخص تثق به أو معالج نفسي.

مارس تمارين الاسترخاء.

تناول الطعام وممارسة التمارين الرياضية.

اقض وقتا مع العائلة والأصدقاء.

توقف عن لوم نفسك على ما حدث.

توقع أن تتلاشى ذكريات الحادث على الفور وتوقع أنها قد تكون معك وقتا طويلا.

إن لم تستطع تجاوز محنتك بنفسك، عليك بالعلاج النفسي Psychotherapy فأنت لا تستطيع نسيان ما حدث ولكن بإمكانك التفكير بطريقة أخرى عن الحادث أو الحياة بصورة عامة.العلاج سوف يساعدك على فهم ما حدث وتساعد الدماغ على التعامل مع

هذه الذكريات المؤلمة وتخطيها والعيش بصورة طبيعية.

العلاج النفسي أنواع: العلاج النفسي الفردي، وفيه: الجلسات النفسية ينبغي على الأقل أن تكون أسبوعية مع المعالج نفسه وتستمر عادة 8–12 أسبوعا، مدتها حوالي ساعة.

العلاج النفسي السلوكي المعرفي (هي طريقة لمساعدتك على التفكير بطريقة مختلفة، لكي تصبح الذكريات غير مؤلمة وتستطيع السيطرة عليه وعلى مشاعرك بطريقة أفضل. وعادة ما يتضمن العلاج بعض تمارين الاسترخاء لمساعدتك على عدم التفكير في الأحداث).

العلاج النفسي الجمعي: ويشمل لقاء مع مجموعة من الأشخاص الآخرين الذين مروا بتجارب مشابهة، ما يسهل الحديث عن الصدمة.

الأدوية: مضادات الاكتئاب. سوف تحد من شدة الاضطراب وتخفيف أعراضه.

إلى الاصدقاء والعائلة:

المساندة النفسية والاجتماعية والتفهم الانفعالي لحالة الانسان الذي تعرض للتعذيب، هي طريقة مهمة جدا وفعالة في سرعة الشفاء وتجاوز الأزمة أو الاضطراب الذي يمر به. ولذلك:

امنحه وقتا كافياً للحديث عما جرى له.

السماح له بالكلام وعدم مقاطعته.

ابتعد عن أن تقول له بأنك تعلم بالضبط كيف يشعر.

لا تقلل من صعوبة تجربته.

لا تنصحه مباشرة: تمالك أعصابك أو انس الأمر.

كن بجانبه دائماً وساعده على الاندماج في الحياة والعمل واستمرار علاقاته الاجتماعية والعاطفية، وتكوين علاقات جديدة.

عامله بطريقة طبيعية مع تفهم مأساته وإحساسه بها.

حلول دولية ومجتمعية

يأخذ علاج ظاهرة التعذيب ثلاثة محاور:

المحور الدولي: فعلى المستوى الدولي العام، ثمة قوانين ومبادئ تجرم التعذيب بكافة أنواعه، وتعتبره منافيًا للمبادئ العامة لحقوق الإنسان التي تم الإعلان عنها بتاريخ 10 ديسمبر 1948 وتم التوقيع عليها من قبل العديد من الدول، وتنص المادة الخامسة للاعلان العالمي لحقوق الانسان على: «لا يعرض أي انسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة».

وفي عام 1987 تم تشكيل لجنة مراقبة ومنع التعذيب التابعة للأمم المتحدة والتي تضم في عضويتها 141 دولة وبالرغم من توقيع العديد من الدول على هذه الاتفاقيات إلا أن

توقعات منظمة العفو الدولية تشير إلى أن معظم الدول الموقعة لا تلتزم بتطبيق البنود. كما تم تخصيص يوم 26 يونيو من كل عام ليكون «اليوم العالمي لضحايا التعذيب»، لفضح تلك الممارسات ولفت الأنظار إلى ضحاياها.

كذلك هناك صندوق أممي للتبرع لضحايا التعذيب أنشئ منذ عام 1980 لتقديم «معونات انسانية وقانونية ومالية إلى الأفراد الذين انتهكت حقوقهم الإنسانية بغلظة نتيجة للتعذيب» وهو يخدم مئات الآلاف من المعذبين في الأرض.

ورغم أهمية تأكيد الأمم المتحدة على تجريم التعذيب ومحاسبة مرتكبيه دولياً، لكن هناك بالمقابل تهرب من تنفيذ ذلك على الأرض، وجدل حول ماهية التعذيب نفسه وحدوده ووسائله، وهي أزمة تكشف مدى افتقار المؤسسات الدولية للسلطة والوسائل التي تتيح لها التدخل لمنع التعذيب ومعاقبة مرتكبيه على نحو صارم، ومحاسبة الدول التي تشجع عليه بشكل ممنهج، من خلال المحكمة الجنائية الدولية.

المحور المجتمعي: وهو ما يتطلب إشاعة ثقافة تفضح التعذيب وممارسيه، وتجرم وسائله بكل قوة، مهما بدت بسيطة، وإخضاع أماكن الاحتجاز لرقابة قضائية وحقوقية مستقلة، وتوفير مظلة قانونية لا تسقط جرائمه بالتقادم بل وتوقع أقصى العقاب ضد منفذها، ولا تعطيه أي نوع من الحصانة، ومحاكمة كل من يقوم بإخفاء الأدلة ـ ويسهل تلك الممارسات ولو بالسكوت عنها.

إن اضطهاد الإنسان وجعله قابلاً للتعذيب ـ جانياً أو مجنياً عليه ـ يبدأ من نظم تعليمية قهرية، وعادات اجتماعية تسلطية، قبل أن يتبدى في صورة قاسية وغير إنسانية في السجون والأقبية السرية.

ومن ثم الحد من تلك الظاهرة يتطلب ثقافة مجتمعية تبدأ من التعليم، والرأي العام، ووسائل الإعلام، والقضاء المستقل، وتقليص السلطات الواسعة لأفراد الأمن، وتغيير الذهنيات والصور النمطية فيما يتعلق بكيفية التعامل مع المجرمين والمدانين أو المعتقلين السياسيين.

المحور الفردي: من خلال تضافر مؤسسات حكومية وأهلية تتولى الدفاع عن المعتقلين السياسيين ـ الشريحة الأكثر تعرضاً للتعذيب ـ وزيارتهم بشكل دوري، وتوفير الخدمات والرعاية اللازمة لهم، وسرعة التحقيق في أي مزاعم تعذيب، وفي حال وقوعه يتم على الفور إعادة تأهيل من يتعرضون له نفسياً واجتماعياً ومساعدتهم على التجاوز والاندماج في المجتمع مرة أخرى، وهي مهمة شاقة قد تتطلب وقتاً طويلاً، وإلزام السلطات التي ترتكب ذلك بدفع تعويضات مالية هائلة، حتى تفكر ألف مرة قبل أن تقدم على مثل هذه الخطوات. والمقصود هنا أن العمل النفسي والحقوقي والاجتماعي ينصب مباشرة على الأفراد أنفسهم لمعالجتهم وتوفير حزمة من المساعدات المتنوعة لهم، لتجاوز الآثار الجسدية والنفسية.

محنة الأسير

كل معتقل مشروع شهيد !

غفران طحان

تغير وجه الوطن بين ليلة وضحاها مذ أعلن الشعب أنّ أوان الحرية قد حان، وسرعان ما انتفض الشر بكلّ ألوانه وظهر وجه السجان على حقيقته، واكتشف الشعب أنّ سوريا الوطن مجرد سجن كبير لا يتسع لصيحة.

خرج الشعب وكله أمل بعزيمة تصنع المستحيل، وحدث ما لم يخطر على باله أو بال أكثر الناس تشاؤماً، وعلا صوت الموت، وارتوت الشام بالدماء.

وبعيداً عن تفاصيل الموت اليومي المتمثل برصاصة أو صاروخ أو قذيفة أومدفع.. كان هناك موت آخر يمارس بكل وحشية في السجون، فصار هاجس الموت تعذيباً أسوأ ما يخطر على بال أيّ معتقل لحظة يقع في قبضة الأمن وشبيحته!

وبدأ الأمر مع بداية الثورة إذ استخدمت السلطة كلّ أساليب القمع الوحشية تجاه المتظاهرين السلميين، وكان قدر الطفل « حمزة الخطيب » أن يعلن باستشهاده تحت التعذيب أنّ كل معتقل هو مشروع شهيد!

وصارت أكثر الأوجاع التي تطال الأمهات أن يقبض الأمن على أحد أولادهنّ، فقد بتن يعرفن أنّه سيتلقى أشدّ وأقسى أنواعِ التعذيب ليعترف بما قام به، وبما لم يقم به، وأنّه هناك في قبضتهم يمكن أن يكون شهيداً، وليس لها أن تراه أخيراً، بل إنّ عبارة « المعتقل مشروع شهيد » أكثر العبارات التي تخطر على بالها، فلا هي تدري إن كان شهيداً لتبكيه حتى

يلملم الجرح نفسه، ولا هي تدري إن كان حياً لتنتظره بأمل، فتفجع فيه ألف مرّة باليوم، في ظلّ شحّ رهيب في المعلومات عن أيّ معتقل، فإن عرفت أسرة ما مكان ابنها في أيّ فرع من فروع الأمن، اعتبرت ذلك بداية خيط أمل، وتجد أن جميع أفراد الأسرة يسعون لدفع الغالي والنفيس بغية الحصول على معلومة واحدة تخفف من أوجاع القلق والألم والانتظار.

فإن قدّر لذلك الولد النجاة منهم، وعاد إلى الحياة مجدداً، كانت آثار التعذيب التي طالت جسده رفيقته لفترة طويلة من العمر، من تشويه لجسده، أو ربّما عاهة ترافقه طيلة عمره، عدا المشاكل النفسية والقلق التي تكون عند المعتقل، وربّما تدفع به إلى أن يتخلّى عن كلّ أفكاره الإنسانية السابقة، وتدفعه ليفكر بالانتقام.

لذلك كان الاعتقال من أشدّ التفصيلات وجعاً في حياة أيّ شاب خرج بصوته يطالب بحريتهفأغلق بوجهه باب الأمل، فلا صدى يردد صرخاته ليسمعها أحد، ولا بارقة أمل تمسه إلا موت يتمناه وهو في جحيمهم!

وقد ضرب النظام السوري بعرض الحائط كلّ المعايير والمواثيق الدولية الخاصة بالمعتقلين وكيفية معاملتهم، بل كسرها ساخراً منها، واستخدم كلّ أساليب التعذيب التي تجاوزت خيال كلّ طاغية، من أسلوب الشبح إلى أسلوب الصلب إلى بساط الريح والدولاب، وكرسي الكهرباء، وغيرها من أساليب التعذيب التي يقترحها شيطان السجان في لحظة التعذيب!

ولم تنفع محاولات المعتقلين في إعلان الإضراب تيمناً بمعتقلي الاحتلال الإسرائيلي في التخفيف عنهم، بل على العكس زادت من عنت النظام وتجبره، وازدادت حالات الموت تعذيباً في سجونه، ورغم ظهورها للرأي العام عن طريق الإعلام لم يأبه لها، ولا للتنديد من قبل منظمات حقوق الإنسان، والمهتمة بشؤون الأسرى والمعتقلين.

وربّما كانت قضية استشهاد الناشط السلمي «غياث مطر»، والذي كانت تهمته توزيع الماء ونثر الورد على المتظاهرين السلميين في داريا، من أهم القضايا التي أثارت اهتمام الإعلام، فكان استشهاده دليلاً دامغاً آخر على أنّ ما يمارس في أقبية السجون ليس مجرد تعذيب عادي يتم الاستجواب من خلاله، وإنّما هو تعذيب بقصد القتل.

وإن نجا المعتقل من التعذيب الوحشي، فإنّ ظروف الاعتقال والسجن والضغط النفسي الذي يمارس عليه كل ذلك يمهد لقتله بطريقة أخرى، فإن تحدثنا عن ظروف الاعتقال والسجن فهو غير مناسب لقبر حتى! يدسّ فيه عدد كبير من المعتقلين ويجلسون فوق بعضهم لا يعرفون النوم، والرطوبة تأكلهم فإن كان المعتقل مريضاً فإن السجن كفيل باستشهاده، وهناك العديد من الأمثلة على ذلك، منهم الشهيد «يمان اللبني» وهو ناشط سلمي كان يعمل في جمعية «مبادرة بلد»، والذي استشهد مع بعض من أصدقائه اختناقاً بسبب نقص الأوكسجين في الزنزانة في فرع الأمن العسكري في حلب.

وهناك العديد من المعتقلين الذين قضوا تحت التعذيب الجسدي الوحشي، فبانت آثار التعذيب على أجسادهم عند تسليم الجثث إلى ذويهم، طبعاً إن سلمت، فمازال أهل حلب

يومياً ينتبهون إلى حرائق تشتعل في الأحراش المجاورة للمواقع الأمنية، تكون رائحتها أشبه برائحة الشواء، والغالب أنّها كما يقول الناشطون رائحة حرق جثث لمعتقلين استشهدوا تحت التعذيب، هذا عدا عن ظاهرة انتشار الكلاب الضالة التي تنهش الجثث المتفسخة التي كانت ترمى يومياً في الحدائق والطرقات.

وليس ببعيد عن الذاكرة ما حدث في مجزرة «النهر» إذ رميت في النهر ما يقارب الثلاثمئة جثة لشباب معظمهم من المعتقلين في أفرع أمنية، ومعظمهم اغتيل برصاصة في الرأس أو في أنحاء أخرى من الجسد، وقد ظهرت على أجسادهم التي تمّ انتشالها من النهر علامات التعذيب الوحشي من تشوه وانتفاخ مما صعب عملية التعرف عليهم، ودفن العديد منهم «مجهول الهوية»، وتمّ تكرار الأمر حتى سميّ النهر بـ« نهر الشهداء».

وقد أسلف الحديث هنا عن الأمهات ومعاناتهم طوال فترة اعتقال الابن حتى يخرج، أو تسلّم جثته، ولكن إن أردنا الحديث عن آثار ذلك التعذيب على كلّ أفراد أسرة ذلك الشاب ومن يعرفه، فإننا سنتطرق إلى موضوع النقمة والحقد والكره الذي يسكن أرواحاً نالها التشويه لرؤية ذلك الجسد المشوه، فتحمله معها طوال العمر، وتفرغ إمّا بشكل متطرف كنوع من أنواع الثأر، أو بمحاولات إنسانية للمساهمة في إيصال صوت وحالة المعتقلين إلى الرأي العام، أو بحالات انطواء وموت بطي يعيشها هؤلاء، فالتعذيب لا يطال جسد المعتقل فقط، وإنّما يطال كلّ من يعرفه.

والآن هل حجم العقاب الذي يناله المعتقل يساوي حجم الجرم الذي ارتكبه!؟

إن بحثنا في أرشيف الشهداء الذين ماتوا تحت التعذيب سنجد أنّ معظمهم كان من الشباب الذي رفع راية السلمية فصرخ مطالباً بالحرية في مظاهرات لا سلاح فيها إلا الصوت، ومعظمهم نشط في المبادرات الإنسانيّة كمساعدة اللاجئين، أو تطبيب المرضى في مشاف ميدانية، أو أسهم في نقل الدواء، أو كان ناشطاً إعلامياً ينقل الصورة كما هي من دون أيّ تدخل منه فيها. هذا هو الجرم الإنساني الذي يجعل السجان يستشيط غضباً وخوفاً على قوائم كرسيّه فيوجه للتنكيل بهؤلاء الذين نالوا من وحشيته بإنسانيتهم، وأساؤوا إلى قبحه بجمال أفعالهم، فكان حجم جرمهم الذي قبض عليهم من أجله، وبالتالي عذبوا ونكل بهم من أجله، وربّما استشهدوا، يتساوى مع حجم العقاب الذي يرضي حقد أولئك على الإنسانيّة كلها!

ويبقى أنّ نشير إلى عجز كلّ المنظمات الإنسانيّة والدوليّة التي تهتم بحقوق الإنسان والمختصة بالأسرى والمعتقلين في دفع الأذى عن المعتقلين في سجون النظام السوري، رغم توفر مقدار لا بأس به من المعلومات لديها، بل إنّها اكتفت بنشر المعلومات وفضحها، والتنديد بها!

ويبقى كلّ معتقل في سجون الظلام/النظام السوري شهيداً حتى يثبت العكس!



حـــيّ الـوعـر (عـدسـة شـاب حـمـصـي)

أوراق السرد

البصل المخلص

رفيق شامي

قصة للأطفال ليحكوها للبالغين

إلى أمين مارديني
لقربه رغم بعد المسافات

كان يا ما كان، هكذا يسرد الأجداد، بلد كبير إسمه «مملكة يمكنكلشي»، وكانت المملكة محظوظة بكل الخيرات التي يحتاجها البشر. البحر يعطي ما يكفي الصيادين من الأسماك. اشجارالبرتقال، التفاح والمشمش نمت وأثمرت فوق أرض خصبة تمتد من الجبال الى البحر. بساتين الخضار كانت تروي عطشها من نهرين يشقان طريقهما الملتوية في ظل أشجار الحور. لكن أغلبية الناس كانوا يعيشون في فقر مدقع.

عاش ملك البلاد بعيدا عن هذا البؤس في سبات ونبات، يقضي اكثر وقته في الاستقبالات والصيد، وقد عين أربعة من الخبثاء كوزراء: الأول ليهتم بالصيادين سماه الملك «أبو السمك»، الثاني ليتدبر أمور الجرائم والسرقات، وقد سمع الناس الملك يناديه بأبي المشاكل، الثالث للحرب سماه الملك – وياللغرابة – «أبو السلم».

لكن الوزير الرابع كان أكثر الوزراء أهمية فقد كان مكلفا بجمع الضرائب ليسد نفقات الملك الباهظة وقد أطلق عليه الملك إسم «أبو الكنوز». وكان هذا الرجل لا يهدأ له بال مفتشا باحثا عن طرق جديدة لجلب أموال أكثر للخزينة، التي كان الملك يبعثرها. فملك تلك البلاد كان يضجر بكل شيء وسرعان ما يصيبه الملل رغم الحفلات ورحلات الصيد. وفي ليلة حالكة شعر فيها الملك بضيق صدره وقرر بناء قصر ضخم له يتكون من 365 غرفة.

عمل البناؤون والنحاتون والنجارون ثلاث سنوات حتى أنجزو بناء القصر. ابتلع القصر وأثاثه مبالغ خيالية. لم يدر أحد ما الغاية من هذا القصر، لأن الملك لم يبح لأحد بسره حتى آخر يوم.

أعجب البنيان الجميل بحدائقه وفخامة بنيانه الملك فأطلق عليه إسم «جوهرة القصور».

وكرر الملك وهو يتجول في أجنحة القصر «رائع»، ثم وفي حفل الغذاء احتفالا بالقصر باح الملك بسره: «سآخذ لي 365 امرأة وكل واحدة منهن تخفف عني الملل لليلة. لكني لن أقتلها كما فعل شهريار.»

«يا لقلبك الحنون» أنشد الوزراء الأربعة وصفقوا معجبين. نظر الملك إلى وزير الحرب قائلا: «أبو السلم هذه مهمتك، خلال ثلاثة أيام تجمع لي 365 امرأة من أجمل نساء الدنيا ليملأن قصري بالبهجة».

رفع وزير الحرب كأسه قائلا: «بصحتكم أيها المفدى، سيكون ما اشتهيت بعد ثلاثة أيام بين يديك.»

وبعد مشاورات قرر وزير الحرب مهاجمة «مملكة الريحان» المجاورة. هذا البد كان صغيرا إلى حد ان اسمه على الخريطة كان يكتب على البحر لأن مساحة البلد الصغير لم تكف لاسمه.

وفعلا قام جيش الملك بهجوم كاسح على مملكة الريحان لكن الحرب لم تنته بعد ثلاثة ايام كما تبجح الوزير السكير، بل استمرت ثلاثة اشهر وجلبت الدمار والموت إلى البلد الصغير الذي استبسل شعبه في الدفاع عن نفسه... لكن كلفة الحرب أنهكت أيضا الشعب في مملكة يمكنكلشي.

سر الملك أيما سرور وهو يعد النساء. ولأن الملك صعب عليه حفظ أسماء النساء الغريبة، قررالملك تسمية كل منهن برقم غرفتها.

كانت حياة النساء في هذا القصر كحياة أسير فلم يسمح الملك لأية امرأة ان تغادر القصر. وكم توسلت النساء الملك طالبات منه الشفقة والرحمة، لكن قلب الملك كان أصم من الحجر. فلا الرحمة وجدت طريقها إلى قلبه ولا الشفقة. لا بل على العكس من ذلك فقد كان معجبا بفكرته حتى انه بنى لكل من وزرائه قصورا صغيرة حبسوا فيها النساء. كانت قصورهم تتألف من سبع غرف سجنت فيها نساء سميت كل منها بإسم نهار في الأسبوع.

كلفت كل هذه القصور مبالغ باهظة ومن كان عليه منذ أبد الدهورتمويل متعة الملوك؟

وهكذا عانى الشعب المضطهد عندما رفعت الضرائب عليه. عانى الفلاحون خاصة من هذا الإجحاف.

في كل سنة وفي موسم حصاد يأتي الجنود الى القرى. يجلبون معهم عربات نقل كبيرة كل عربة تجرها ستة أحصنة.

وعندما يصلون الى ساحة القرية، يدقون طبولهم ويزمرون بأبواقهم ثم يصيحون بصوت عال، حتى يسمع الكل في القرية والحقول والبيادر، وكان المنادي يأمر الفلاحين بالحضور فورا إلى الساحة.

وحين حضور الجميع يكف الجنود عن التطبيل والتزمير والصراخ. ويقف الفلاحون وقلوبهم تطرق في آذانهم خوفا ووجلا مما هو قادم. وفي كل موسم يتقدم رئيس الجنود الى منتصف الغفر من المجتمعين ويخرج من جعبته رقّاً جلدياً طويلاً ويبدأ بقراءة ما أمر به الملك: بأمر من جلالة الملك المفدى....

كل فلاح عليه أن يقوم بواجبه، كي يبقى الملك راضياً عليكم ومسرورا! على كل فلاح أن يدفع نصف غلة قمحه، نصف فواكهه وخضاره المجنية ونصف ما ولدته خرافه وعنزاته وبقراته منذ عام للملك.

قلة من الفلاحين جلبت معها ما عليها عند قدومها للساحة كي يدفعوه بالحال وكأن ذلك كابوس ارادوا التخلص منه بأسرع وقت، وأما الغالبية فلقد اسرعت بعد إنصاتها للأوامر للبيت لإحضار ما أُمِرت به.

أما الضباط فيجلسون على طرف الساحة تحت مظلتهم الشمسية الكبيرة، يتندرون ويضحكون وبين الفينة والفينة يكتبون في دفاتر كبيرة أسماء الفلاحين ومن أحضر الضريبة ومن لم يحضرها بعد.

كان الفلاحون يرمون أتاواتهم في عربات الجند ويعودون مخذولين الى بيوتهم. وكان بإمكان الرجال أن يفرّجوا عن ضيق صدورهم بشتم نسائهم وأطفالهم لأتفه الأسباب أو حتى بدون سبب. وهذه العادة من طبع الرجال.

وبعد رحيل الجند بعرباتهم الثقيلة كانت الكآبة تخيم على القرية لوقت طويل وتشل رغبة الفلاحين في الحياة. حتى الأطفال كانوا يدركون أنه من الأفضل في هذا الوقت الإبتعاد عن الأهل وكل البالغين.

وفي كل سنة كان النسيان يغلف الألم ويخفيه في معطفه. وما أن يقوم بذلك حتى تعود الإبتسامة إلى وجوه الفلاحين في القرية وتعود الحياة إلى ما كانت عليه من قبل، ليعمل الفلاحون بنشاط، وليعود طعام زوجاتهم ويصبح لذيذ الطعم كما كان دوما، وليلعب الأطفال دون وجل كما كانوا يلعبون لأشهر قبل قدوم الجنود، لكن موعد الموسم كان يعود بأسرع مما تشتهيه نفوس الفلاحين.

ويعود الجند وجباة الضرائب بعرباتهم كحلم ثقيل مخيف.

كان عدد قليل من الفلاحين يفلح بإخفاء جزءا من غلالهم في بعض المواسم. وكان هؤلاء يفرحون لنجاحهم بخدعة الملك بكيس من الحنطة، خروف أو دجاجة، وكان عدد أقل من ذلك بكثير من الفلاحين يتجرأ على سؤال نفسه لماذا ينبغي عليه ان يعطي مما جناه بعرق جبينه لهذا المبذر الكبير.

لكن إذا حدث وسأل الفلاح بصوت مسموع فيا ويلاه!!!

كان الضباط يجيببون دون أن يرفعوا رؤوسهم عن دفاترهم: «هذا واجبك، يا حيوان، كي يبقى جلالة الملك راضيا عنك وبمزاج جيد» وبعد هذه الإجابة كان الضابط، المسؤول يضع اشارة ضرب (X) عند اسم الفلاح المسكين الذي تجرأ على السؤال.

من تجرأ أكثر وكرر السؤال: لماذا لا يروق مزاج الملك؟ ولماذا يتعكر هذا المزاج في وقت الحصاد؟

لا يحظى بجواب، بل بنظرة غاضبة من الضباط المسؤولين واشارة ضرب ثانية قرب إسمه.

كان جمع الأتاوات يستغرق أياما. وقبل غروب الشمس في كل يوم يصيح الضباط على الجنود، وهم يصيحون بدورهم على الفلاحين ليجتمع هؤلاء على أطراف ساحة القرية باستعداد، عندها يقف الضابط المسؤول ويصيح:

من يسمع اسمه، يخرج من الصف ويأتي إلى وسط الساحة!

ثم تقرأ اسماء الفلاحين الموشومين بإشارة الضرب، فيرتجف الفلاحون المعنيون جزعاً فهم يدرون أن عليهم أن يأخذوا بعض الجنود الى بيوتهم ليقيموا لديهم طوال فترة الجباية.

كان الجنود يلتهمون كل شيء كالجراد، يشربون النبيذ، يدخنون التبغ، ويشكرون المضيف عند الوداع بركلات. وكان المضيفون المساكين يتنفسون الصعداء حينما يرحل الجنود ويشتمون جد جد هؤلاء البرابرة.

اما عقاب من حظي باشارتي ضرب فقد كان قاسيا جدا، كان على هذا الفلاح وعائلته إستضافة الجنود وكان هؤلاء يقلبون، بأمر من ضباطهم، بيت المضيف قبل مغادرته رأسا على عقب. كانوا يدعون وضحكة بذيئة تملأ وجوههم، أن صاحب البيت أخفى جزءا من محاصيله، وأنهم يشمون رائحة البرتقال، حتى ولو خلت القرية من شجرة برتقال واحدة، أو كانوا يسمعون صوت عنزة تحت الكنبة حتى ولو لم يملك الفلاح عنزة واحدة. بعد رحيل الجنود من القرية، كان بعض البيوت العامرة قد تحول خراباً كساحة معركة.

عاش في قرية صغيرة من هذا البلد، فلاح عجوز، فقير يدعى «وحيد»، وكان يسكن كوخاً صغيراً على طرف القرية. كان كل شيء في وحيد صغيرا، يديه، قدميه وقامته، فقط رأسه كان يبدو كبيرا على كتفيه النحيلين. عيناه كانتا تلمعان ذكاءً وحداقة، وفي تجاعيد وجهه سكنت السنين.

كان وحيد يجلس عند غروب الشمس وحيداً على عتبة باب كوخه ويتحدث مع أزهار

وبصل حوشه الصغير. وقلما زاره جار فوحيد لم يملك ذرة من القهوة أو السكر ليقدمها لضيوفه. بدلا عن هذا كان يسرد دائما قصصا عن بلاد أخرى وسكان سعداء يعيشون دون ملك، ولا يدفعون ديات وأتاوات لأحد.

كان جيران وحيد يشفقون عليه لفقره وبعضهم كان يهزأ به وبقصصه ففي هذه القرية كان الناس يحترمون من يملك الخيول والأبقار والأغنام ومن كانت خوابيه ملأى بالزيت والسمن والنبيذ.

« أما أنت فلا تملك إلا القصص. فما فائدة الكلام؟ هل تستطيع أن تؤمن مؤنة شتاءك من كلماتك؟ »، قالها جار سمج وضحك وأضحك الجيران معه.

« حتى فيرانه تهاجر طلبا للرزق إلى بيوتنا، لأنها عند وحيد لا تشبع إلا قصصا. » (« ،) أكمل جار آخر بسخرية.

هكذا ظلت الحال فما يكاد اسم وحيد يذكر حتى يسخر الآخرون منه.

وبالمقابل لم يشعر وحيد بأية شفقة على الفلاحين عندما كانوا بعد رحيل الجنود في كل عام يتأوهون من الظلم. لكنه كان يتوجه لبيوت الفلاحين الذي لحقهم الخراب نتيجة إشارتي الضرب التي أصابتهم لأنهم تجرأوا على السؤال.. .ليساعدهم في إصلاح ما خرب الجنود. وفي أحد المواسم ألم الخراب بصديقه ياسر فأسرع لمساعدته.

« والله العظيم لا يستحق هذا الملك ولا حبة قمح. ليذهب للشيطان مع مزاجه الذي لا يتعكر إلا قبل الموسم. طزعلى هكذا مزاج » قال وحيد ذلك وهو يجمع حطام جرة.

« يا أخي انت يسهل عليك الحكي، لأنه، أصلا، ليس عندك شيئ تعطيه »، أجاب ياسر وهو يكنس حطام أحواض الزريعة في ساحة داره التي كانت ولقبل أيام جميلة.

« سواء ملكت الكثير أو القليل، لماذا نصبر على هذا القمل الذي يمتص دمنا؟ » رد وحيد وهو يحشو الصوف في الفراش الممزق.

« لكن الله أمر، أطع حكامك، وملكنا انسان مؤمن. هو يحمل كل المسؤولية على كتفه. » تدخّل مختار القرية الذي أتى ليواسيِ ياسر ببضع الكلمات.

« يا مختارنا. نحن لا نجبره أن يظل ملكاً إذا كان الأمر متعباً لهذا الحد فليأتي لقريتنا ويعيش كفلاح مرتاح البال. أنا مثلا لا تعجبني وظيفة الملك وحتى ولو عرضوها علي ببلاش. » قال وحيد وهو يخيط بإبرة كبيرة الشق في الفراش.

« هذا تمادي على مشيئة الله، إخشى ربك يا رجل. أمر هو بعالي سماه أن يكون للناس حكاما. هناك ملايين الفلاحين وملك واحد. وهو ظل الله على الأرض. » تدخل معلم القرية متحمسا للمختار.

رمى وحيد الفراش من يديه، ثم وقف رافعا رأسه للسماء وصرخ: « هل هذه ارادتك؟ » ووضع يده اليمنى على أذنه، كي يسمع الصوت بشكل أفضل. فاستهزأ منه الفلاحون وضحكوا عليه.

«لا، لا، السماء لا تجاوب وهذا الملك بكرشه ووجهه البشع لا يمكن أن يكون ظل الله على الأرض. فالله جل جلاله جميل ويحب الجمال»، وجه وحيد كلامه للمختار وبسمة وقحة تعلو وجهه، فما كان من هذا إلا وغادرالمنزل غاضبا، بينما ضحك ياسر وعدة رجال ونساء في ذلك النهار لأول مرة في حياتهم على المختار الذي غشى بصره ضباب غضبه فلم ير حافة الدرجة وسقط أرضا لينهض من جديد شاتما وحيد.

عندما غادر وحيد في الليل بيت ياسر لم يضحك أي من الحاضرين عليه أو ينعته بالجنون. وظلوا إلى ساعة متأخرة من تلك الليلة يتسامرون مفتشين عن طريق للخلاص.

كان وحيد يحب أزهاره وبصله أكثر من كل شيء. يهتم بها لساعات طوال، وحينما كان ينظر للبصلات كان اللون الأحمر يصبغ وجناتهن تحت التراب. والأزهار كانت تنعم بلمسات يديه وتبتسم ابتسامة رضا حينها وتفوح بكرم أريجا خاصا له.

أحيانا كانت بعض الورود تجرح أصبعه، لكن وحيد ما كان يزعل منها، أنما (إنما) يقول لها بصوت منخفض:

«عدم المؤاخذة نسيتك دون ماء، اليس كذلك؟» فتتأرجح الوردة في الهواء وكأنها تجيبة.

في الموسم القادم أتى الجنود بعرباتهم وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما قال ثلاثة من الفلاحين: «لا يهمنا أن يكون الملك مرتاحا أم لا، اذا كان تعيسا بملكه فليصبح فلاحا أو نجارا وإذا لم يعجبه ذلك فليصبح ثورا أو تيسا فهؤلاء بمنتهى السعادة».

لم يعرف الضباط في ذلك النهاركم اشارة ضرب تستحق هذه الإهانة لأنهم لم يسمعوا جوابا وقحا كهذا طوال عشرات السنين.

أوقفوا جمع الضرائب والآتاوات (والأتاوات) بسرعة، وراحوا لعند المعلم الذي كان يراقب الهرج والمرج من شرفته المطلة على ساحة القرية. سأله الضباط النصيحة، فأجاب المعلم بحكاية عن التفاحة المعفنة التي تعدي أخواتها في سلة التفاح وتتلفها كلها. ثم تحدث عن المعزاة التي تركل سطل الحليب فتتلفه بعد أن تعب الفلاح بحلبه. ثم وضع يديه على كرشه الكبير وتحدث بصوت كحفيف الأفعى: «الله جل جلاله ملك الملوك حلمه كبير لكن عقابه صارم لا يرحم.»

فهم الضباط ما اراد المعلم قوله وخرجوا يفتشون عن التفاحة العفنة. ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا من أحد الفلاحين إسم وحيد.

كان وحيد يراقب من عتبة باب كوخه تحركات الجنود والضباط التي بدت له غريبة في ذلك النهار ولم يحسب أي حسبان عندما أشار الضباط بيدهم باتجاه كوخه...

لكن الخوف دب إلى قلبه عندما رأى عشرين جنديا مدججين بالسلاح يركضون باتجاه كوخه. حاول وحيد الهرب لكنه تعثر بحجر وسقط أرضا فأمسك به الجنود وربطوه بالحبال الغليظة وكأنه وحش كاسر وقادوه وهم يوسعونه ضربا وركلا للساحة.

« ما الذي يفعلوه بوحيد؟ » سألت البصلات.

رفعت الأزهار رأسها وتسلقت وردة الجوري على جذع شجرة مشمش قريبة. « يضربوه ويركلوه » أجابت الزهور والورود.

« والآخرون؟ ما الذي يفعله الآخرون؟ » سألت البصلات بلهفة.

« يرتجفون ويبكون ويرجون لأنفسهم الرحمة... الآن يحاول وحيد النهوض، وها هو قد نهض...يا إلهي!!! ركل ضابط وحيد على بظنه (بطنه) فسقط المسكين مرة أخرى على الأرض.. الآن ربطوه بحبل طويل وجروه خلف حصانين سحلا على الأرض خارج القرية.... الآن عاد الضباط إلى طاولتهم... ووقف الفلاحون برؤوس محنية وسلموا أكياس الحنطة والخرفان والماعز.... « أكملت الورود الخبر الحزين.

أتى الجنود بعدها لكوخ وحيد أخذوا بابه ونافذته الوحيدة وحملوا كل ما وجدوه لديه على عرباتهم، ثم هدموا الكوخ وغادروا القرية وهم مثقلين بالضرائب التي جمعوها...

لما تأكد الفلاحون ان الجنود رحلوا وعلموا علم اليقين أن وحيد لن يرجع حياً، سرقوا كل البقايا اللي تركها الجنود سهوا. كانت غنائمهم البائسة بعض الطناجر الصدئة، ومطرقة قديمة جدا.

بكت الأزهار حزنا على وحيد وذبل الورد غضبا على الفلاحين.

أما البصل فقد صاح تحت الأرض: « إذا لم يدافع هؤلاء البرابرة عن وحيد ولم يذرفوا دمعة عليه فسنجبرهم نحن على ذلك وسيبكون وحيد لمئات السنين. »

منذ ذلك اليوم يبكي كل من يقشر بصلة دون أن يعرف أنه يبكي وحيد لأن البصل لا يبوح بسره لأحد.

قصص قصيرة جداً

حسن البقالي

رمال متحركة

شرع بالكاد في إلقاء قصته، حين انشغل عنه الحاضرون بالإنصات إلى موال أمازيغي يصدح به صوت أنثوي آسر.

لم يتأكد إن كانوا مشدودين إلى المرأة أو أثر الموسيقى في العظام، لكنه لم ينزعج كلية لما حدث.. فقد كتب البارحة قصة تحكي نفس المشهد:

قاص يشرع بالكاد في إلقاء قصته، حين ينشغل الحاضرون عنه بالإنصات إلى موال أمازيغي يصدح به صوت أنثوي آسر.

وهو الآن على يقين من أن الحاضرين، وهم يشيحون عنه بوجوههم، متململين حيارى، إنما يجنحون في الحقيقة إليه، ولا يزيدون عن التخبط أكثر في الرمال المتحركة لقصته.

شمس ساطعة

« حين لا تملك شيئا، فأنت تملك كل شيء. »

هذا ما لم يدركه الإسكندر وهو يقف على ديوجين، يسأله إن كان له طلب، فيحققه له

(هو، الإِسكندر العظيم، قاهر الأقاليم ومالك حق الحياة والموت) . .
ولذلك
لم يجد بداً من الانطفاء، مثل موجة صغيرة خائبة، حين أجابه ديوجين، من قلب برميله الشهير:
تنحَّ عن شمسي!

أكبر من التوقع قليلا

هل كانت الساقية الجميلة تتوقع دليلاً أكثر إقناعا من أذن نازفة؟
هي التي سمعت آلاف المرات كلمة « أحبك » من رواد الحانة يلوون بها ألسنتهم، وهم في الطريق إلى المرحاض . . هل كانت تتوقع ذلك؟
أن يقطع فان كوخ أذنه، ويقدمها لها هدية ودليلاً . .
تلك الساقية الجميلة بالحانة الباريسية، هل كان بإمكانها، حتى في أحلامها الأكثر تفاؤلاً أن تتوقع ذلك؟

انتظار

الرجل الكسيح على مقعد بالمحطة
حافلة تصل، وأخرى تغادر . . مسافرون وحمالون وسماسرة ولصوص . . هرج ومرج . .
وفي آخر المساء
حين أغلق آخر شباك، التفت إليه شرطي المداومة :
هيه، يا سيد . . ماذا تنتظر؟
لم يجب الرجل الكسيح بشيء
فقط غمغم لنفسه :
« كنت أنتظر الوطن » .

سيرة ذاتية

له أن يرتاح الآن
وقد أكمل كتابة سيرته الذاتية .
لقد تتبع المسارات المتشعبة لسنواته السبعين بما يكفي من الحذق الفني كي يجعل منها سيرة جديرة بالقراءة

المعضلة الأساسية
هي عمره الذي لم يتجاوز الثلاثين بعد
وعليه إذن
أن يكون أميناً لسيرته، ويعيش السنين الأربعين المتبقية بالشكل الذي ارتضاه التخييل
هذا إذا كان الخالق المقدر للأكوان والمصائر، وكاتب سيرته الأول قد قدر له أن يعيش حتى السبعين
أو الستين
أو الخمسين
أو الأربعين
أو.. حتى الغد.

قط شرودنجر *

لقد آلت الأمور في تلك المؤسسة السجنية إلى أن ترمي الإدارة بالسجين في زنزانة انفرادية ضيقة.
كانت هناك إرادة صلبة لسجين لا ينوي الرضوخ.. وفي الجهة المقابلة رغبة لا تقل صلابة في كسر تلك الإرادة بالعزل والتجويع..
وظل العناد المتبادل يتنامى ككرة الثلج المتدحرجة.
الآن.. ستكون قد مرت فترة كافية كي يصير احتمال الموت جوعا معادلا تماما لاحتمال البقاء على قيد الحياة، وما من نأمة صدرت عن السجين أو طرق على الباب يمكن تأويله لصالح انكسار محتمل.
فيزيائيا، سيكون السجين إما حياً أو ميتاً.
لكن المنطق الرياضي يقر بالموت والحياة كلتيهما كاحتمالين واردين في ظل التزامن
وفي غياب أية مبادرة بفتح باب الزنزانة والتحقق من الأمر، سيبقى السجين بطبيعة الحال حياً/ميتاً في الآن نفسه..
تماماً
كقط شرودنجر.

*** عن النظرية المعروفة بنفس الاسم: قط شرودنجر**

هلاك القبيلة

جيم كلارك *

بقدر ما يمكن لمورداك، من خلال رؤيته للسماء من ثقب المدخنة في سقف الكوخ، أن يقدّر، فإن ساعتين من الوقت بقيتا للفجر او ما يقارب ذلك.

ابتلع جرعة من الجعة من القدح قربه، وقرّر ان يبدو سكران مذهولا امام غريغ، الشاعر، الذي بدأ بإنشاد مدائح لاولئك الموجودين في القاعة الدائرية للتاويسك (زعيم القرية).

عرس أخته كان حفلا مسيحيا بالتأكيد، غير ان باتريك لم يكن قد طهّر الجزيرة من كل اعتقاداتها الوثنية... وكما هي العادة، فإن التاويسك كان قد دعا الي وليمة عظيمة وليلة فرح للاحتفال بمناسبة زواج بادرياغ و برايد. اسم مناسب ايضا، قال مورداك لنفسه وهو يضحك.

صوت غريغ المدندن بدأ يتصاعد اعلى فأعلى، واحس مورداك بالتعب من شرب الجعة وكما يحدث دائما عندما يكون مالاّ، فإن افكاره اتجهت الى نيامه... التي يعني اسمها سماء وعندما يتذكر وجهها الفائق الجمال وشعرها المنساب خلفها، فإن مورداك لا يستطيع غير ان يوافق على حسن اختيار الاسم. لقد كانت محبوبة اكثر من اي امرأة في اردنا بهفويتسوغ، قرية مورداك.

نيامه حامل الآن بطفله الاول وهو لا ينوي الانتظار طويلا ليتزوجها حالما يولد الطفل.

حفل عرسه سيكون الحفل الثاني الذي يحضره، ربما.

كشخص غريب عن القرية، باستثناء رابطة الدم مع برايد اخته، فان غريغ كان في آخر قائمة من يستحقون مديح غريغ. نظر نظرة خاطفة الي فوق وتأكد من ملاحظته: السماء كانت تحمر مع طلوع شمس الصباح. كبت موجة اخرى من الملل وقرر الاستماع الى غريغ.

ومورداك، أخو زوجة بادرياغ الجديدة،
شخص يستأهل مديحنا،
فهو اثبت شجاعته في المعركة
ضد المهاجمين الشماليين في ارضه، «اردنا بهفويتسوغ»
النساء يصرخن لاثارة انتباهه
لكن عبثا، لأن عينيه كانتا فقط
لنيامه، عاهرة القرية.

القلائل الذين كانوا مستيقظين ضحكوا بقوة لما قاله الشاعر أما وجه مورداك فتصلب. أطبق اسنانه بقوة لكنه لم يقل شيئا، فأن يواجه كلمات الشاعر يعني ان يواجه زعيم القرية نفسه. كان واضحا ان غريغ لا يستلطفه لسبب ما، مسح الجعة عن فمه، وأنصت للمقطع الثاني.

مورداك ايضا طويل وقوي
ودائما يربح في المسابقات
انظروا! حتي في هذا اليوم هو قد ربح
لقد شرب جعة اكثر منا جميعا!

انتفض مورداك وصاح: «هذه حقارة! استطيع ان اتحمل مزاحاً بين أصدقاء، لكن ليس هذا القدح والذم»، كان يستعد لتحدي غريغ، عندما جاءه صوت من الجانب البعيد من القاعة. «أوكونور، أنا أحكي باسمي وباسم قريتي: هل ستجلس في مقعدك وتتجاهل الاساءات من شاعركم الي اكثر الضيوف احتراما، مورداك، ابن حماي الجديد؟». كان ذلك صوت بادرياغ الذي انتصب بطول قامته، ومن ثوبه الصوفي، بانت عضلاته المتماوجة. سيف التحدي كان قد نُصب.

صوت بادرياغ الراعد ايقظ من كان نائما، وفجأة تصاعد ضجيج مزعج. كل شخص يريد ان يعرف ما الذي دفع ببادرياغ الي هذه الحالة من الغضب. ببطء، قام الرجل الشائب من المقعد العالي ومدّ قامته الطويلة.

«ما هو المشكل يا بادرياغ؟ هذه وليمة عرسك اليس كذلك؟ غريغ كان يحاول ان ينشر بعض المرح في الامسية. اكيد ان ضيفنا المحترم لم يشعر بأي تهجم، لأن احدا لم يقصد اهانته».

النظرة التي القاها غريغ علي مورداك كانت متغطرسة جدا ومغرورة، رغم ذلك، فانها

اظهرت حقيقة المسألة بقوة. استدار اوكونور نحو مورداك. «اذن، يا صديقي، هل شعرت بأية اهانة؟».

كان هناك اكثرمن تلميح فولاذي في صوته، ورغم هذا ورغم نظرة التهديد التي صوبها بادرياغ عليه فقد قام مورداك واعلن في صوت عال: نعم، لقد كان هناك اهانة.

للحظة مخيفة كان الجمع ساكنا وصامتا. لا أحد تحرك، او حتى تنفس، ثم حدث كل شيء فجأة.

«إعتقلوه واحضروه لعندي مجردا من السلاح». صرخ أوكونور، وقد أصبح وجهه قرمزيا. وفيما ناضل اثنان من الرجال السكاري لتنفيذ امر التاويسك اومأ الرجل الكبير لبادرياغ وغريغ ليتقدما نحوه. بدى على بادرياغ القلق. منظر العملاق احمر الشعر وقربه الشاعر الاصلع ذو وجه ابن عرس بدا مثيرا للضحك لصبية يافعة ضحكت عاليا لكن سعلة من ابيها اسكتتها بسرعة.

خلال فترة قصيرة كان الثلاثة ماثلين امام أوكونور.

مال الرجل نحو مورداك أولا.

– ما هي الاهانة التي ازعجتك، يا مورداك من اردنا بهفويتسوغ؟

لم يكن مورداك شخصا بليغا بطبيعته، فتلعثم مفتشا عن الكلمات المناسبة، ثم تكلم اخيرا:

الاهانة الاولى التي تلقيتها هي قوله عن نيامه انها عاهرة القرية. صحيح انها عاشرت رجالا قبلي، لكن ذلك لم يكن أبدا مقابل مال، وهي حامل بطفلي، انها خطيبتي ويجب ان ادافع عن شرفها كما اريد.

– لن يكون هناك جدال حول ذلك في القاعة، هل هذه هي الاهانة الوحيدة؟

مرة اخرى جمد مورداك قبل ان يجيب.

– لا، اوكونور، الاهانة الثانية هي قوله انني شربت جعة اكثر من اي رجل اخر في القاعة.

مع جملته هذه، كان جميع في القاعة يستطيع سماع وقع المعدن على الخشب، فيما تخلى الجميع بسرعة عن اقداحهم.

تمعن اوكونور في الموضوع وهو يلمس لحيته البيضاء.

– الاولى، سأقبلها، مورداك، وغريغ سوف يتراجع عن قوله، الثانية يجب ان نجد برهانا عليها، لذلك ارفض التحكيم فيها. اذا وجدت قولك صحيحا، فان على غريغ ان يهجر الشعر. اما زلت تريد ان تحقق في الامر؟ اذا كنت مخطئا فان من حقي ان اعاقبك بتهمة القذف.

تقلصت عينا مورداك النسريتان وقال: نعم اريد التحقيق في الامر.

وافق اوكونور بهزة من رأسه وصاح بابنة اخيه التي كانت تقوم بالخدمة في الوليمة.

هرعت الفتاة بسرعة.

« نعم، يا عمي وزعيمي؟ »

« ديدري، لقد خدمت مورداك هذه الليلة. كم قدحا من الجعة شرب؟ »

جمدت الفتاة ذات الشعر الاسود لتجمع الرقم في عقلها ثم قالت: عشرة، وواحد نصف ممتلئ.

اومأ الرجل العجوز مبتسما ومشجعا بنت اخيه الصبية، وهل هناك احد في هذه القاعة تجاوز هذا المقدار من الشراب في هذه الليلة؟

احمرّ وجه الفتاة، وظهر على وجنتيها لون قرمزي. « واحد فقط »، تمتمت ديدري اخيرا.

« اخبرينا من هو، يا صبية »! قال اوكونور.

نظرت الفتاة الى اسفل لاخفاء احراجها، « انت اوكونور! »

غاضبا ومهانا بمواجهة كل رجال القرية، حرك اوكونور يده، كما لو انه يطلق الفتاة بعيدا، ثم حكّ لحيته، وفكر مجددا، وبعد صمت قلق، تكلم.

« غريغ، نتيجة قذفك وتحقيرك لزعيمك، فأنا أجردك من شعريتك. إذهب! أترك القرية ولا تعد. إعتبر نفسك منفيا ».

نظر غريغ غير مصدّق الى العجوز المطلّ بقامته العالية عليه ثم ترك القاعة.

صوت العجوز خفت الى ما يشبه الهمس وهو يخاطب مورداك وبادرياغ.

« لقد ربحت هذه المرة يا مورداك لكن تذكر ان غريغ وانا رجلان من الصعب استصغارنا. من الافضل لك ان لا تبقى طويلا في مويرثيمن، لكن عد بسرعة الى اردنا بهفويتسوغ، لأنهم أخبروني إنك غبت خمسة اشهر محاربا النورسمان. واريد ان أحذرك، ان غريغ ماكر ويبدو انه لا يحبك. من الأفضل لك أن تتجنبه اذا ما شاهدته في طريقك الى قريتك ».

سعل مورداك لينظّف حنجرته من بقايا الشراب وقال:

« سأغادر قبل نهاية هذه الصباح، اوكونور العظيم ولكنني أتمنى أن تسمح لي ببضع ساعات لأنام قبل أن أرحل ».

أومأ اوكونور موافقا: « نعم، ربما كان هذا أفضل، واذا كنت تحب ان ترى اختك مرة اخرى فعليك ان تدعوها لزيارتك. لقد أغضبت شاعرهم وأهنت زعيمهم، وهؤلاء الناس من النوع الذي يحقد ».

فكّر مورداك ان الزيارة لم تكن خيرا ابدا. كان يعلم دون أن يدقق في الأمر ان برايد كانت تنشج. لم تكن لديه اي فكرة لماذا تصرف غريغ هكذا، لكنه عرف ان اعمال الشاعر المستورة قد خرّبت لا عرس اخته فحسب ولكن ايضا العلاقة بين قرية مويرثيمن وبين اردنا بهفويتسوغ، وبناء لحسابات دبلوماسية فان زواج اخته ربما لا يتحقق.

خاطب اوكونور بادرياغ قائلا: « راقب مورداك الى ان يذهب. تأكد من أنه لن يتعرض لأية مشاكل، ورافقه الى حدود دنريلغن بوتبك ».

وافق بادرياغ قائلا: « سأفعل، اوكونور ».

كان الزعيم على أهبة صرفهم، حينما اندفع صبي (لا يبلغ اكثر من خمسة عشر عاما، لكنه طويل بالنسبة لعمره ونحيل) الى القاعة ثم ركض نحو النار في مركز الكوخ الدائري. توقف هناك وانحنى نحو اوكونور، ثم مشى حول النار بخطوات واسعة نحو المقعد العالي.

«ماذا هناك أيها الولد؟» دوّى صوت اوكونور ماك نيال بأعلى درجاته الآمرة.

«اوكـ ـ كونور العظيم، انا عائد لتوي من دن ديلغن، حيث سمعت خبرا عن موجة جديدة من غارات الفايكنغ. هناك رجل من تارا اخبرني انهم قد تقدموا الى الداخل حتى عشرة اميال، كما يبدو ان الدانيين والساكسون لا يستطيعون صدهم. لقد احرقوا ودمروا كنيسة اردنا دوار».

تنفس مورداك بصعوبة «اردنا دوار! تلة بستان السنديان، انها بالكاد تبعد ميلا من تلة شجر الدردار، قريتي اردنا بهفويتسغ». استجمع أفكاره بسرعة وحمل الاغراض التي معه.

«اوكونور، يجب ان تسمح لي بالرحيل. يجب ان اعود لقريتي في الحال».

وافق اوكونور: «يمكنك الذهاب، مورداك. ليسدد الله خطاك. انا اسف لانني لن استطيع ان ارسل معك بادرياغ الان، اذا هاجمنا النورسمان فكل رجالنا يجب ان يكونوا موجودين للدفاع. ليكن الله معك، مورداك».

احتج مورداك بقوة لكن دون فائدة. انطلق بسرعة من الكوخ، حاملا سلاحه، وروفق الى البوابة الشرقية للقرية. كانوا كأنهم يدفعونه وهو يخرج من البوابة الخشبية، ثم اغلقوها جيدا بعد خروجه. نظر مورداك الى الاعمدة الخشبية المرتفعة عشرة اقدام، المجمعة معا والمدقوقة بالارض لتشكل جدارا، ولاحظ اللاجدوى في كل ذلك. النورسمان سيحرقون الجدار الذي أتعب أهل القرية أنفسهم في بنائه، وبرغم مزاجه المعكّر فقد ضحك.

اتجهت افكاره نحو نيامه مجددا وانطلق مقتفيا الاثر الى دن ديلغن. وفيما هو يسرع الخطو كان الف سؤال ينفجر في عقله، ماذا لو لم يكن غريغ في الوليمة؟ ماذا لو... لكنه كبت هذه الافكار. لقد كان يبعد مسافة اسبوع او عشرة ايام عن قريته وعائلته واصدقائه، بالنسبة له هذا ما كان يهم الان. لقد كان يوما سيئا بالتأكيد.

بعد اسبوع

استفاق مورداك على صوت طيور تزقزق بعيدا في الأعلى. خلال الايام السبعة الماضية، لم يكن الطقس جيدا فقد حاصر المطر والضباب رحلته جنوبا، لكنه وصل وكلاو، ولم يكن بعيدا من تلة اردنا بهفويتسوغ.

لقد بدأ يومه بالقلق والحركة، كانت السماء عميقة الزرقة، وصافية من اي عيب رمادي، «هذا يمكن ان يكون يوما رائعا»، قال مورداك لنفسه.

مسح اخر ما بقي من طعام اشتراه في تارا، وغسل وجبته بماء ينبوع كان يصدر فقاعات

من تحت شجرات السنديان، حيث كان قد لجأ البارحة، جمع حوائجه، ومستندا الى سيفه وقف.

مشى مسافة ثلاث الى اربع ساعات، وكانت الشمس قد وصلت الى منتصف السماء عندما لمح شكلا يترنح خلال الوادي الذي كان نازلا اليه. مع اقترابه، استطاع مورداك تميّز هيئة راهب، وعلى كتفيه كان يحمل حقيبة ثقيلة.

«اللعنة، انه من اردنا نوار» صاح مورداك.

مع صرخة مورداك، نظر الراهب الى فوق، والتمع الامل في عينيه لكنه عندما لمح سيف مورداك اصدر صوتا غريبا، وتحسس قبعته بارتباك، ثم بعد أن وضع حقيبته بحذر على العشب الربيعي، قام برسم اشارة صليب.

«ضع صليبك المقدس جانبا، ايها الاخ» صاح مورداك، مبتسما. «انا لست شيطانا لتخاف مني بل رجل مسيحي معمّد مثلك. سيفي هو طريقتي الوحيدة للدفاع ضد النورسمان الوثنيين الذين دمروا جزيرتنا الجميلة مجددا. كنت اخدم عند جدي، شيرات مكنيارت، في آمهين ماتشا، لأتعلم المبارزة وفن القتال، عندما هاجم الفايكنغ الشاطئ الشمالي ودُعينا للدفاع عنه. انا الان عائد الى قريتي، لأتزوج خطيبتي نيامه». خلال حديثه كان مورداك يتقدم من الراهب، وصار على بعد ثلاثة اقدام من الرجل المنكمش خوفا والذي حدّق عن قرب الى مورداك ثم ضحك بقوة ومسح على ظهر مورداك.

«ألست مورداك مك لابريس! لقد تعرفت إليك الآن يا بني. انت الذي كنت تحضر كمية زائدة من الحليب للكنيسة خلال اشهر الشتاء مع اختك، انها ستتزوج، هذا ما سمعه الاخوة».

اومأ مورداك برأسه مبتسما ببلاهة. لقد أحب دائما هؤلاء الاخوة المقلنسين في الكنيسة وقد احس بنفسه اندفاعا ليشرح همومه وافراحه ودموعه وقلقه للرجل العجوز، مثلما اعتاد دوما عندما كان طفلا. لكنه لم يفعل.

ظهر على وجه الراهب فجأة تعبير جليل «لقد نهبوا الكنيسة يا مورداك. كل الرهبان...» توقف ثم حاول مجددا. «قتلوهم خلال الصلاة يا مورداك، هؤلاء الوثنيين النورسمان دنّسوا كنيستنا بالجريمة»!

كان العجوز حزينا بشدة، وكان مورداك قادرا على رؤية الدموع تنحدر على وجهه بوضوح، وأجلس الراهب علي الارض.

«كيف نجوت من المجزرة يا أخ اندا؟»

الأخ العجوز ابتسم متحسرا فيما الدموع على وجنتيه تلتمع في ضوء شمس العصر.

«لقد تسللت. كنت ما ازال في حجرتي عندما جاء الأنجاس. عندما رأيتهم، اندفعت للاختباء. هناك استطعت ان اجمع هذه» وأشار الى الحقيبة المنقوعة بالدماء، المطروحة على العشب.

فتح مورداك الحقيبة ولهث عند رؤيته كنز الكنيسة يسقط نحو التراب. كتب مزخرفة بشكل جميل من المخطوطات، وكؤوس قربان مجوهرة، وصلبان مغلفة بالذهب، كلها انصبت على التراب.

عينا مورداك اتسعتا، ثم نظر الى اعلى والتقتا بعيني اندا.

«ما الذي ستفعله بكل هذا؟» اشارته المضطربة كانت مهيبة.

«أعتقد أنني سوف آخذه الي كنيسة اكبر» تمتم الراهب بحزن. «موناستربويك، على الاغلب. الاب ابوت تعلّم هناك. قلت انك عائد الى اردنا بهفويتسوغ؟»

تمتم مورداك موافقا «م م م. ما هي حظوظ القرية؟»

أومأ الأخ اندا مبتسما. الغابة في شمال وكلاو كانت كثيفة جدا في مواضع بحيث انها تجعل السفر مستحيلا. اذا لم تكن تعرف المنطقة، قد تضيع لأسابيع تحت غطاء الغابة. ربما كان قدوم النورسمان الى ابرشية اردنا دوار بالصدفة.

«لن يكتشف المغيرون تلة اشجار الرماد اردنا بهفويتسوغ بإذن الله. لكن الغابة كانت مكتظة بهم عندما غادرت يا مورداك. كانوا يبحثون عن الناجين لأخذهم رقيقا» تابع الراهب. نظر مورداك الي الغابة الكثيفة المنذرة بالشر، ثم ابتسم بكبرياء.

«من العار علي ان لا ادافع عن خطيبتي وارضى ايها الاخ. حتى لو لم أكن مطلوبا بدافع الواجب فيجب ان اذهب بدافع الحب».

«قول جيد يا مورداك! سوف لن امنعك اذن، القدر اعطانا نحن الاثنين اوراقا خطيرة، وانا فقط اصلي لكي نصل كلانا دون ان نتعرض لاذى. يجب ان اغادر هذا المكان لخوفي ان الوثنيين يطاردونني. ليكن الله معك، مورداك» قال الراهب.

جمع العجوز كل الاشياء، في الحقيبة، وتوقف لحظة.

«خذ يا مورداك، ليس عدلا ان تغادر كل كنوز الكنيسة هذه التلة» قال الراهب بلهجة ابوية، مناولا اياه صليبا مذهبا.

رفع الراهب الحقيبة على كتفيه مع نخرة ضئيلة، وقف مورداك وراقب الرجل الجليل العجوز يختفي ببطء. مجددا شعر باحساس العبث يرتفع في صدره، لكنه لم يحس برغبة بالمزاح. لاحظ ان اندا لن يستطع الذهاب ابعد من ثلاثة اميال قبل ان يسرق، ويضرب ويترك للموت من قبل بعض الاجانب الطامعين بالذهب من مستوطنة الدانمركيين في دبلن، ابتلع انفعالاته وصلى ان يكون خاطئا، لكن في قلبه، احس انه مصيب.

بعد حوالي عشر دقائق من المشي، دخل مورداك تحت الغطاء الاخضر الذي كان غابة وكلاو. فكر ان اندا كان على حق. لا يستطيع احد من الدانمركيين اوالساكسون او الفايكنغ اكتشاف اردنا بهفويتسوغ دون دليل، بهذا التأكيد عزّى نفسه.

لبقية ساعات اليوم لم يتوقف مورداك ولم يقلل سرعته، وكان متحذرا مع ذلك، وقد اضطر مرتين لتغيير طريقه لتجنب الفتك به على يد النورسمان الطائفين بالغابة للسلب

والنهب، لكنه كان الان قد اقترب من قريته. فكر مورداك انه اذا حالفه الحظ فسيكون هناك مع نهاية الليلة، وبالتدريج فتح طريقه عبر متاهة الاشجار، الى ان صار في الوادي تحت تل شجرات الدردار، المحيط بالقرية.

كان الوقت فجرا عندما بدأ مورداك الصعود الاخير للجانب الصخري للقرية. وهج الشمس الراحلة جعله في مزاج مرح وروحه طارت فرحا مع فكرة وجوده مع نيامه قرب موقد النار من جديد. فكر في نفسه قائلا: خمسة اشهر فترة طويلة في حياة اي رجل، واخذ يتحرز عن الفترة الباقية لنيامه حتى تلد عندما انزلقت قدمه.

أرض، اشجار وسماء دارت حوله في كون مضيء وعندما توقفت اكتشفت مورداك انه متمدد عند قناة ماء وساقه اليسرى تنبض بألم حاد. بعد ثوان قليلة رفع نفسه الى وضعية جلوس ليستعيد هدوء ذهنه، كان ينزف من اسفل ذقنه بغزارة حيث جرح جرحا حادا بسقوطه على صخرة.

« يا الله! هل سأستطيع ان اصل الى بيتي بهذه الطريقة؟ »

ساحبا ساقه قليلا ترنح في مشيته عبر طرف التل. كان يعرف مكانه جيدا. كثير من الاشياء كان يخبئها هو واخوه اوين من غضب ابيهما. اليوم كان هو الذي يختبئ من النورسمان. جلس هناك في القتامة المنذرة بالشر، وطوى ساقه بقطعة قماش اقتطعها بسكينه من ثيابه ومن مكانه راقب الشمس وهي تغرب ببطء خلف تل الابرشية المخربة وفكر محزونا، في اخيه اوين، المبتلى بوباء اثناء ولادته تركه من دون شعر.

الأصلع، هذا صار لقبه الذي يدعونه به، الى يوم من ايام اكتوبر قبل خمسة عشر عاما. قتيل وخمسة جرحى سقطوا قبل ان يأتي الاب ويجرد اوين من سيفه. اوين كان ماهرا في فن الكلمة، وهو ما اهله للتمرن ليصير شاعرا.

هذه كانت أمنيته التي لم تتحقق.

اثناء اللعب في احد الايام، قام كولن، ابن التاويسك (رئيس القرية)، بشكل غير مقصود بضرب اوين بعصاه. استدار اوين ورد على الاهانة بسرعة بشعر مقرف مشيرا الى عادات كولن اثناء الاكل. كولن، الذي ورث الفظاظة من أبيه قام ببساطة بالرد، على الاقل فإن عندي شعر، ايها الاصلع. عند ذلك قام اوين برفع عصاه الضخمة من خشب الدردار وضرب كولن حتى الموت. واقتضى الامر ان يتعاون هو وابوه على رفع اوين عن جسم كولن، فكر مورداك، دم احمر وسماء حمراء.

نُفي اوين من القرية بالطبع، لكن بتدخل من لابريس وكياران مكنيارت، جد مورداك، الذي كان زائرا انذاك، لم تحصل التضحية الطقوسية لأودن. نيسا، تاويساك القرية آنذاك، كان ما زال منتميا الى ديانة تموت ـ كان وثنيا ـ خمسمئة عام بعد (القديس) باتريك كان ما يزال هناك وثنيون في ايرلندا، لكن كانوا قلة. بموت ابنه، ثم زوجته واخيه بعد سنوات قليلة، نيسا كان اخر وثني في القرية. عندما مات، صار لابريس زعيما.

كان الوقت ليلا. جهز مورداك ثوبه على شكل كيس، ومتمددا فيه، صلى لله ان يكون جاهزا للمضي في الصباح. نومه كان متقطعا، وفي بعض الاوقات ظن انه سمع صرخات متفجعة، تقلب طوال الليل وأيقظه حلم مفاجئ قبل الفجر بقليل، ووجد السماء ما تزال شاحبة.

كان يتعرق من الحمى ويرتجف دون ان يستطيع السيطرة على نفسه، لاحظ انه لا يستطيع ان يقبل ما اكتشفه للتو. غريغ الشاعر في حلمه توحد مع اوين مك لابريس. كانا واحدا.

مترنحا على قدمه، لف مورداك ثوبه حوله وجمع ما معه. يجب ان يخبر احدا بهذا الامر. لاحظ الان السبب وراء فعلة اوين اثناء الوليمة. لقد اغضب كل الناس في اردنا بهفويتسوغ، ورؤيته لاخيه واخته في موطنه الجديد اغضبته بشكل قوي حتى فعل ما فعله. لكن ما الذي ربح من وراء ذلك في النهاية؟ لقد نُفي مرة اخرى.

عاضّاً على اسنانه ليخفف من ألمه، انطلق مورداك مجددا الى جانب التل. الهواء كان مشبعا بالدخان. يبدو انهم كانوا يدخنون سمك السلمون امس. بلع مورداك ريقه وهو يفكر بذلك.

وصل اخيرا الى نهاية التل ونظر الى الوادي تحته، باتجاه القرية، كانت مهجورة، الاكواخ والسياج المحروقة كانت الاشياء الوحيدة الباقية. النورسمان!، صرخ مورداك، متجاهلا صرخات الالم المحتجة القادمة من ساقه، ركض نحو مشهد الكارثة، مخنوقا بقلقه والدخان. توقف في مواجهة كوخ والده، لابريس التاويساك، وحدق داخلا، ابوه وامه متمددين في السرير وقد أخرجت احشاؤهما، الشراشف المنقوعة بالدماء كانت الشاهد الوحيد للكارثة، فيما هو يتمايل، من كوخ الى اخر كان المشهد نفسه في كل بيت.

فجأة، هجم خوف مرعب على قلبه، مورداك اندفع الى كوخه، وانفاسه تتسارع، وساقه اليسرى لا يستطيع احتمالها، برعب يائس، انقذف الى الكوخ. كان خاليا، لكن الحطام الموجود كشف عن نزاع حصل هنا. فكرة واحدة استولت على مورداك الآن وهي: اين نيامه؟

مترنحا في القرية المدمرة، لاحظ مورداك بشكل مفاجئ، هذا كان (ديبريد آن توث): هلاك القبيلة.

لكن بالنسبة لمورداك، لم تعد قبيلته، وابواه، او اصدقاؤه ليهمّونه. فقط وراء الجانب الغربي من السور، وجدها. وتقيأ ثم تقيأ.

على قطعة صخرية مسطحة تمدد جسد نيامه. كانت عارية، ووجهها الى اسفل. كان قفاها يحمل جرح مخالب النسر. هذا الشكل المرعب للأضحية الى اودن: شقوق طويلة لقطع في جانبي العمود الفقري، ثم كسر القفص الصدري وسحب الرئتين من التجويف مثل اجنحة النسر.

وهو يرتجف بشكل عنيف قلّب مورداك جسدها، فصار وجهها للامام. تقيأ مرة اخرى واخرى.

رحمها كان قد استؤصل. أبعد مورداك نظره عن التجويف الدموي ووقعت عيناه على ربوة على مسافة قريبة. ركز نظره عليها ثم تقيأ مجددا.

كان ذلك جنينه.

وقف مورداك على قدميه. رفع وجهه المليء بالدمع الى فوق وفتح فمه.

صرخ: «لماذا؟» وترددت صرخته المفجوعة حوالى الوادي، ثم ارتفعت الى السماء. لكن لم يكن من جواب هناك.

في الغابة، في معسكر الفايكنغ جلس اوين ماك لابريس، غريغ الشاعر. سمع الصرخة الرهيبة لأخيه وابتسم قليلا، رغم انه لم يجد متعة حقيقية في ذلك. لكنه على الاقل قد جلب موت القبيلة. بذلك كان مسرورا. قرية مويرثيمن هي التالية.

شعر بلطخة على وجهه، ونظر الى فوق. كانت السماء قد بدأت تمطر من السحاب الرمادي الذي تجمع خلال الصباح.

«اللعنة،» فكّر «سيكون يوما سيئا بعد كل شيء».

ترجمة: حسام الدين محمد

*** ولد جيم كلارك في بلفاست عام 1971. بدأ الكتابة في سن مبكرة جدا ونشر في عدد من المجلات الايرلندية المتنوعة وشارك في كتاب عن ميثولوجيا الخيال. قصته المنشورة هنا تحاول استخدام التاريخ الايرلندي القديم للتعبير عن حالات تاريخية ونفسية معاصرة، والأحداث تجري خلال فترة كانت فيها ايرلندا لم تعتنق بكاملها المسيحية وتتعرض خلال ذلك لغزوات من الفايكنغ وشعوب الشمال الاسكندنافيين.**

آخر الرقصات

تاج الدين موسى

في أي مكان كنت تخبئين تلك الرقصة يا أمي؟ أفي جسدك النحيل الذي أحَنَتْه الأيام، ولم تبق منه سوى العظام؟ أم في جيبٍ سري من جيوب ثيابك التي فرغت من الفرح لعشرين عاماً؟

صليتِ العصر، ثم شَرَّقْتِ بصحبة عكازك، الذي يرافقك أينما توجهت، وعدتِ بعد نصف ساعة، بقامة منتصبة، دون عكاز، تتأبطين ذراع أخي العائد..

كل شيء بدا عفوياً يا أمي.. فحين دخلت الدار، وأنت تزغردين، وتهنهنين، أخذ أهل الضيعة يتراكضون إلى دارنا.. وبعد دقائق لم تعد غرف دارنا ولا أرض الدار، ولا سطحنا، ولا أسطح دور الجيران، ولا الزقاق المقابل.. تتسع لأهل الضيعة الذين حضروا، كلهم، ليفرحوا معنا بعودة أخي..

أنا، حتى هذه اللحظة، لا أعرف كيف وصلت الدربكة إلى حضن خالتي حنيفة.. نحن ما عندنا دربكة.. أأنت تسمحين لدربكة أن تدخل بيتنا؟! وما هي حاجتنا إلى الدربكة أصلاً، إذا كان الفرح قد رحل من دارنا، في اليوم نفسه، الذي اختفى فيه أخي، قبل عشرين عاماً؟ حتى الضحك، يا أمي، نسيناه، وإذا ما صادف، ونسي أحدنا، فابتسم، فإن لكزة واحدة من يد المرحوم أبي اليابسة، أو زورة واحدة من زوراتك المخيفة، تجعله يتمنى أن تنشق الأرض، وتبتلعه.. وكأنكما تودان أن تقولا له: كيف تبتسم يا قليل الناموس وأخوك

الكبير غائب؟!

أم أنك اشتريت الدربكة سراً، وأخفيتها في دارنا، أو في دار قريب أو جار، لتكون جاهزة في ساعة كساعة البارحة؟ إن إيمانك بعودة أخي لم يضعف في يوم من الأيام.. عشرون عاماً مرت وأنت تنتظرين عودته، وما مللت من الانتظار.. عشرون عاماً لم يبتعد فيها عن بالك مسافة ذراع..

(لا تكبروا على الأكل يا أولاد، أخوكم فاخر كان يأكل من الموجود.. أفيقوا من النوم يا أولاد، أخوكم الكبير كان يفيق قبل علام الضوء.. لماذا لا تدرسون؟ أخوكم ما كان يرفع رأسه من الكتاب.. تتركون شغل البيت كله لي، أخوكم كان يساعدني بكل شغلة.. تتعبون من تعبئة قادوس ماء من الجب.. «فاخر» كان يحصد الحنطة معنا بالمنجل..).

على المائدة تضعين له صحناً وملعقة، وحولها تتركين له مكاناً فارغاً.. على المصطبة تمدين فراشه في الصيف، وعلى التدريبة، في غرفتنا الغربية، تمدينه في الشتاء.. تخرجين صرة ثيابه من الدولاب، في صباحات أيام الجمع، فتفوح الروائح الطيبة من أوراق الزيزفون، والورد الجوري، وعروق الحبق، والعبيتران التي تدسينها بين الثياب.. أكثر القطع محبة إلى قلبك كانت بذلته الجامعية الزرقاء..

أنا أعتقد أنك مَنْ اشترى الدربكة مؤخراً، لأن معنوياتك، في الأيام الأخيرة، وصلت إلى السماء.. شُفيتِ فجأة من آلام المفاصل، التي لم تكن تتركك تنامين الليل.. استقام ظهرك... صرت، بدلاً من أن تتوكئي على العكاز، حين تخرجين من الدار، تضعينه على كتفك، وتمشين.. ظهر اللون الأحمر الذي تركه أثر الحناء على شعرك... حورت الدار.. غسلت الملاحف، ووجوه المخدات... أخذت تهتمين أكثر من السابق بأحواض الورد، والحبق، والعبيتران.. صرت تكنسين أرض الدار مرتين في اليوم؛ صباحاً، وعصراً، وترشين عليها الماء، كي تمنعي الغبار من الثورة، إذا ما هبت نسمة هواء، وبعد صلاة العصر، تحملين عكازك على كتفك، وتُشَرِّقين لمراقبة الطريق، عند أول الضيعة، من تحت شجرة تين، أو زيتون، أو من تحت شجرة البلوط الهرمة، التي تستقبل زوار الضيعة.. خفنا على عقلك يا أمي.. تساءلنا.. همست لنا: أشم رائحة أخيكم في هذه الأيام يا أولاد...

همسنا لك: وهل وصلك خبر ما من أحد؟

ـ نعم.. وصلني..

هجمنا عليك بصوت واحد: ممن؟ ومتى؟

ـ من هنا.. من قبلي..

وأضفت، بعد خيبة الأمل التي لاحت على وجوهنا: إذا خرج من عندهم صباحاً، فمتى يصل الضيعة؟

ـ يصل بعد الظهر..

ـ وإذا خرج بعد الظهر؟

ـ يصل في الليل.. لكن لماذا تعذبين نفسك بالذهاب والانتظار عند أول الضيعة؟

ـ لأن الضيعة كبرت كثيراً بغيابه، وتوسعت، وأخاف ألا يعرف دارنا..

ست ليال انقضت، ما نمت فيها لساعة على فراش، أو تمددت على أرض.. تغفين للحظات وأنت مقعية، أو مقرفصة، أو متربعة عند باب الدار، تبددين الليل بالتسبيح، والدعاء، والتضرع، وقبل حلول الليلة السابعة، صدقت حسابات قلبك..

كنت أعتقد أن «وردة» ستكون أول من يرقص، بعد أن رندحت الدربكة في حضن خالتي، وأن «وداد» ستكون أول من يشاركها الرقص، فور وصولها.. لكنك أنت من بدأتِ الرقص أولاً، واستمرتْ إلى النهاية..؟

لا أعرف، حين عانقت أخي، ما الذي جعلني أتذكر حرارة قبلاته، عندما كان يجيء خميساً وجمعة، قبل عشرين عاماً، وأكثر، ويصيح حين يصير بأرض الدار: يا أهل البيت.. فأصرخ من قلبي: جاء أخي فاخر.. وأقفز لملاقاته قبلكم جميعاً، فيأخذني بحضنه، ويقبلني، ثم يقذفني للأعلى، ويتلقاني بيديه، ويعضني من خدي، فأصيح من الألم، وأبكي.. كنت تقولين له، حين ترين أثر أسنانه على خدي: أنت مثل الكرِّ يا فاخر تغار من الأطفال..

وما الذي جعلني أيضاً أستعيد دفء حضنه، حين كان يجلسني فيه، ويغني لي طلعت يا محلا نورها.. ويا بحرية هيلا هيلا.. ويحفظني أسماء بعض الدول، وأسماء عواصمها.. كنت أظن، أيامئذ، أني حفظت أسماء دول الدنيا كلها، وأسماء عواصمها كلها.. وما أدراني أن أخي لم يكن يذكر لي سوى أسماء الدول التي أَحَبَّها، وأحب عواصمها؟ لقد اكتشفت، حين كبرت، وصرت من تلامذة المدارس، أن هناك دولاً أخرى كثيرة، ولها عواصم أيضاً، ما كان أخي الكبير يجيء على سيرتها..

ـ من تكون هذه المرأة التي ترقص؟

ـ مؤكد أنها واحدة من قريبات فاخر...

أنا سمعتهم يتساءلون همساً.. ومن كان يصدق أن تلك الرقصة لك؟ من كان يصدق أنك رجعت أكثر من عشرين عاماً إلى الوراء، وصرت ترقصين رقص الصبايا؟

ـ يوجد شبه كبير بين المرأة التي ترقص وبين أم فاخر..

ـ قد تكون إحدى بناتها..

ـ أنا أعتقد أنها هي...

ـ مستحيل.. امرأة عجوز، تجاوزت الستين، وتتوكأ على عكاز، لا يمكن أن ترقص مثل هذه الرقصة..

وهكذا.. حين بدأ أهل الضيعة يكتشفون أنك من كانت ترقص، أخذت أبصارهم تشخص إليك تاركة أخي العائد لي وحدي في البداية، ولي ولابنة عمي وردة، وأختي وداد، بعد قليل...

لو رأيت وداد حين وصلت.. لقد شقت جموع الناس وهي تركض، وتصرخ: أين أخي

فاخر؟ أين حبيبي؟

وداد ما كانت لتتعرف على فاخر لو لم أشر لها عليه.. كلنا لم نعرفه حين وصوله.. قبلته وداد على مهل من جبينه.. من خديه.. من رقبته.. كأنها كانت تستنشق رائحته لتتأكد أنه هو.. ثم، بعد دقيقة، أو أقل، ضمته بقوة، وشرعت تقبله بشكل محموم، وتهمس له: أنا وداد يا فاخر.. أنا أختك وداد.. كأنها أحست أن أخاها لم يعرفها.. أيعقل أن ينسى فاخر وداد؛ أخته، التي كان يقول لها، قبل أن يختفي: سأعلق شهادة الهندسة في صدر بيتك، وسأمنحك نصف راتبي، لخمس سنين، مدة دراستي بالجامعة..

أختي تستحق من أخيها أكثر من تعليق شهادة الهندسة في صدر بيتها، وأكثر من نصف راتبه لخمس سنين.. أصلاً لولاها من أين كان سيصرف على نفسه خلال دراسته الجامعية التي انقطعت باختفائه قبل شهرين من تخرجه؟ لقد عملت وداد، منذ أن كانت طفلة في الثانية عشرة، في ورشات قلع البطاطا، وقطاف القطن والزيتون، ونبش البصل، وحصاد الكمون، والعدس، والحمص، من أجل المساهمة بتأمين مصروف أخيها.. حتى في أيام الجمع؛ أيام الاستراحة، كانت تعجن، وتخبز، وتساعدك بتجهيز زوادة فاخر...

تذكرين يا أمي أن وداد كانت في عامها السابع عشر يوم اختفى أخي، وأنها أجلت موعد عرسها، أكثر من مرة، على أمل أن يعود الغائب، ويحضر العرس.. ولو لم تجبروها على الزواج، بعد مرور سنة من التأجيل، والانتظار، ربما كانت عملت مثلما عملت وردة، وانتظرت عشرين عاماً..

حين وصلت أختي من دار زوجها، كان المجتمعون في دارنا يوسعون لك الدائرة، لأن أرض دارنا لم تعد تتسع لرقصتك.. تميلين.. وتنحنين.. وتقرفصين.. وتقومين.. وتتخوصرين.. تدورين حول نفسك، وتقتربين من أخي العائد، تلامسينه بأطراف ثوبك، فبرؤوس أصابع يديك، فبشفتيك، ثم تطيرين إلى صالح، ابن خالتي الذي كان يغني لك: شيلي يا عمتي شيلي.. تقتربين منه بصدرك، وتفقسين له بأصابعك، وتهزين بجسدك، وحين يقترب بجذعه منك، تفرين بعيداً عنه...

أذكر، في صغري أني كنت أرافقك إلى بعض الأعراس، وأذكر أنك كنت تغنين بصوت عذب، كأكثر نساء الضيعة.. بعد اختفاء أخي لم يبق من صوتك سوى بحة الحزن فيه، حين كنت تتلين ما تيسر لك من الآيات، والسور، بعد أدائك صلاة الصبح حاضرة.. أو حين كنت تغنين العتابات الحزينة، عند رؤوس الأحبة من الراحلين من أهل الضيعة قبل دفنهم.. ألا تذكرين ماذا فعلت عند رأس أبي، الذي ضاق صدره من هم انتظار عودة أخي، فتركنا، ورحل، قبل نحو خمس سنين؟ يومها أبكيت الناس والحجارة...

وأذكر أن رقصك لم يكن مميزاً كصوتك.. كان مثل رقص أي امرأة في الضيعة، ولا أعلم متى تدربت على رقصة البارحة، ولا أين كنت تخبئينها.. أمس رقصت بجنون يا أمي.. بحركات كأنها ما كانت معنية بإيقاع الدربكة بين يدي خالتي، ولا بغناء صالح، أو بتصفيق

الناس.. رقصت رقصاً ما رأيت امرأة في ضيعتنا، أو غير ضيعتنا، ترقص مثله.. كنت أمهر من النوريات اللواتي كن يزرن قريتنا في المواسم، ويغنين على البيادر، ويرقصن..

أختي ما شاركتك الرقص بعد وصولها، ولا وردة ابنة عمي رقصت، فبعد ثوان من وصول زغاريدك دار عمي، كانت وردة قد صارت في دارنا.. وردة تدرك أنك لن تزغردي قبل عودة أخي.. عمي محمود، وأفراد عائلته، جاؤوا ركضاً من باب الدار، إلا وردة، فقد قفزت عن الجدار الفاصل، بين دارنا ودار أهلها، من المكان نفسه الذي كانت تقفز منه قبل عشرين عاماً، لتلتقي فاخراً، أو يقفز منه فاخر، ليلتقي وردة.. أنا، ابن السنوات الخمس أيامها، كنت شاهداً على أكثر لقاءاتهما..

يدس فاخر في جيبي، فور وصوله من المدينة، ربع ليرة، ورسالة، فأركض إلى بيت عمي محمود، أسلم الرسالة لوردة، وأنتظر بضع دقائق، إلى أن تقرأها، وتكتب جواباً عليها تدسه في جيبي، مع ربع ليرة، فأركض إلى دارنا، أسلم الرسالة لفاخر، ومساء، حين يلتقيان وراء بوابة دارنا، أو وراء بوابة دار عمي، أقرفص على قبة تنورنا، أراقب لهما الموقف، وأستمع إلى زقزقاتهما.. هكذا كنت أمضي الوقت بعد وصول أخي من المدينة: بين دارنا، ودار عمي، وقبة التنور، ودكان الحاج مصطفى، أشتري بأرباع ليرات فاخر ووردة...

بعد سنتين من اختفاء أخي، علمت أن الشيخ سلوم، إمام جامع قريتنا، همس في أذن عمي محمود: ابنتك صارت بحكم المطلقة، لعدم عرفة مصير ابن عمها.. لقد كتب كتابه عليها واختفى، ومن حقها الآن أن تتزوج شخصاً غيره... اليوم صارت في العشرين، وغداً لن تجد شاباً يطلب يدها..

من كان يجرؤ على مفاتحة وردة بموضوع كهذا؟ لقد ربطت البنت مصيرها بمصير ابن عمها وانتهى الأمر.. عاشت مثلك، على أمل أن يظهر في يوم من الأيام، وهاهو قد ظهر.. لكن متى؟ بعد أن صارت في الثامنة والثلاثين...

حين قفزت وردة عن الجدار، وركضت إلينا، توقعت أنها ستهجم على أخي، وتغمره بشوق عشرين عاماً من الانتظار.. لكن ما الذي أصاب وردة وقتها؟ أتكون أدركت، ما أدركته أنا، فور وقوع نظرها على أخي؟ أم تكون قد خجلت من معانقته أمام الناس؟ مستحيل! أتخجل امرأة من معانقة زوجها، أمام الناس، بعد سفرة استمرت عمراً؟ صحيح أنهما لم يعرّسا، لكن كتابهما مكتوب، وهي بحكم زوجته، على سنة الله ورسوله.. لقد تحول ركضها إلى هرولة في البداية، ثم مشت، فتمهلت حين اقتربت منه، وأطرقت حين وصلت، وبعد نظرة خاطفة، مدت إليه يداً خجولة، وصافحته...

ـ اليوم اثنين، والخميس القادم سأعمل لكما عرساً ما عرفت الضيعة مثله...

عن أي عرس تحدثت مع فاخر ووردة يا أمي؟ وهل كنت ستعودين صبية، فيما لو أقمنا لهما عرساً، وترقصين مثلما رقصت البارحة؟ لو تعرفين أين وجدت وردة، التي اختفت فجأة، بعد سلامها الخجول على أخي؟ ظننت في البداية أنها راحت تتفقد جهازها، بعد

أن حددت لهما موعد العرس.. كنت أبحث عن أختي وداد، التي اختفت هي الأخرى، بعد انتهاء عناقها لأخيها.. لقد وجدت الاثنتين متعانقتين تنتحبان عند الجدار الفاصل، بين دارنا ودار عمي محمود، في المكان نفسه الذي كانت تقفز منه وردة، أو يقفز منه فاخر، قبل عشرين عاماً..

قاومت دمعتي، واستدرت إليك؛ كنت تؤدين حركات راقصة، من وضعية القرفصاء، أمام أخي.. فجأة تباطأت حركات يديك.. اقتربت بوجهك من وجهه، وبقيت تقتربين، إلى أن تلاشت المسافة بين وجهيكما.. حملقت فيه لثوان، ثم سقط على الأرض...

أهي السكرة كانت ذهبت يا أمي، وجاءت الفكرة؟ أم هو الفرح الذي أعمى بصرك، وباصرتك؟ إن أخي لم يكن أخي يا أمي.. أخي كان ممشوقاً، باسماً، شاباً، ممتلئاً، وكان شعره مسترسلاً، يغني وقت الغناء، ويرقص وقت الرقص، ويدبك وقت الدبكة، ويحكي إذا حضر الحديث.. أما الشخص الذي جاءنا البارحة، فقد كان ضئيلاً، هرماً، محني الظهر، على رأسه بضع شعرات بيض، لم يعبأ برقصك، ولا بدربكة خالتي، أو بغناء صالح، أو بفرح الناس من حوله بعودته.. كان ساهماً طوال الوقت، ينظر إلى لا شيء، لم ينطق بكلمة واحدة منذ وصوله.. حتى من الأحاسيس لم يكن عنده شيء.. فلو كان عنده شيء منها، لوجدنا لقبلاته حرارة.. لحضنه دفئاً.. لبقي معي هنا، عند قبرك، ولو لدقائق، بعد انتهائنا من مراسم دفنك..

*** تاج الدين موسى.. قاص من سوريا (رحل عنا في شباط 2012)**

فراشة مغسولة بغاز السارين

شريف صالح

«كان واقفاً على حافة المَسقى المتآكلة، وكان يظلل عينيه بكف يده، رغم أن أشعة الشمس انكسرت وكادت تتلاشى خلف سحابة كبيرة. بدا قرصها المحمر باهتاً، وحوله تناثرت ظلال وبقع دموية.

أعاد تظليل عينيه كي يتأكد. لمح شبحه يسير بتؤدة خلف بقرتيه قادماً من ناحية الجنوب.

اختبأ سريعاً خلف أجمة الذرة وأعواد الغاب. ألقى بصدره فوق كتلة طين جافة، وهو ينبش بين أعواد الأجمة عن فتحة يمرر منها فوهة البندقية. لم ينتبه لشيء ما جرح يده جرحاً خفيفاً:

«لن يفلت هذه المرة»! كان يحدث نفسه.

أخذ وضع الاستعداد، فيما حط غراب على شجرة كافور عملاقة على مدخل المقابر التي كانت تقابله بصفوفها الخرسانية المنتظمة. سكون تام باستثناء حفيف شواشي الذرة ونظرات الغراب وهو ينقر برأسه إلى أسفل كأنه يراقبه.

كانت فوهة البندقية مصوبة في اتجاه المقابر مباشرة. لا يكاد يرى أي شيء على الطريق الترابي الملتوي قليلاً. ظل يتسمع وأذنه على الأرض لوقع أظلاف البقرتين بثقلهما. أخيراً سمعه قادماً وهو يغني بصوت أجش يرتج في الفضاء:

يا حبيبي كل شيء بقضاء   ما بأيدينا خلقنا تعساء!

كان يغني بأعلى صوته، وكانت ذبذبات غنائه ترن في الفضاء حول أجمة الذرة والغاب وصمت القبور. ظلال جسده النحيل اختلطت بظلال بقرتيه وظلال شجرة الكافور العملاقة.

«لن تفلت» قالها وضغط الزناد. كان يضغط على أسنانه لا شعورياً عندما انطلق دوي هائل أفزع الطيور وكل النائمين في المقابر.

أطلق رصاصة أخرى فطار الغراب من فوق الشجرة: «غاق غاق.. غاق غاق».

انقطع الغناء فجأة كأن لم يكن. حاول أن يتتبع حركة وصوت الرجل ودبيب بقرتيه على الأرض. لو أخطاته الرصاصة سيرى ظله يتحرك متجاوزاً المقابر.

استلقى على ظهره وهو يلهث وينضح عرقاً. كانت رائحة البارود تملأ أنفه. وبصعوبة لمح الغراب يضرب بجناحيه عالياً إلى أن تلاشى قرب عين الشمس التي غطست خلف سحب رمادية قاتمة.

هُيئ له أنه سمع صوته يغني مرة أخرى:

يا حبيبي كل شيء بقضاء   ما بأيدينا خلقنا تعساء!

هل هو صوته حقاً أم صداه ما زال عالقاً بين الأشجار؟!»

كنتُ مقتنعاً بعدما انتهيت من قراءة هذه القصة، أنها مكتملة، لا زيادة ولا نقصان، ثم تطلعت في وجه الناقد الذي كان يجلس متحفزاً بصدره إلى الأمام. نفض سيجارته ثم استراح بظهره إلى الخلف وأبدى استغرابه - بطريقة لطيفة ومهذبة في الحقيقة - أن فلاحاً يمكن أن يغني لأم كلثوم، وليس أي أغنية.. بل قصيدة؟!.. طبعاً كنت أتمنى في سري، أن يقول رأيه في القصة ككل، ولا يتوقف عند تفصيلة معينة، ولو كلمة من هذه الكلمات التي تطمئن قلب أي كاتب شاب: أحسنت، برافو، قصة جميلة.. ثم بعدها ينقد ويشرح كما يحلو له.

نظر في عيني، تلك النظرة الموارِبة. لا أعرف بدقة كيف تكون نظرة النقاد موارِبة، لكنه لا يسددها في اتجاهي مباشرة بل بطرف العين، كأنه ينتظر مني أولاً أن أرد على هذه التفصيلة المفحمة قبل أن يسدد ضرباته التالية إلى القصة. وكان الآخرون، بقية أعضاء نادي «الكتابة الحرة»، عشرة أعضاء تحديداً، ثلاثة نساء إحداهن مضطربة نفسياً ولا أعرف ما هو عملها الأصلي، وسبعة رجال يعملون في مهن مختلفة، لكنهم بعد أن ينتهوا منها يتفرغون مثلي لكتابة القصص والشعر والروايات، عدا طبعاً عن نقد قصص وشعر وروايات زملاء آخرين، ليسو بالضرورة أعضاء معنا في النادي. وهو كان الشخص الوحيد بيننا، الذي لا يكتب أي شيء على الإطلاق عدا النقد. هو ناقد وكفى. طبعاً حدثنا كثيراً عن احترام التخصص، والاحتراف، وأهمية النقد في مسيرة الإبداع. وهو في الحقيقة لم يكن بحاجة لكل هذه الشروحات، فكونه الوحيد المتفرغ كلياً لمهنة «النقد» أعطاه ميزة مهمة أشبه بمهمة الحكم في مبارايات الكرة. بالطبع هو يشعر بأهمية دوره، ولذلك يكون أول من

يعلق ويطرح رأيه في أي نص يقرأه أحدنا، وهو شحيح جداً في إطلاق أي حكم عشوائي أو مجاني.. حتى لو كان في نيته إطلاق حكم عادي جداً مثل قوله «هذه القصة جيدة».. وهي العبارة التي يقولها عادة لزملائي الرجال، لكن لو كانت قصيدة لإحدى الزميلات فهو يغير نبرته تماماً، تصبح أرق بطريقة ما، حتى نظراته يفيض فيها حنان غير مألوف وهو يقول: «هذه القصيدة لامست جوهر الفن». ولا أحد يسألني كيف تلامس قصيدة جوهر الفن، المهم أن الناقد الوحيد في نادي «الكتابة الحرة» رأى القصيدة وهي تلامس جوهر الفن إلى درجة أنها غيرت نبرة صوته ونظرة عينيه.

على العموم، هو يرجئ عادة إعلان حكمه النهائي، مثل صافرة الحكم، لابد أن تأتي في آخر لحظة، ويظل يمارس تلذذه لأقصى درجة في طرح الأسئلة وإرباك صاحب النص، بل وتفنيد آراء الآخرين إذا أحس فيهم تودداً غير منهجي تجاه النص. والحق يقال هو يفعل ذلك ببصيرة مدهشة، وفي حالة لطيفة من الانفعال والاستمتاع. كأنه يمارس لعبة خاصة به، هو وحده الذي يعرف قواعدها ويحتفظ بها سراً. أو.. إن جاز التعبير، هو يستغل حماس المرء لنصه، وخجله المبالغ فيه، كي يستمتع بانتهاكه شيئاً فشيئاً. انتهاك النص طبعاً.

عندما رددت عليه بشيء من الثقة، والتباهي الخفي بأنني لا أعتقد أن قصتي نموذجية على أية حال، لكن أن يغني فلاح بصوت عال في حقله، فهذا حدث كثيراً جداً في قريتي، وأكثر من أغنية لوردة وفايزة أحمد وأم كلثوم سمعتها لأول مرة بأصوات فلاحين وسمعها معي «أبو قردان» وحتى اليمام فوق شجر السرو. لا أدري لماذا شددت على ذكر «أبو قردان» أولاً، ربما لأنني شعرت أن ذلك سيضايقه مثل دودة تأكله.

ابتسم بطريقة تنم عن رباطة جأش غير متوقعة وقال: لا بأس يا عزيزي، طالما أن أبو قردان سمع الأغنية بنفسه.. سأصدقك!

لا أدري ما الذي في كلامه أثار ابتسام الآخرين هكذا! عدا أن كلمة «عزيزي» واحدة من أسوأ عشر كلمات أكرهها في حياتي.

لستُ متأكداً إذا كان استشف أن موقفي يترنح تحت ضربات سخريته الخفيفة، لكنه سحب نفساً فاتراً من سيجارته وتركها مشتعلة على حافة المنفضة ثم استطرد مستعملاً يديه: جوهر الفن (واحد من تعبيراته الخالدة) أن يكون هناك صراع. علمنا أن فلاحاً يتربص بفلاح آخر كي يقتله.. السؤال الطبيعي الذي سيرد على بال القارئ.. ماذا فعل الفلاح الآخر كي يستحق القتل؟ ما الدافع وراءه؟ هناك مقدمات ضرورية كان يجب توفرها كي تؤدي إلى هذه اللحظة المصيرية.

للأمانة، تساؤلاته منطقية جداً، وأنا نفسي بعدما انتهيت من الكتابة طرحتها على نفسي. ولكي أهرب من هذه الأسئلة التي ستقوض القصة، وستنهي نقاش الأعضاء بالجملة المعهودة: «القصة معقولة لكنها محتاجة إعادة نظر». حكم إعدام بعبارة دبلوماسية مهذبة! قررت أن أناقش فكرته عن القتل بصورة فلسفية، وهو عموماً ليس له جلد على مثل هذا

النقاش، وينعكس على بلادة وذهول عينيه. قلت له: من قال إن القتل له منطق؟! يمكن أن يُقتل أي شخص دون أي مبرر ولا دافع.. ألا ترى الأطفال الأبرياء يقتلون في سورية وفي السيارات المفخخة في العراق من دون ذنب.. وبلا سبب.. لمجرد أن قاتلاً حقيراً وضع قنبلة موقوتة ثم تركها تصطاد الناس عشوائياً؟ هل كل مقتول بالضرورة يستحق مصيره؟ هل كل قاتل بالضرورة لديه هدف أو قضية عادلة؟ (مر في ذهني وأنا أتكلم قصة من مجموعتي السابقة اسمها «شخص صالح للقتل» عن قاتل يجلس في غرفة في الفندق ويصوب مسدسه تجاه الباب مستعداً لقتل أول شخص يدخل عليه، وهذا ألهمني مزيداً من الحجج والاستثارة) يكفي أن يكون هناك شقيقان، كي يفكر أحدهما في قتل الآخر على الفور، أكثر مما يفكر في مضاجعة زوجة أخيه من وراء ظهره؟ القاتل ليس مكتوباً على وجهه أنه قاتل ولا المقتول مطبوع على صدره إنه يستحق القتل.

كنت أتكلم بحماس وتمرير بعض الجمل السياسية دفع زميلتنا المضطربة نفسياً إلى التصفيق فور أن توقفت. ثم مدت يدها وسحبت سيجارة من علبتي دون أن تستأذنني. لحظتها لم أكن أرى أجسادهم بل أزواجاً من العيون حولي، فضربت بقبضتي ضربة خفيفة كي أوقظ عيونهم من شرودها وتابعت كأنني ألقي محاضرة: القتل يحدث بلا هدف وفي كل مكان في العالم. يكفي أن يفسر أحدُهم نظرتك بأنها عدوانية أو يعتبرك تجاوزته وركنت سيارتك مكان سيارته.. يكفي أن تمر بالمصادفة بجوار صندوق قمامة وأنت غير منتبه إلى تكتكة خفيفة جداً، ليست سوى موقت لانفجار قنبلة.. ذنبك الوحيد فقط هو حظك التعس وصدفة المرور في هذه اللحظة. أتدرون؟ قد تبدو لكم قصتي رديئة جداً، لكن الحقيقة أنني أنا نفسي وبعد أن أغادر ندوتنا أخشى من جاري في محطة المترو إذا كنا وحدنا في المساء.. من يدري أنه لسبب مبهم يخصه هو فقط، قد يقرر أن يغرس مطواة كان يخفيها بعناية في جيبه، يغرسها في قلبي ثم يتركها ويلحق بعربة المترو قبل إغلاق بابها! أو فراشة صغيرة زاهية الألوان ترفرف حول وجهي وأنا أسترخي تحت شمس الصباح في الحديقة العامة، وأبتسم لها باعتبارها علامة رومانسية تدعو للتفاؤل.. من يضمن لي أنها ليست مغسولة بغاز السارين ولن تمضي إلى حتفها قبل أن تأخذني معها. نحن وحوش نخبئ القتل للأطفال وراء ظهورنا.. نحن (كحة خفيفة أصابتني في هذه اللحظة) نحن طرائد وفخاخ القتل منصوبة لنا بكل الحيل التي لا تخطر على بال الشيطان نفسه.

كان من الممكن أن أستمر في الكلام هكذا إلى ما لا نهاية، لولا أن أحد الزملاء، وبالتحديد زميلنا الأكثر نفاقاً للناقد، بمناسبة ومن دون مناسبة، تزلفاً مسبقاً للحظة التي سيأتي فيها دوره لقراءة نصه الهزيل. زميلنا هذا الذي أكره تزلفه بالطبع قطع علي تدفق كلامي وقال في لا مبالاة وهو يسترق النظر إلى رد الفعل على وجه الناقد: مع احترامي لكلامك الممتع يا زميلي العزيز...

طالما بدأ بهذه الديباجة فهو سيلقي قنبلة بعدها.. أعرف حقارته.. كرر الديباجة مرة

أخرى: أؤكد لك مع احترامي لكلامك.. لكن قصتك كلها لا تزيد عن عشرة أسطر ولا تحتمل كل هذا الكلام الكبير والإسقاطات السياسية!

انتهزت زميلتنا المضطربة نفسياً الفرصة ومدت يدها، وسحبت سيجارة أخرى من علبتي، لكنها هذه المرة كانت أكثر حذراً وارتباكاً وهي تسحبها. ابتسمت لها أطمئنها فلا أحد سيأكلها لمجرد أنها أخذت سيجارة من علبة زميلها. ثم استأنفت الدفاع عن قصتي، متجاهلاً الرد بشكل مباشر على هذا الزميل المتزلف، فما زلت أشعر أن معظم الزملاء لم ينحازوا بعد إلى موقف الناقد وتابعه الوفي. صمتهم لا يعني بالضرورة أنهم في صفي.. لكنني لا أدري في أية لحظة بالضبط فقدت الرغبة في الكلام عن فكرة القتل العشوائي، القتل المهين، القتل المتسلسل، والوحشي، والكثير، والمدمر، والذي لا يتوقف قليلاً مراعاة لأي شيء.. ولو لمرور طفل عالق في يد والدته وهو ينظر بامتنان إلى ملاك لا نراه.. ولا حتى لصنبور ماء يصب في حوض لا يستعمله أحد. أعي تماماً أنني أعيش تقريباً تحت وطأة هاجس العنف، ليس فقط لإدماني مشاهدة الأفلام الأميركية ولا متابعة نشرات الأخبار.. لكن فعلاً كلما فكرت قليلاً في قصص القتل.. وكيف يحدث القتل.. أشعر بانقباض ورعب، فهو يحدث طول الوقت بضراوة. أي حادثة قتل.. مثلاً طائرة أميركية بدون طيار قتلت ثلاثة مشتبه بانتمائهم إلى القاعدة في اليمن.. هل توقع ثلاثتهم أن يقتلوا هكذا وببساطة، حتى لو كانوا إرهابيين بالفعل؟ هل ما قامت به الطائرة عمل أخلاقي وقانوني، حتى لو كانوا إرهابيين؟ هل لا يستحقون محاكمة عادلة، حتى لو كانوا إرهابيين بالفعل؟ ومن هذا الذي اشتبه فيهم وخطط ونفذ؟ ماذا لو كنتُ أنا نفسي، أسير لاهياً قرب اثنين لا أعرفهما، وقامت الطائرة بتصفيتنا من الجو.. هل سيهتم أحد حقاً أنني لست إرهابياً ولا مشتبهاً به؟ لن يهتم أحد.. لن يتغير الخبر عن قتل ثلاثة مشتبه فيهم!

لم أستوعب أنني توقفت عن الكلام منذ مدة لأنني كنت تحت هيمنة صوتي الداخلي. انتبهت إلى همهمات جانبية بين الرفاق، ويد أحد الزملاء تسحب نسخة القصة من أمامي. راح يعيد قراءتها بعينيه. لستُ متأكداً إذا كنت سمحت له بذلك أم لا. وهل أطلق الناقد حكمه النهائي على النص أم ما زال يتلذذ بتعذيبي في انتظار الحكم. كنتُ أخشى أن يدحض حججي بجملة يتردد صداها كثيراً في تعليقاته: معك حق.. القتل في الواقع يحدث دائماً بمنطق أو من دون منطق.. لكن القتل في القصص لا بد أن يكون له منطقه الخاص.. ثم يواصل بعدها الشرح وإعادة نفس الكلام: لا يكفي التبرير بأن البطل مجنون، مجرد مجنون، وقرر أن يقتل بصورة عشوائية كل شخصيات النص! ثم إن بطلك يبدو عاقلاً فهو حذر جداً وأعد فخاً للضحية بصورة محكمة، وحدد المكان والزمان. استطرد مازحاً: لم يكن ينقص البطل سوى أن يتصل على «موبايل» الضحية ويخبره أنه ينتظره بعد نصف ساعة أمام المقابر كي يقتله ويرجوه ألا يتاخر.

التفت نحوي: ما رأيك أن تضيف شخصية ثالثة تدخل بالخطأ إلى المشهد وتزيده

تعقيداً أو تشويقاً؟ هذا سيثري الحبكة . . لتكن زوجة الضحية كانت تسير خلفه ولم ينتبه القاتل إلى وجودها . . ويا سلام لو كانت تحمل رضيعها وهو يبكي على كتفها! فهل سيكون ذلك عاملاً مؤثراً في تأجيل فعل القتل أو تراجع القاتل؟

قلت باقتضاب وأنا غير مقتنع باقتراحاته الفذة: وربما يتحول المشهد إلى مجزرة دموية! زميلتنا التي كانت تجلس صامتة بجوار الزميلة المضطربة نفسياً . . لديها دائماً تعليق مقتضب تظل تتريث الفرصة المواتية بين الكلام المحتدم كي تدلي به بهدوء وبطبقة صوت لا علاقة لها بملامحها: أعتقد كلمة «دموية» مباشرة أكثر مما يجب . . لماذا لا يكون عنوان القصة كلمة «ظلال» فقط بدلاً من «ظلال دموية»؟

أحفظ كل هذه الحيل عن ظهر قلب، تبدأ بتفصيلة ثانوية، وإذا استسلمت يجرونك إلى تفصيلة أكبر ثم العنوان والنهاية والبداية والصراع والشخصيات . . حتى تلعن اليوم الذي كتبت فيه القصة أصلاً واليوم الذي طلبت فيه إدراجها للمناقشة في الجلسة الأسبوعية لنادي «الكتابة الحرة»، واليوم الذي تحمست فيه للجلوس وسط هذه الوجوه المبحلقة في ذهول إلى الأبد . كنتُ منفعلاً من الداخل بطريقة لم أتوقعها ولم أعهدها في نفسي . . وجدتني أبتسم لفراشة زاهية الألوان لا أدري كيف دخلت إلى مقر النادي . . راحت ترفرف حولنا بطريقة مزعجة . أصاب الجميع الوجوم . . وجدتني أصرخ وأقفز في مكاني: قنبلة . . قنبلة . . الفراشة تحمل قنبلة جرثومية . . قفز الجميع وتداخلت أجسادهم وهي تتخبط وتصرخ مذعورة . . صراخ هيستري وهرولة . . كل ما أتذكره بانتباه يد زميلتي المضطربة نفسياً وهي ترفعها بنصف السيجارة المشتعلة إلى أعلى وتنطق بالشهادتين . كانت الوحيدة التي ظلت في مكانها ولم تغادر مقعدها!

أوراق السينما والمسرح

«القربان» فيلم يحتفي بباسل شحادة:

فكن حُلماً لنحلم...

يارا بدر

(مُت لتعرف كم نُحبّك..
مت لنعرف كيف يسقط قلبك
الملآن، فوق دعائنا، رطباً جنيا
لك صورة المعنى.
فلا ترجع إلى أعضاء جسمك
واترك اسمك في الصدى..
صفة لشيء ما).

هذا ممّا كتب الشاعر الفلسطيني الراحل (محمود درويش 1941-2008) في قصيدته الشهيرة (القربان) عقب انتفاضة الأقصى عام 2000. وهو جزء من المقطع الصوتي في فيلم «القربان» الذي قدّمه المخرج السوري «عروة الأحمد» ضمن فعاليات النشاط المدني الذي أطلقته حركة «عنب» السورية بعنوان «احتفالية أم الشهيد» يوم 10 آب في دبي- الإمارات. وخُصّص الفيلم للاحتفاء بوالدة الشهيد، وبالشهيد المخرج السوري (باسل شحادة 1984-2012) الذي تعرّف إليه كثيرون بوصفه قرباناً في زمن صعب، تعرفوا إليه بعد وفاته في استهداف قوات النظام السوري لحي «الصفصافة- باب السباع»- حمص

بتاريخ 28 أيار 2012.

باسل شحادة كان أحد ابرز الناشطين السلميين السوريين، تخلّى عن منحة «فولبرايت» الدراسية في أميركا للاختصاص السينمائي، وعاد وهو يُردّد: (تخيّل نحن كم مرة سنعيش ثورةً في حياتنا، كيف لي أن أترك الحلم الذي بدأ يتحقّق؟ وماذا سأقول لأطفالي عندما يسألونني، هل أجيبهم: «عندما بدأت الثورة تركتُ وطني وذهبت لأهتم بمستقبلي»... أين هو هذا المستقبل من دون وطن حر؟!).

باسل الذي سبق واعتقلته قوات النظام لمشاركته في اعتصام المثقفين في منطقة الميدان– دمشق، اختار قبل وفاته بثلاثة أشهر الذهاب إلى حمص عرين الثورة السورية والعمل مع الناشطين فيها، مدرّباً إياهم على مهارات التصوير والمونتاج، بخبراته التي اكتسبها من الدراسة ومن تصوير المظاهرات في مختلف مناطق ريف دمشق.

بعد وفاته اشتهر باسل بلقب «شهيد الطائفة السينمائية»، هو الذي اعتاد السخرية من إدعاءات الطائفية في سوريا حين لقّب نفسه ب «السلفي المسيحي». مقالات كثيرة كُتبت عنه، أشادت بتضحيته بأحلامه الفردية وعودته إلى سوريا في زمن ضجّ بحقائب السفر، بشجاعته في الذهاب إلى معقل الثورة الأكثر سخونة، وكان في حضوره وعمله وفي تخليه عن الدراسة النظرية ليمارس العمل على خط النار، فرحٌ لكثيرين ممّن وجدوا أنفسهم وحيدون يقاتلون صباحاً ويرقصون في المظاهرات مساءً ما بينهما يُشيّعون جثامين ضحاياهم. من الذهاب إلى تصوير المظاهرات أو القصف، من هذه المغامرة التي تضع الحياة على حد الشفرّة، يبدأ منه فيلم عروة الأحمد.

صوت رجل قوي، لا يخلو من ارتجاف قلق، يقول: (يعني بدك تغامر هلق، بدك تتوكل عالله وتمشي، ما في غير هيك. بدك تتشاهد وتمشي. وإنشاء الله ما بيصير معك شي... وانشا الله بنقدر كمان نسحبك إذا صار شي). كاميرا مفتوحة عدستها على خراب المدينة، على شتاءها الحزين. وصوت آخر يقول (لنذهب). تضطرب الكاميرا، وتغدو عدستها إلى السماء، وشاب يقول: (قول يا الله..).

يترجم صاحب الفيلم الذي أعدّ مواده من أرشيف «باسل شحادة» نفسه تلك الكلمات إلى اللغة الإنكليزية، التي تبدو عصيّة على البوح بكل ثقل المعاني. فيكف نشرح للآخر أيّاً كان، وحيثما كان، ما معنى: (وإنشا الله بنقدر كمان نسحبك إذا صار شي).؟!!

يعلو الصوت الرخيم، المليء بالإنذارات ووشايات القص، للشاعر «درويش» مع تبدّل لقطات سريعة للكاميرا وكأنها ترافق صاحبها في رحلته نحو الأعلى، مع لقطة سريعة لا تكاد تضبط لباسل شحادة مأخوذة من الأسفل لا يكسر بياضها الموّشح بالرمادي سوى شعر باسل المتروكة خصله للهواء. لتسرقنا الكلمات والصوت بعيداً عن حدود المفردات الضيقة، وليتخذ «قربان» درويش شكلاً جديداً، في وداعٍ يختار «الأحمد» موسيقى تخفّف من وحشَته.

(هيّا.. تقدّم أنتَ وحدك،
أنت وحدك.
حولك الكُهّان ينتظرون أمر الله.
فأصعد
أيُّها القربان نحو المذبح
الحجري، يا كبش الفداء
فدائنا..).

من السماء إلى الأرض نعود، إلى مراسم تشيّع مفتوح القراءات، قد يكون لأيّ إنسان سقط شهيداً في حمص، وقد يكون لجثمان «شحادة» نفسه، وهو الذي يحمل القراءتين، هو الإنسان الذي سقط في حمص شهيداً،وهو القربان. حمص التي دُفنَ فيها «شحادة» بين أصدقائه الذين صَلّوا لروحه بكل فسحة الأديان ورحابتها، صَلّوا لأنا تخّلت عن أنانيتها لكي تتطهّر حيوات أخرى، كما يقول درويش:

(من يُطهّرنا سواك؟ وقد ولدت
نيابةً عنّا هناك.)

«هناك» تنزاح من سياقات قصيدة درويش الجغرافية والمعرفية لتكون في قصيدتنا السورية حمص. أمّا نحن الذين خارج حمص، وخارج قصيدة الثورة في سوريا، فربما سيأتي زمن لمن لم يعترف منّا حتى الآن بكل القرابين السورية، زمنٌ يقولون فيه:

(فاصفح عن خيانتنا الصغيرة
يا أخانا في الرضاعة
لم نكن ندري بما يجري
فَكُنْ سمحاً رضيا).

ينجح الأحمد في اختيار قصيدته، وهي التي تُعَدّ من أبرز إنجازات «درويش»، ليضعها في سياقٍ زمني ومكاني مغايرين، في ثقافة مختلفة عن الحرب مع العدو الإسرائيلي وأزمات النص الديني، حيث تسكن القصيدة اليوم خلفيّة حكاية حرب على السلطة، التي شاءت الحكاية أن تكون بيد طائفة دينية في بلد تقطنها العديد من الطوائف والأقليات الدينية والعرقية. يتتابع النص، وتنسال الكلمات، ليغدو القربان أقل سماويةً وتعبّداً، وأكثر ارتباطاً بوطن وهويّة ومجتمع، فكان كما اشتهاه درويش:

(وكُنْ أيقونة الحائرين،
وزينةً للساهرين..
وكن شهيداً شاهداً..
طلقَ المُحَيّا)

ومن الصورة في كنيسة «أم الزنار» في حمص، والتي تضرب في جذور أرض سوريا

تاريخاً عريقاً، جميلا، وقد احتضنت القدّاس على روح الشهيد، إلى مشاهد لقاء أجرته صحفية مع باسل قبل وفاته بزمن قصير يجيبها فيه على سؤالها: ما هو اسمك؟ وأين هو المنزل بالنسبة لك؟ بالقول: (اسمي باسل شحادة، ولا أشعر أنني في المنزل. أحياناً أشعر به ولكن ليس كل الوقت). علماً أنّ كلمة (HOME) تحمل معنى المنزل ومعنى الوطن، ولن نتحمّل ثقل الترجمة والدلالة. لكن من الصورة الثابتة للمُسجى في راحة صمته الأبدي إلى الشريط القديم يتخذ القربان الشعرّي، الفكريّ، المُغنى صوتاً، يتخذ شكلاً واضح المعالم، حر الابتسامة، ولا ينخفض صوت درويش. الأمر الذي يستوقف الكثيرين، إذا يبدو حضور درويش في الفيلم، خطيراً، إشكالياً، يسرق المتابعين إلى سطوة صوته الأثير، خاصة أنّ للنص ذاته بلاغته، وصوره المتعددة الدلالات، وهو في تناصه في حالة «شحادة» يزداد عمقاً وغنىً للمستمع.

(وكنا نحن نجارين موهوبين في
صنع الصليب
فخذ صليبك وأرتفع فوق الثريّا..).

لكنه وفي الوقت ذاته، ومع غنى المفردات وعمق الدلالات، وإشكاليات السياقات المعرفية التي يبنيها هذا النص، نفقد في لحظات كثيرة بطل الفيلم الأساسي وهو باسل، نضيع في المسافة الفاصلة بين خصوصية حالة باسل وتعقيدات فكرة القربان المعرفيّة، الثقافية، اللاهوتية.

قبل انتصاف الفيلم القصير الذي مدته ستة دقائق وبضع ثوانٍ، يربكنا الأحمد باللكمات أكثر، فيضيف نثراً مكتوباً باللغة الإنكليزية، لنعود ونهدّئ من زخم انفعالنا البشري واللحظيّ. يكتب: هل أنت حي؟ ويكتب الجواب: تقريباً. وهل ألقى الأشرار ظلالاً عليك؟ ويكون الجواب: لا أعرف. ولكن في الوقت المناسب هناك غرفة للموت. يكتب بعدها: لا تمت تماماً. ويُجيب: سوف أحاول. كل هذا مترافقاً مع تتابع الصور السينمائية، البسيطة والقاسية لمن رحل عنّا، التقطها ورحل عنا. وصوت درويش يقول:

(فكن إشارتنا الأخيرة
كن عبارتنا الأخيرة..
في حطام الأبجدية
لم نزل نحيا،
ولو موتى).

وترتفع الموسيقى الصوتية بزخمها المتسارع، وقد اختارها الأحمد من مؤلفات الموسيقار «جيمس هورنر» وهو يأخذنا في لقطاتٍ من رحلة باسل على دراجته النارية «لينين» التي قادته حتى الهند. هذه الفنيّة في المزج بين الصوت الشعري والموسيقى، بين القصيدة والكلمة المكتوبة مع صور أرشيف شحادة تنتج فيلماً مشغولاً بتأنٍ وحبٍ كبيرين، يكاد

يكون كولاجاً سينمائياً ينسج لوحة فنيةً بانوراميةً لباسل. أخيراً يعود الأحمد بنا كمقطوعة موسيقة تختتّم ذاتها، إلى صورة صنعها أصدقاء باسل وكانت من أكثر ما اشتهر كتحية له، كُتب عليها: (باسل رح يشتقلك الطريق).

بينما يعلن صوت درويش حكمته ويُعلي صوته والقول، وهو يُنهي الحكاية:

(فكن حلماً لنحلم.

* * *

لا تكن بشراً ولا شجراً
وكن لغزاً عصيا.
كن همزة الوصل الخفيفة بين
آلهة السماء وبيننا

* * *

إذاً، كن ميتا حيا!
وحيا ميتا
وكن طيفا خفيا.
ولتبق وحدك عاليا
لا يلمس الزمن الثقيل
مجالك الحيويّ.
فاصعد ما استطعت
فأنت أجملنا شهيدا.
فالسلام عليك يوم ولدت
في بلد السلام
ويوم مُتَ،
ويوم تبعثُ من ظلام
الموت حيا).

حقيقتان وممثلة واحدة

خلف علي الخلف

مونودراما

خلفية سوداء تتناثر عليها تلوينات حمراء على شاكلة مقهى. كرسيان وطاولة واحدة، وهناك فنجان قهوة، علبة سجائر على الطاولة، ومنفضتان. أوراق متناثرة وآيباد [أو لابتوب صغير]. امرأة شابة تعود من عمق المسرح تجر الكرسي الذي يبدو أنها كانت تجلس عليه.

تبدأ بقراءة بعض الأوراق بصمت... ترمي الأوراق على الطاولة وتحدث نفسها.

– من الصعب إنجاز عرض مقنع من كل هذه الأفكار والشهادات المتناثرة، الأمر ليس سهلاً. الكتابة لا يمكن أن تصل إلى تجسيد حدث، الكتابة تنقل أشياء من الحدث، تصفه، تنقل مضمونه، في كل حدث هناك أشياء لا يمكن نقلها. كيف يمكن نقل أحاسيس ومشاعر وأفكار أشخاص مشاركين في ذلك الحدث لحظة وقوعه، هذا يقتضي أن يكون الكتاب كلهم موجودين في ذات اللحظة.

– صعبة يا أخي... سلمى أصرت على صديقها الكاتب أن لا يكون النص مباشراً أن يكون خافتاً أن يغوص في المشاعر والعلاقات الإنسانية... قد يكون الحق معها... تريد عرضاً يقاوم الزمن، ويمكن أن يعرض في كوستاريكا ويتفاعل معه الناس بعد سنوات طويلة من لحظة كتابته.. لكن هذا تعقيد للأمر. نحن نريد عرضاً مسرحياً بسيطاً وعادياً؛ وبالتأكيد لا

يمكن لشكسبير أن يكتبه لنا ولن يخرجه «بيتر بروك». . بروك آآآه بروك [كمن يتذكر]. . . وجدتها: «المتناقضات». الوصول إلى الحقيقة عن طريق المتناقضات. هذا مناسب لفكرة العرض الذي نريده. ويناسب الحالة التي نريد التعبير عنها، وبالتأكيد لسنا أفهم من «بروك» في المسرح. ولكن ما هي الحقيقة التي نريد أن نصل إليها! هل هناك حقيقة أصلاً يجمع عليها الناس [تشير إلى الجمهور وتسألهم:] هل الحقيقة واحدة موحدة لكم جميعاً. . . رأينا الحقيقة الواحدة الموحدة أين أوصلت الشعوب. خذوا الكوريين الشماليين الذين يلبسون لباساً موحداً ويبكون بكاءً موحداً على فقد الزعيم. . . وأسماء زعمائهم موحدة. . . كيم سونغ الجد، وكيم جونغ الاب وكيم جونغ الابن. بقي كيم جونغ الروح القدس ليكتمل الثالوث المقدس. هذا الشعب الموحد على حقيقة واحدة وقائد أوحد منذ أكثر من نصف قرن. . . ميت من الجوع. هذه هي الحقيقة. الحقيقة الموحدة سخف. . . ما فائدة الحقيقة أصلاً. . . بماذا تنفعنا؟ في هذا العرض تحديداً ماذا يمكن أن تنفعنا الحقيقة؟ وهل هي غائبة أصلاً كي نكشفها ونقنع الناس بها؟

لنتدرب على قول الحقيقة. . . لنستحضر أمثلة على قول الحقيقة. هل تذكرون الطفل الذي قال: الملك عارٍ. . . ما قاله كان حقيقة يراها الجميع. لكن فكروا قليلا ما نفع «حقيقته» التي قالها؟. . . أنا أرى أنه مجرد ولد أرعن. الناس كلها كانت متواطئة مع الملك ويرون لباسه جميلا، والملك نفسه مبسوط بهذا، ما فائدة أن يواجه طفل حشداً كاملاً بالحقيقة، ما فائدة أن نقول إن الملك عارٍ؟! خرّب الاحتفال كله، وجنى على الخياط. . . وكشف كذب الجمهور الذين كانوا جميعاً يرون هذه الحقيقة لكنهم تجاهلوها لأنها غير مفيدة، وهذا الولد، لأنه ولد خربط القصة كلها. . . ماذا استفاد؟ ماذا استفاد الحضور؟ هل عدل هذا الولد مسار التاريخ؟ كلا [باستعراضية شديدة] كلا. . . لم يغير شيئاً سوى أنه تسبب في عقاب الخياط. . . ولا تذكر الأسطورة ماذا حل بوالديه. الحقائق العارية مجرد أساطير. المسألة معقدة برأيي. . .

لو كانت سلمى هنا لقالت: لا لا. . . لا تصدقوها. هذه وجهة نظرها. . . هذا تبرير لتسويق الأكاذيب، إذا كانت حقيقة ساطعة كملك عارٍ يتم الالتفاف عليها بهذا التبرير السخيف ماذا سنقول للطغاة المواربين. . . الحقيقة هنا أن الطاغية كان عاريا. . . حقيقة مثل التي قالها هذا الطفل ساطعة ولا يمكن إخفاءها بغربال مهما جرّت من ويلات عليه وعلى أهله وعلى الخياط الذي خدع الملك. . . هذا ما يسمونها الحقيقة العارية، وأصلا لم تكن تحتاج لكشف. الحقيقة تقول إن هناك طغاة مستبدين وحاشية كاذبة يبيعون لهم العري على أنه لباس سحري لم يصنع مثله في التاريخ، وهناك من يواجههم بهذه الحقيقة. لو لم يكن للحقيقة قيمة بذاتها لما بقي من يتمسك بها على مدار التاريخ. . . الحقيقة حرية. . . الحقيقة تحررنا. . . كم هي ثمينة وغالية تلك الحرية؛ وإلا كيف يمكن أن يكون مهرها الروح، ملايين الأرواح ذهبت من أجل الحرية. . . الحرية. . .

بدأنا ننزلق إلى المباشرة التي حذرت منها سلمى. لكن هذه حقيقة. لو كنت أنا الحرية

التي يدفع الناس أرواحهم من أجلها. هذا يرضي غروري كأنثى، أن يكون مهري غال، أغلى من مهر عبلة التي طلب والدها مئة من النوق العصافيرية من عاشقها عنترة. أنا... أريد أن أكون الحرية. [خرجتُ عن النص... لكن الأمنيات دائما خروج عن النص].

– حسناً... «لا بأس من الإقناع» كما قالت سلمى ونحن نضع مخطط العرض مع الكاتب. علينا أن نستخدم «المتناقضات» في سبيل إظهار الحقيقة. أنا شخصياً أعرف الحقيقة، وهي هنا في جيبي الصغير، صحيح أني لا أهتم لها، لكن لا بأس من إقناع المتعامين عنها. في سبيل إقناعكم [تتوجه للجمهور] لابد أن أسرد لكم قصتي الحقيقية... وستسرد لكم سلمى إذا جاءت قصتها الحقيقية.

أنا أعرف سلمى تشرد دائما خارج الوقت، منذ أن عرفتها وهي تنظر لساعتها دائماً، رغم أنها لم تلتزم بموعد إلا بالصدفة. هذه حقيقة سلمى وهي حقيقة هامشية لكنها أيضا في جيبي هنا... إذا لم تأت سلمى سأسرد لكم «حقيقتها» وهي بالتأكيد مختلفة عن حقيقتي [تشير إلى جيبها]، رغم أنها لم تقنعني لكن الواجب المهني... لا، لا... واجب الإقناع يقتضي أن أعرض لكم حقيقتين وتصوتون بالنهاية لاختيار الحقيقة التي ترون أنها هي الحقيقة، وأنا واثقة أنكم ستصوتون لحقيقتي أنا.

– لن ألتزم بالنص!. فحقيقتي التي سأحدثكم عنها أنا التي رويتها للكاتب، صاغها عبر لغته، واختصر أشياء كثيرة عجز عن نقلها لكم، واستبعد أشياء لا تتوافق مع ما يراه «الحقيقة». لكن هنا أنا سيدة النص ولا يمكن أن يقطع المخرج والكاتب العرض لأني تدخلت في الحقيقة التي رسموها لي. وربما لا يكونان حاضرين أصلاً.

– سأتلو لكم ما دوّنه الكاتب وعليكم أن تلاحظوا خروجي عن النص بأنفسكم، فليس من المعقول أن أنبهكم في كل مرة أخرج فيها عن النص. وأقول لكم: أنا أخرج عن النص أيها السادة المشاهدون.

– ولدتُ في الشهر الأول من عام 1971 في اليوم الأول منه... هكذا تم تسجيلي في السجل المدني، لكن أبي كشف لي لاحقاً أنه ليس تاريخ ميلادي الحقيقي، أمي فكرت بزواجي منذ أن ولدت وقالت لأبي: «يعني كم يوم تقديم لا تضر»؛ فأنا ولدت في آخر عام 70 في 16 تشرين الثاني، أبي كان لديه مبرر آخر، فهو لم يكن يريد تسجيلي في يوم مشؤوم كهذا. وهكذا بكذبة صغيرة كسبت سنة... وتخلصت من سخرية أصدقائي طوالَ حياتيَ. ما فائدة الحقيقة هنا؟ أنا أجد أن كذبة مثل هذه مفيدة لشخص واحد على الأقل الذي هو أنا.

حين وعيت على الدنيا [كما يقولون] وجدتُ أبي شاعراً، كان حين ينتهي من كتابة قصيدة ينادي أمي كي يقرأ لها آخر ما كتب. [كانت تؤمن أن أبي أعظم شاعر في الوجود... رغم أنها لم تقرأ من الشعر إلا ما يقرؤه لها أبي] لم أكن أفهم «حقيقة» ما يقوله أبي، ظل في مخيلتي نبرة صوته وحركاته الاستعراضية وهو يقرأ لأمي التي كانت في حالات الرضى

تسمع له بحبور شديد وملامح الإعجاب تكون واضحة على وجهها؛ بينما حينما تكون غاضبة منه تظهر ملامح الضيق والتبرم.

كنت أكتب في الاستمارات المدرسية في خانة مهنة الأب: شاعر. كنت أكتبها بفخر شديد، وأنظر إلى زميلاتي اللواتي يعملُ أبو الواحدة منهن سائق تكسي، أو شرطياً، أو حارساً في منشأة حكومية أو عسكرياً أو ضابطاً... باستخفاف شديد [الحقيقة كنت أنظر بازدراء ولكن الكاتب أصر على أن نتجنب احتقار المهن ونوصل رسالة محايدة]. كانت دهشة المعلمات وزميلاتي عند جوابي على سؤالهن «ماذا يعمل أبوك؟» تزيد إحساسي بالتفوق. ومرة قالت لي المعلمة: «ما نوع الشعر الذي يكتبه أبوك؟». لم أفهم حينها ما تقصده المعلمة كنت في الصف الرابع الابتدائي، وحين أدركتْ ذلك قالت لي: «هل يكتب الغزل أم المديح أم الهجاء...». قلت لأبي بفرح شديد السؤال حينما عدت إلى البيت... أذكر أن خيبتي كانت شديدة بجوابه. قال أبي ضاحكاً: «يا بنتي لم تعد هذه التقسيمات في الشعر... أنا أكتب شعراً حديثاً». لم أفهم هذه الـ «حقيقة» في حينها، واعتبرت إجابة أبي مجرد محاولة لصرفي عنه لأنه كان يقرأ. وحين سألته عن ماذا يتحدث شعرك يا أبي؟. قال إنه يتحدث عن الإنسانية. لم أفهم ماذا تعني الإنسانية في حينها، لكن مخيلتي الطفولية تخيلت شيئا جميلاً... تخيلت غيمة تحملني إلى خالتي في استراليا... تخيلتُ... [لا داعي لأن أعيد تخيلات طفولية وأنا بالغة ستثير سخريتكم]. قال أبي حين عرف أني أكتب مهنته شاعر، إن الشعر ليس مهنة! الشعر مجرد هواية. أما مهنتي فهي محلل بيانات في مديرية الإحصاء.[كان صعبا على أن أتخيل ما تعنيه مهنة أبي]. تلك الحقيقة أثارت استيائي. لم أحب مهنة أبي وبقيت أكتب في حقل المهنة في أي استمارة أو أي سؤال عن عمل الأب: شاعر. وأصبحت أضيف لها أحياناً: يتحدث عن الإنسانية.

أبي اعتقل في عام 1982. كنت صغيرة، ولم أفهم حينها ماذا يعني «اعتقال»! ومع مرور الأيام عرفتُ أنهُ غياب ضحكة أبي أثناء مشاكساتي الطفولية. الاعتقال غياب حضنه حينما كان يعجز عن الإجابة على أسئلتي. لم يكن أبي يمتلك الحقيقة مثلي. كنت أحيّره في أسئلتي التي لم يكن لديه إجابة لها سوى حضني وتقبيل رأسي وأنا في حضنه. من مثل: لماذا لا تصبح رئيسا يا أبي؟!

– ليس مهماً هذا الآن، رغم أنه جزء من حقيقتي. أريد أن أقول لكم لماذا أنا هنا؟ بصراحة أنا متحمسة لهذا العرض الذي نريده حقيقياً ومقنعا للمتفرجين. لذلك عليّ أن أخبركم بحقيقتي... رغم أني أفكر بتأسيس جمعية اسمها «أعداء الحقيقة»... آه نسيت أن هناك حقيقة أخرى تقدمها سلمى حينما تأتي ولكني متأكدة أن حقيقتي ستعجبكم. [يمكن أن تحاول الممثلة بحركة من جسدها إقناع الجمهور بحقيقتها] حقيقتي رشيقة، سمبتيك. صحية. إنسانية. لا تسبب الكوابيس. تدوم طويلاً. حقيقتي مع الخير ضد الشر. الجميع يدّعون أنهم يقفون بجانب الخير حتى لو كانوا أشراراً. ذلك يعني أن الخير حقيقة

مفضلة على الشر. أنا حقيقة الخير وسلمى حقيقة الشر. أستغل غياب سلمى وأدّعي ما أريد، فهي لا تعتقد هذا. هي تعتقد أيضا أن حقيقتها مع الخير ولصالح الناس.. بالنسبة لي الخير والشر متساويان، ولا يهمني هذا الأمر إن شئت الدقة، المهم هناك حقيقتان. أنا سأعرض حقيقتي. ولن أعرض حقيقتها لكم لأنها ستأخذ الوقت المخصص لي. بالطبع هناك تناقضات في حقيقة كل منا. فهذا ما يمكن الاعتماد عليه لإقناعكم بحقيقة نهائية... حقيقة نهائية! هذا تعبير سخيف لكن الكاتب أصر عليه.

– الحقيقة ليست بالألوان؛ الحقيقة دائما ترتدي الأسود والأبيض. هكذا كانت تقول سلمى. أضحك وأجيبها: ولهذا أنا لا أحبها. ليس أنا فقط، لا أحد يحب الحقيقة عندما يُوَاجَهُ بها، أقصر طريق لفقدان صديق هو مواجهته بحقيقته. وإن كان متسامحاً ومدعياً لقبول الرأي الآخر ولم تفقده من أول مرة، جرب كرر أمامه حقيقته كما تراها أنت عدة مرات. إنها وصفة مجربة لتخريب العلاقات. جرب أن تقول لزوجتك ما هذه الملابس السخيفة التي ترتدينها دائما! أو أعد عليها أسبوعياً، يا ألله كم تثرثرين كأنك «بالعة امرأة». أو قولي لزوجك: آه لا تقبلني أرجوك فرائحة فمك كريهة.

لم يعد أحد يرتدي الأسود والأبيض فقط، الناس بالألوان، الصور بالألوان، الرسم بالألوان؛ لذلك الجميع لا يحبون الحقيقة التي بالأسود والأبيض [طبعا أنا أدعي أن حقيقتي ملونة..]. الكاتب حذرني من هذه الجملة «لا أحد يحب الحقيقة» قال إنها إطلاقية واستبدلها بـ«كثيرون لا يحبون الحقيقة». لكني شخصياً لم أقابل أحداً يحب الحقيقة في حياتي.

– أعود لحياتي. باختصار شديد اعتقل أبي... ومات في المعتقل، أمي لم تتزوج فقد ربتني أنا وأخي الذي سافر بعد تخرجه من الجامعة إلى دبي، لم يوفق بعمل مناسب طوال سنين كما يقول، ولم يرسل لنا قرشاً.

أما أنا فدرست اللغة العربية. وتخرجت بأربع سنين، و«ما طلعت الأولى ع الصف» [بتنغيم]. الذين يدرسون لغة عربية آخرتهم مدرسين يربون الأجيال... وأصعب شغلة بالعالم هي تربية الأجيال. التربية صعبة لكنها مهمة. أهم شيء... لذلك عندما نشتم أحدا نقول له: يا قليل التربية. هذا ليس همّ الأهل فقط، بل همّ الأنظمة أيضاً. الأنظمة تنظر لنا كشعوب قليلة تربية؛ لذلك تصرف أموالا طائلة لتربيتنا، تصرف على السجون والمعتقلات والمحققين والجلادين و... تريد أن تربينا وتؤدبنا. هذه مهمتها التي نذرت نفسها لها، تفعل كل شيء من أجل أن تربينا، ونكون [شطورين ومطيعين ونسمع الكلمة... واللي ما يسمع الكلمة شو بيصير فيه؟ نوديه على «غرفة الفيران»..].

هذا ما فعله النظام بأبي... أخذه إلى «غرفة الفيران» مع أنه لم يكن صغيراً. لكن الأب والأم يربّون أولادهم الصغار ويساعدهم في ذلك المعلمون والمدرسون، وطبعاً العصا خرجت من الجنة لذلك أهلنا ومدرسونا ربّونا بالعصا ونحن صغار، لكن النظام استخدم

هذه العصا كي يربي الكبار قبل الصغار... لأن الكبار أيضاً لا يعرفون مصلحتهم... والله العظيم هذه حقيقة. فعلاً كثير من الكبار لا يعرفون مصلحتهم وناقصهم تربية. جارنا تزوج وحدة «استغفر الله» وترك عيلته وأولاده لأمهم المصابة بألف مرض لتربيهم... ومن سنين لا حس ولا خبر... هذا بصراحة يحتاج تربية، ويجب أخذه إلى «غرفة الفيران» حتى لو كان كبيراً...

ما أقوله لكم هو الحقيقة التي أرويها عن حياتي. هناك أشياء لا أستطيع أن أصارح أحداً بها. في حياتي، وفي حياة كل منكم أشياء كهذه. المهم دخلت وخرجت من كلية الآداب... لم أتوظف لأن أبي كان قليل تربية وحاول النظام تربيته لكنه مات قبل أن يتربّى، عجز النظام عن تربيته. وإذا كان أبوك يحتاج تربية، كيف سيربيك؟ أكيد ستكون قليل تربية، وعليك أن تقبل شتيمة «يا قليل التربية» عن طيب خاطر لأنها حقيقة. لن يتركوك تربي الأجيال وأنت شخص قليل تربية. بالتأكيد ستفسد عليهم تربيتهم، وإذا كانت أي وظيفة تحتاج لموافقة أمنية واحدة فالعاملون في التربية والتعليم يحتاجون موافقة كل الفروع الأمنية وعد إذا تقدر تعد.

ولأن أبي مات وهو قليل تربية، كانت الوظيفة بعيدة عن «شاربي» في زمن النظام الذي عشت وتربيت وترعرعت في ظله، ترعرعتُ... هأ هأ هأ هأ... ترعرعتُ... من أكثر الكلمات صعوبة هذه الـ ترعرعتُ، ثقيلة على النطق وجرسها الموسيقي لا يوحي بمعناها... المهم ترعرعتْ، ترعرعتُ في ظل هذا النظام... [رعرعني ع الخدين شو ها الجسارة...] هأ هأ هأ، للمرة الأولى أجد هذه الكلمة معبرة. فعلا لقد ترعرعنا جميعا... النظام رعرعنا كلنا، وبينما النظام يرعرعُ أبي مات كما أخبرتكم، فترعرعتُ... هأ هأ هأ، ترعرعتُ... دون أبٍ، رعرعتني أمي، ترعرعت وأبي يترعرع في «غرفة الفيران»، عشرات الآلاف رعرعهم النظام في السجن مثل أبي، وعندما يترعرع أبوك في السجن وأنت تترعرع خارج السجن في ظل النظام الذي لم يكن هناك ظل إلا ظله، فهذا كافٍ كي تكون مجرماً حتى لو لم تكن تعرف لماذا ترعرع أبوك ومات في المعتقل.

– حسناً هذه تداعيات قد تجلب تعاطفكم وضحككم لكنها قد تفقد النص تماسكه، وتشتته بين سيرة حياتي أنا وسيرة حياة عائلتي. فلا يمكن سرد سيرة حياة العائلة من وجهة نظري والادعاء أنها كانت حقيقة. ثم إن وقت العرض قصير ومحدود.

لكن بالله تعالوا نفترض أن أبي ترعرع فقط عشر سنين في السجن، وخرج يكمل ترعرعه في ظل السجن. هل تتخيلون أن يكون مؤيداً للنظام الذي رعرعه؟ لا أتصور، لا أتصور أن يساند أبي هذا النظام لو كان حيّاً، المتناقضات تقول ذلك. المتناقضات التي قررنا استخدامها لكشف الحقيقة... لكن المتناقضات نفسها تقول إن ما من سبب يجعل زوجي يساند هذا النظام. فقد تزوجته لأنه يشبه أبي [باستعراضية شديدة] وكل فتاة بأبيها معجبة. لكني

اكتشفت حقيقته... ما علينا.

– المهم يا سيدي [تقلب الأوراق التي في يدها] يجب أن نختصر. الوقت يداهمنا وأنا ما زلت في البداية، قد أستهلك وقت العرض كله دون أن أترك لسلمى وقتها المخصص لعرض حقيقتها... [تنظر إلى ساعتها] تأخرت هذه الغبية... هذه الـ سلمى تدعي أنها تتمسك بالحقيقة، وأن الحقيقة بالنسبة لها شيء مقدس، لكن ولا مرة جاءت على الموعد إلا إذا كانت جالسة بشكل مسبق في مكان الموعد وهذا يحدث عندما يكون اللقاء في بيتها فقط...

ما هذه الترهات علينا أن نستغل الوقت بأشياء مهمة، أشياء كبيرة تهم أوسع شريحة من الجمهور. لنتحدث عن حقائق تهم الشعوب، لا مجرد حقائق عن حياتي وحياة سلمى.

إذن وبسرعة سأقول لكم: عندما أحرق البوعزيزي نفسه كنت بالكويت... حدث كبير لكنه ليس جديداً وتعرفونه بالطبع. ومثل كل الناس التي ربّتها الأنظمة وترعرعوا في ظلها، عشتُ أيامي أتابع الأخبار، بدلت صورتي إلى علم تونس في صفحتي على الفيس بوك. ووالله العظيم كنت أبكي كلما سمعت أحمد هرمنا.

كنت أسمعه لوحدي مثل المجنونة، وأبكي أبكي [هرمنا في انتظار هذه اللحظة التاريخية] وبعدين [تبكي الممثلة] وبعدين لما بن علي هرب... [باللهجة التونسية وهي تمسح دموعها] لما بن علي هرب وشفت العويني يصرخ [يا توانسة يلى عذبوكم... يا توانسة يلى قهروكم... يا شعبنا يا عظيم... يا شعبنا يا غالي... تنفس الحرية الآن... بن عليّ هرب...] ارتعشتُ، ارتعش كل جسمي. شعرت بلذة لم أشعر بها بحياتي. وصلتُ إلى ذروة لم أصل لها في كل حياتي العاطفية والزوجية. كان جسدي يرتعش مع النداء. كنت أشعر أني أعانق حبيباً فارقني سنينَ طويلة والتقينا... وأنا أرتعش قلت «يا بيبي بن علي هرب يا بيي..». وقتها اتصلت بأمي وأنا أبكي أقول لها «يا أمييييي بن علي هرب». ما حكينا... كانتْ تبكي وأنا أبكي، وبقينا هكذا لا أدري كم من الوقت... لم أعد أذكر تفاصيل ما جرى بعدها... وجدت نفسي صباحا والمنبه يرن نائمة على الديوانة... قمت أيقظت زنزون وفطّرتها، ورحنا إلى المدرسة وأنا قلبي يتقافز، فرحانة... أريد أن أرى رد فعل المعلمات على هروب بن علي... وأنا في الطريق اتصلت بسلمى وقلت لها: «ولك شفتي شفتي شلون بن علي هرب... وطلعت تربايته للشعب التونسي فاشوش... »

لم أكن أتخيل إلا أن تشاركني سلمى فرحي... كنت أتوقع أن نقفز معاً على التلفون ونحن نتبادل التهاني... لكن سلمى صدمتني... وتقمصت اللهجة المصرية ببرود وهي تقول لي:

–«ومالك فرحانة أوي كدة ياختي..». تلعثمتُ...

–«شلون يعني شو قصدك... يعني شو قصدك يعني شلون مو فرحانة فـ...»

– «يعني مبسوطة أنو بكرا يستلموا الإسلاميين بتونس... حبيبتي بكرا ما يظل مهرجان

قرطاج اللي حضرتك وحضرتي نحلم نعرض مسرحيتنا فيه. . . أو يصير لازم نعرضها بالنقاب إذا بقي قرطاج. . . »

بوهن شديد جاوبتها:

– « شلون يعني مين قال أنو هيك رح يصير. . . »

– « هي الحقيقة وبكرا تشوفي. . . »

لا يمكنكم تخيل صدمتي. . . نزل ضغطي وسكرت تلفوني. رجعت دقت لي فقفلت الموبايل كله. . .

ضيعت لي فرحتي الله ينتقم منها. معقولة هناك ناس يفكرون بهذه الطريقة. معقولة لأجل عرض مسرحي لا نشارك التوانسة فرحتهم التي أعطتنا الأمل. معقولة سلمى لا تفكر غير بحالها ومسرحيتها وهي ترى شعباً أعزل يطيح بديكتاتور ويجبره على الفرار. لا أصدق. حتى لو استلم الإسلاميون يصطفلوا. . . إذا الناس انتخبوهم يصطفلوا. . . لا أحد يقول لي إن الأكثرية ليست دائما على حق، ويحتج بقصة الأكثرية التي كانت مع لباس الملك العاري. . . لأن أكثرية الملك كانت مع الكذبة بينما أكثرية البوعزيزي صدقت الحقيقة، وصارت معه. صدقته وو. . . بن علي هرب. هذه حقيقة تريدونها أسود وأبيض تريدونها ملونة أنتم أحرار.

لا أريد أن أطيل في هذه النقطة، فما زال أمامنا فترة طويلة يجب أن نتحدث عنها كي نصل إلى متن هذا العرض. . . المهم عندما بدأت المظاهرات في مصر كنت بالكويت. . . و. . . اليمن والبحرين وليبيا وعُمان وسوريا. . . لا. .لا لن نلحق. لن أستطيع الحديث عن كل هذا ضمن عرض مسرحي. . . هناك آخرون يمكنهم الحديث عن ذلك. لست مؤرخة للربيع العربي، المطلوب هو عرض مسرحي بوقتٍ محدد وليس الحديث عن « تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطانٍ الأكبر». نعم هذه حقيقة علينا أن لا نتجاهلها. العرض لا يحتمل.

يمكن أن نبدأ بجملة [وعندما قامت الثورة في سوريا كنتُ بالكويت. . .] يجب أن نترك لآخرين أن يكتبوا عن تلك الثورات. يجب أن نتحدث عن الأشياء التي نعرفها ونترك الآخرين يتحدثون عن أشياء يعرفونها. في هذا العالم كل شخص يجيد أمراً محدداً أكثر من الآخر. علينا أن نؤمن بالاختصاص.

– نعم عندما قامت الثورة في سوريا كنت في الكويت وأخي في دبي وأمي. . . آآه أمي. . . يا الله كم أنا مشتاقة إليها. . . كم أحبها. سأحكي لكم عن أمي التي تجاهلها الكاتب وقال إنها مثل كل الأمهات. لكن أمي والله العظيم مختلفة. . . شرحتُ له ذلك وقلتُ له إن أمي كانت تظل تبكي. . . فقال إن أمه أيضا كانت دائما تبكي، لكن والله بكاء أمي مختلف، أمي إذا أحد زعجها تبكي. . . عندما كان يزعجها أبي تبكي؛ وعندما كانت تزعج أبي تبكي؛ وعندما لا ننفّذ لها ما تريد تبكي؛ وعندما تضربنا تبكي؛ وعندما تشعر

أن العالم يخذلها تبكي؛ وعندما يسافر أحد منا تبكي؛ وحينما يعود تبكي... بكاء أمي مسلسل مكسيكي...

مرة كنت راجعة من الجامعة، وعادة أول شيء أفعله عندما أدخل المنزل هو أن أبحث عنها لأقبلها أو ألقي التحية عليها حسب مزاجي؛ الذي غالباً يكون مكدراً؛ بعد معركة المواصلات التي أخوضها كي أصل البيت، وإذا كانت الفتاة فيها مسحة من الجمال مثلي لكم أن تتخيلوا حجم المضايقات التي تواجهها... لا والله ليس شرطاً... بجمال من دون جمال بشورت بحجاب... كلهن يتعرضن... الرجال يتفششون بنا. أو يمكن لأنهم عاطلون عن العمل يقطعون الوقت بمعاكستنا... وربما بسبب الكبت... لن أطيل عليكم فقد دخلت إلى غرفة أمي؛ فوجدتها جالسة أمام الكمبيوتر وتبكي بشدة وهي تكتب؛ لا يمكن لي أن أعتبر أن الأمر لا يعنيني؛ فعدا عن كون علاقتي بأمي مازالت حميمة؛ فأنتم تعرفون أن بكاء الأمهات يصيب الأولاد بشلل تام؛ وفي علاقتنا مع أمهاتنا نظل أولاد حتى لو كانت أعمارنا قد وصلت الخمسين... في البداية خطر لي أنها تكتب خاطرة وتوحدت معها؛ واقتربت منها بسرعة خاطفة وبدأت أحضنها من خلف الكرسي الذي تجلس عليه وأقبل رأسها.

« شو مام شبك مامي... »

وهذا تدليع لأمي يخص شخصيتي كفتاة حنونة تحب أمها؛ وبالطبع سيكون الرد التلقائي لأي شخص تسأله هذا السؤال الأحمق: « ما في شي ». ولا يمكن أن نتفاصح هنا ونقول أنها قالت: ليس هناك شيء يا ابنتي، لا أحد في الكون يتحدث لغة فصيحة وهو يبكي. ليس لدي غير هذا السؤال رغم معرفتي أنه أحمق. بعد لحظات من محاولة التخفيف عنها ومسح دموعها، جلست على ركبتيّ أمامها وبدأت أمسح دموعها وأحضنها وهي في كرسيها:

-« مامي الله يوفقك لشو تبكي. ما تبكي حبيبتي الله يخليك.. »

- لماذا كانت أمي تبكي حينها؟ [تفكر]... [تهز رأسها] حتى لو كانت ذاكرتي فولاذية لا يمكن لي أن أتذكر الآن؛ فأمي تبكي دائما وعليّ تذكّر كل تفاصيل حياتي إذا أردت تذكّر لماذا كانت أمي تبكي في كل مرة... يا الله ما أحلاها أمي..

أمي ما زالت صبية وهي تكبرني فقط بعشر سنوات كما كانت تصر ضاحكة لمن يسألني إن كانت أختي. تزوجت باكراً؛ وخلفت من أبي أنا وأخي الذي أكبره بسنتين. عشت معها وأبي 12 سنة قبل أن يأخذوه لتربيته ويموت من شدة التربية.

كانت أمي تضحك وتفرح عندما يحسبنا الناس أختين. لم تكن تخفي سعادتها. كنا نسخر من الأمر. لكن وجهها كان يزداد إشراقاً. هذا يعني أنها ذات وجه مشرق. نعم أمي جميلة جداً، وجه أبيض مدور وشعر خرنوبي ناعم وعيون خضراء ورثتها من جدتها الأرمنية، ولم تكن قصيرة، لذلك لم تكن تلبس أحذية بكعب عال إلا نادراً، لم تكن بحاجة لتزوير الحقيقة وتبدو أطول مما هي في الواقع، كما تفعل الكثير من النساء، ليواجهن « حقيقة » طولهن. كانت تحب المشي كثيراً. وكثيراً ما رافقتها في عادتها هذه، رغم أني لا

أحب المشي مثلها، إلا أنه في بلادنا لا يفضل أن تمشي إمرأة لوحدها في الشوارع وخصوصاً إذا كانت غير مزدحمة أو على أطراف المدينة كالشوارع التي تحب أن تمشي فيها أمي. سيعتبرها «العاطلون» فريسة سهلة...

أمي درست للبكالوريا وعندما جاءها الفارس على حصانه الأبيض، الذي كان أبي، تركت الدراسة رغم أنها سجلت حقوق في جامعة حلب، وتوظفت، في المؤسسة الاستهلاكية قبل أن يكتشفوا أن أبي قليل تربية. وإلا لما حلمت بالوظيفة مثلي.

نسيت البكاء الذي هو محور حكايتي عن أمي... لم تكن أمي تبكي على ضياع فلسطين أو بسبب العمليات الإرهابية التي تقتل الناس في الشوارع أو في بيوتهم أو في وسائل النقل، ليس لأن قلب أمي قاس، بل لأن أشياء مثل هذه لا يبكي أحد بسببها إلا أصحاب العلاقة، أهل الميتين وأقرباؤهم وأحباؤهم، أما هؤلاء الذين يدّعون أنهم يتألمون بسبب ذلك، فهؤلاء متباكون، وأمي ليست متباكية، أمي تبكي بحرقة شديدة وتفيض دموعها بصمت. عندما تشاهد صورها القديمة لوحدها تبكي، وعندما تفتش في أوراقها القديمة ورسائلها تبكي، تظل أحيانا لساعات في غرفتها وأعرف أنها تقرأ رسائل أبي لها، أو تلك القصائد التي قال لها إنها عنها أو مهداة لها. مات أبي ولم يطبع ديواناً وبقيت أوراقه عند أمي، وبالطبع لم يكن مسموحاً لنا أن نطبع قصائد شخص قليل تربية ومات قبل أن يكمل تربيته ويتخرج. هذا ما أورثه أبي لأمي. أنا وأخي وكومة أوراق وصور وبيت أجار قديم.

لا أتدخل في حياة أمي أو خصوصياتها، لكني لم أتعود على بكائها أبداً، ولأنها تريد أن تبكي بصمت ولوحدها ولكي لا تسمع سؤالي الغبي المتكرر: «شبك مامي؟». كانت تخفي دموعها عني. أحياناً تلبس نظارتها الطبية لكن مع ذلك تسيل دموعها من تحت النظارة. أبي لم يكن يهتم لبكاء أمي. ربما يعتقد أن بكاء النساء أمرا طبيعيا مثله مثل تدخين السكائر. الرجال يهتمون في بداية حياتهم ببكاء صديقاتهم أو حبيباتهم لكن تلك النسوة لو أصبحن زوجاتهم لما اهتموا ببكائهن. هذا خبرته بنفسي، فقد ورثت أشياء كثيرة من أمي منها دمعتها، وإن لم يكن مثلها، فبكائي لا يشكل 10 بالمئة من بكاء أمي إلا أني أبكي أيضاً.

الكاتب المتعجرف الذي حاولت إقناعه بأن يدخل أمي إلى النص كجزءٍ من حقيقتي لأنها أم مختلفة وتبكي. قال لي: أنت تعتقدين هذا. الطبيعي أن تبكي النساء. ولوى بوزه [تقلده]«صديقي الذي تزوج قبلي قال لي مرة: لا تتزوج إمرأة لا تعرف البكاء.»

أنا أعرف البكاء، هذه حقيقة يعرفها كل من حولي. مرة كنت مع أول شخص أحببته في حديقة عامة وجلسنا على أحد الكراسي، وقتها كنا خارجين من الجامعة وعزمني إلى الحديقة لأنه مفلس مثلي. ما إن أشعلت سيكارة حتى وقف كالممسوس، مشدوهاً:

– «ولك شو شو شعلت سيكارة... لك نحن بحديقة عامة...»

وحين أبديت استغرابي من تصرفه وأنه يعرف أني أدخن وسبق أن دخنا في محلات عامة... بدا كمن لا يريد أن يسمع ويلقي أوامره بأن أطفئي السيكارة. حين لم أرد عليه أخذها من يدي ودعسها بكعب حذائه. لم أتحرك من مكاني لكن دموعي تحركت من عينيّ إلى خدودي... جلس أمامي يراضيني مبدياً أسفه على تصرفه. شتم العالم والبلد والناس التي لا تجعل المرء يعيش حراً حسب ما يريد. لم تقنعني مبرراته... وعندما عدت حكيت لأمي ما حدث، كنتُ لا أخفي عنها شيئاً، إذا أحد «لطشني» في الشارع أحكي لها، أحكي لها الحقيقة دائماً... كان رأيها أني لو كنت زوجته لعفسني كالسيكارة ولن يأبه لدموعي... بكت أمي يومها.. حضنتها ومازحتها قائلة بأني أنا التي يجب أن تبكي وليس هي. لكنها كانت تبكي من أجلنا أكثر مما نبكي على أنفسنا أو من أنفسنا. طبعا لم أقتنع بكلام أمي؛ فقد تزوجته لكن منذ تلك السيكارة تركت التدخين. بعد زواجي منه أضفت سبباً جديداً لبكاء أمي.

الكاتب كتب عنه أشياء كثيرة في النص، متذرعاً بأنه يجب أن تكون علاقتي الزوجية أحد محاور العرض. لكنني سأتجاهل ذلك وأتجاهل كل ما كتبه عن علاقتنا. لا أريد له أن يحضر في عرضٍ أحبه ومتحمسة له لأن وجوده في النص سيحبطني. سأتجاهله في العرض كما غيبته من حياتي. لا أريد أن أنتحر مثل أمل... أمل التي حذفها الكاتب بحجة أن هذه تفاصيل، سأعيدها إلى النص غصباً عنه... أمل صديقتي. تعرفتُ عليها عن طريق سلمى وكانت صديقتها المقربة. تزوجتْ من تحبه؛ فاكتشفته على حقيقته كما يحدث بين كل الأزواج. عانت من الحقيقة التي اكتشفتها... وانتحرت. نعم انتحرت. «هي هي الحقيقة اللي بدكن ياها؟» [تكررها] انتحرت أمل بسبب الحقيقة. شرفوا هذي هي الحقيقة... قصة أمل طويلة وموجعة، كانت أكثر واحدة عرفتها بحياتي منسجمة مع نفسها، لا تفعل إلا ما تؤمن به حتى لو كان ذلك يضايق الجميع، تأقلمنا مع أمل وكانت هي الحقيقة التي تصفعنا دائما، لا أحد يحب حقيقته بعيون الآخرين. لذلك قال ماركس «الآخرون هم الجحيم».

تعاملنا مع أمل على أنها هكذا ولا أحد يؤاخذها!. انظروا كيف قلبنا المفاهيم، لأنها تقول الحقيقة صرنا نتعامل معها كمجنونة... الحقيقة إنها فعلا مجنونة... مجنونة فعلاً. لو لم تكن مجنونة لما انتحرت بسبب رجل... لا يوجد رجل في العالم يستحق أن تنتحر امرأة لأجله أو بسببه. انتحرت لأنها كانت مخلصة للحقيقة... أردت أن أذكرها فقط لأبين لكم أن الحقيقة تكون قاتلة في كثير من الأحيان ومأساوية... ما فائدة الحقيقة حين تكون قاتلة؟

–نسينا المسرحية والعرض والنص وسلمى... ألله لا يوفقك يا سلمى على التأخير إنشاء الله تصدمك شاحنة وتفرمك فرم وتصير أكبر نتفة منك بحجم ذرة الغبار التي نراها تتطاير على أشعة الشمس وهي تدخل من الشبابيك.

كانت سلمى تضحك حينما تسمعني أدعي عليها هكذا. مرة كنا نمشي مع بعض وكنا

نريد قطع الشارع واقتربت شاحنة شاحنة لكن المسافة كانت كافية لنعبر. قلت لها: «يالله نعبر»... وقفت وقالت: «لا والله ما حزرتِ تريدين أن يتحقق دعاءك علي..»

[تتجه إلى الطاولة وتقلب الأوراق..] والله شكلنا لن نلحق لا عرض ولا طول... حتى الآن لا يوجد أي فكرة مكتملة... ومساحة الارتجال التي تركها الكاتب لنا ذهبت في الحديث عن حقيقة حياتي... أين الصفحة المكتوب عليها... [وعندما قامت الثورة السورية كنت بالكويت...] [تبحث ولا تجدها]

– المهم يا سيدي نرجع لموضوعنا... يوم 15 آذار [المصريون والمغاربة يقولون مارس] عدتُ مبكراً من المدرسة. يوم عادي مثل كل الأيام... صباحه يشبه كل الصباحات... كل شيء في مكانه... ومثل كل مرة. جليت الجليات البايتة من أمس... نفضت غبار الوقت... ورتبت وجه البيت... ومشطت شعره... كانت الدنيا صارت عصراً تقريباً عندما أنهيت شغل المنزل. شغلت التلفزيون وأنا واقفة لأشوف «شو في ما في بها الدنيا»... وإذ بأحد القنوات المصرية تعرض خبرا ولقطات عن سوريين يتظاهرون أمام السفارة السورية في القاهرة. كان أحد المتظاهرين يرفع لافتة تطالب... تطالبه... تطالبه بالرحيل. ما صدقت. قلبي صار يدق ورجليّ لم تعد تحملني من كثر ما صرت أرجف... آآآه اليوم 15 آذار... أي والله كيف نسيتِ يا غبية... قعدت على الكرسي وصرت أقلب كل القنوات. لا شيء عن سوريا... رحت إلى كمبيوتري وأنا أفكر أين أجد خبراً عن سوريا. فتحت غوغل وكتبت مظاهرات في سوريا... ما صدقت... ما صدقت لما طلع لي خبر عن مظاهرة بقلب الشام... لما شفت فيديو المظاهرة بالحميدية صرت نط: «يس يس يس طلعوا». جاءت بنتي تركض: «شو ماما شو ماما..». قلت لها: «تفرجي حبيبي، شوفي شوفي.». كبرت عرض الفيديو على حجم الشاشة. عرضت المظاهرة لزنزون. قالت بجدية: «يعني بدن يسقطوا النظام ماما؟» حملتها بين يدي رغم ثقلها وشلفتها للسقف، وأنا أقول: «أي يا ماما بدن يسقطوه.» وأشلفها وهي تصيح نزليني... نزليني وأشلفها وأعيد: «والله يا ماما بدن يسقطوه..». لما حسيت إنها ستبكي نزلتها وحضنتها... «والله يا أمي رح يسقطوه». هدأت بحضني. قلت لها: «مانك جوعانة حبيبي». قالت بعد أن استعادت قدرتها على المشاكسة وابتعدت عن حضني: «بدن يسقطوه ليش تشلفيني لفوق. أنا زعلانة منك..». وراحت غرفة نومنا... لحقتها وصرت أنكشها: «لا زنزون... لا حبيبي ما وقت تزعلي. يالله قومي نحط أكل ونطلع نسقط النظام.». نسيت حردها مني وقالت: «وين». قلت لها قومي نأكل وبعدين سأقول لك. أكلنا وشغلت الفيديو من جديد، وكتبت لها على كرتونة «الشعب يريد إسقاط النظام» قلت لها احمليها وأنا وراءك. صرنا نهتف أنا وهي بالبيت «الشعب يريد إسقاط النظام». خلصنا مظاهرة وراحت زنزون تكتب وظائفها وأنا بقيت أشاهد المظاهرة. ظليت عيد فيها وأبكي... شيء لا يوصف. والله العظيم حتى الآن لما أتذكر تلك اللحظة قلبي يوقف.

خبرت سلمى أنيسة روحي. وقتها كانت بالشام. من شهر وهي بالشام في دورة إخراج أفلام وثائقية؛ لتؤرخ الحقائق. كما كانت تقول ساخرة. قلت لها: «شو سلوم شلونك وشلون الشام معك؟» [وهذا اسم الدلع الذي أناديها به حينما أكون راضية عنها، أو يكون مزاجي بالعلالي.].

قالت لي: «والله اليوم خالتي... خالتي اللي بالحميدية عاملة مجدرة تجنن وأكلنا لشبعنا كانوا كل الشباب هنيك...»

قلت لها: «ومن إيمتى بعدي عندك خالة.»

ردت: «ولك شبك خالتي اللي بالحميدية... خالتي هتاف افتحي اليوتيوب تلاقي فيديو عن طبخها.»

كان صوتها يرقص هكذا أحسست، نادراً ما تكون سلمى فرحة ويتسرب هذا الفرح عبر صوتها. لكنني لم أفهم. قلت لها: «ولك مين خالتك هتاف؟». ردت سلمى بضحك وتأفف: «إنت مخك مسكر. اليوم عيد ميلاد ابنها وليد... اليوم 15 آذااااار... وطلعنا... قصدي رحنا لعندها...». ضحكت ضحكت. قلت لها: «آآآه خالتك بالحميدية... كنتِ هنيك وليك سلوم... يا ألله يا سلوم نيالك، يا ألله لو كنت معكم بعيد الميلاد هذا..» وضحكت بصوت عالٍ كما لم أضحك في حياتي. قالت لي: «باي باي إنت شكلك سكرانة ورح تفضحينا.»

سلمى درست صحافة، لم تتوظف، تكتب هنا وهناك في صحف الخليج والصحف اللبنانية، ومواقع إلكترونية. اشتغلت في أكثر من مكان وتركت. دائما دائما صاحب العمل «يحط عينه عليها..». كانت سلمى جميلة. لا كانت وما زالت جميلة. أصلا يشغلونها على أمل «تطبيقها». اشتغلت في أماكن لا علاقة قربى ولا نسب تربطها مع الصحافة أو الكتابة. مشكلتها تبدأ عندما تتكشف نوايا صاحب العمل على حقيقتها، تترك الشغل. هذه حقيقية نعرفها أنا وسلمى، لكنها كانت ترد على من يسألها لماذا تركتْ الشغل بأنه مرهق ولم يناسبها. كنت أعارضها وأقول لها: «يا بنتي طنشي». وهي تصر على أنها لا تستطيع أن تبقى في مكان تحسّ أنها تغتصب فيه كل لحظة.

– يجب أن نختصر. العرض يجب أن يكون قصيرا ومشدوداً، لا نريد تفاصيل مملة. صحيح أن الكاتب ترك لنا مساحة للتحدث عن حياتنا الحقيقية، لكن ذلك لا يعني أن نضيع الخيط الأساسي للعرض. يجب أن نعرض «متناقضات»، كي تُبنى الحقيقة. ابتعدنا عن المتناقضات ومشينا في خط مستقيم... لأ؛ مشيت وليس مشينا. لأنه لا يوجد أحد غيري في العرض حتى الآن. الحديث كله عني. عن حياتي الحقيقية. سلمى حتى الآن مجرد ديكور لعرض حقيقتي..

–المهم يا سيدي بعدما بدأت الثورة واشتد عودها؛ بدأتُ «أندس» يوم وراء يوم. أعودُ من المدرسة أنا وبنتي نأكل بسرعة... هي تنام وأنا «أندس» في صفحات الفيس بوك...

تطوعت بإحدى الشبكات الاخبارية... كانت مهمتي نشر فيديوهات مع تعليقات أو توضيحات حولها.

يا ألله كم كانت أيام مليئة بالحماس والفرح والأمل، أشعر أنها لن تتكرر... لكن طالت القصة وكثر الموت... وكثر «العلاكون». وفاحوا علينا من كل مكان. من الشاشات من الصحف من الفيس بوك. مرة كتب صديقي على صفحته «هربنا من الانتهازيين إلى الثورة فوجدناهم قد سبقونا» أذكر حينها كتبت له «يجب أن نفرح، فالانتهازيون يحسبونها صح. هذا مؤشر على أن الثورة ستنتصر».

صرت أسمع كل يوم ما يسم البدن، وإذا لم ينسم بدني من التلفزيون فالفيس بوك يتكفل بالأمر. بالبداية كنت أدخل وأناقش وأعلق على صفحات أصدقائي وشبكات الأخبار وصفحات ناس لا أعرفهم... كنت حتى وأنا أنتقد أحاول أن أكون «حنونة» لكن طلعوا مؤخرا بنغمة «اللي برا ما من حقوا يحكي».

من بداية الثورة اشتريت مفكرة وصرت أسجل فيه أسماء الشهداء وفي أي مدينة قتلوا... زادت أعدادهم. وقلبي صار يجف من الدم كل ما يمر يوم جديد ويسقط ضحايا جدد، فلم أعد أستطيع فتح الدفتر لأني كنت أبكي على كل اسم أسجله. ولولا زنزون ما بقي بي قدرة حتى على أكل لقمة. صرت أمشي أجر نفسي جراً، كأني أحمل جثتي، أصبحت عيوني زايغة وساهية كأني سأنام الآن. أشرد عن الذين يتحدثون معي. كانت الكلمة التي أرددها: «صح. أي صح». كي أشعر محدثي أو محدثتي أني معه.

مرة كانت زميلتي بالمدرسة تحكي معي وأنا أرد عليها بمفردتي الوحيدة. «صح. أي صح». سألتني إن كنت سآتي مساءً إلى قهوة [اسم قهوة] حيث نلتقي أسبوعياً قلت لها: «صح. أي صح». هزتني من كتفي وهي تقول: «شفيك. إنت مانك هنا» عدت من شرودي بتثاقل قلت لها: «ما في شي.». فأعادت علي السؤال. قلت لها: لا... تعبانة. تمتمت «الله يعينكم».

أصبحتُ أعود إلى البيت، وأنا مشلولة من العجز الذي أنا فيه. أفتح التلفزيون لأرى حارتنا يتردد اسمها على كل شاشات العالم. لقد جعلنا الموت مشهورين، ليس هناك أحد في العالم لم يسمع بحارتنا. كانت مسرحاً حقيقياً للأحداث. ظلت فترة طويلة مسرحاً يبث بشكل مباشر للعالم أغانيه وأهازيجه. يا ألله الثورة السورية كم مليئة بالمتناقضات، موت ودبكة، تشييع وأغاني، قناصة ومظاهرات... قصف وسخرية... رآنا العالم ونحن نشيع قتلانا بالغناء. [سكابا يا دموع العين سكابا... على شهدا سوريا وشبابا]. غنينا حتى في المساجد...

أصبحت حارتنا مكاناً تنتشر منه رائحة الحرية والموت. لكن ريحة الموت كانت تصل لعندي وكنت أختنق. لم يعد بي قدرة على متابعة الأخبار، وحتى لا تراها زنزون أيضاً. كنت أتلذذ بتعذيب نفسي وأشاهد كل الفيديوهات التي عليها تحذيرات لأصحاب القلوب

الضعيفة. بعد أن تنام.

من كم يوم زنزون لم ترض أن تدخل غرفة نومنا وبدأت تبكي... سألتها عن السبب. قالت: «شفت الأسد بالعتمة متخبي يريد ياكلني!».

ضممتها، وأخذتها إلى الغرفة ونمت بجانبها. قلت لها ويدي تلامس وجهها: «مامي ما تخافي ما بيقدر يدخل بيتنا... لأن لا أحد يحبه هنا..». بقيتْ ترتجف إلى أن نامتْ.

– خلص. آمنت أن هناك حقيقة. على الأقل الموت أصبح حقيقة يومية في حياتي. كما قلت لكم الحقائق دائماً موجعة. وعليّ مواجهة الحقيقة والوجع يومياً. لا يمكن لي أن أقول هنا: ما فائدة الحقيقة إذا كانت موجعة أو قاتلة. هناك حقائق مفروضة علينا لا نستطيع الهروب منها.

هذي هي الحقيقة، هذي أنا. سلمى صارت «تاكل هوا» وتقول لي: «إصحي إنت ما تعرفي الحقيقة على الأرض. ما يعرض على الشاشات ليس الحقيقة، هناك حقيقة ثانية غير التي تشاهدينها. القصة ما عادت إسقاط النظام. ألله لا يرد النظام. لكن البلد تتدمر... هناك أناس آخرون يقتلون، غير الذين ترينهم على الشاشات. غير الذين تعرفينهم. أنا أعرف أناساً آخرين قتلوا لم يشيعهم أحد، حتى النظام جعل موتهم يمر بصمت، يُخرج الأموات من حساباته ليحتفظ بتأييد الأحياء. هناك ناس آخرون يخطفون ويقتلون... الكل يريد تدمير البلد ولن يرتاحوا إلا يخربوها ويقعدوا على تلتها...».

يا سلمى ماذا بقي من تلتها ليقعد عليها أي أحد. حتى التلة سرقوا ترابها... آخ يا أمي آخ...

[ترمي الأوراق على أرض المسرح.] يلعن أبو المسرح ما عاد أريد لا مسرح ولا «ضراب السخن». سلمى ستسم لي بدني برواياتها للأحداث التي تصر على أنها الحقيقة ومتمسكة بها... هذي الحقيقة يا سلمى صارت أسود وأبيض مثل ما تريدين... الآن صرتِ تقولين إنها ملونة؟ وهذا الكاتب المتذاكي مصرّ على عرض جوانب الحقيقة [تقلده بسخرية] جوانب الحقيقة... أي حط جوانب الحقيقة بطيـ.. ك...

ماذا بقي من متناقضات لم يقصفونا بها. كل هذه المتناقضات وما بيّنت الحقيقة... سأضع كل هذه المتناقضات بكيس وأعطيها لسلمى تطبخها مجدرة... نسيتِ يا سلمى!... عندما كنتِ فرحانة بالمجدرة بالحميدية... وصوتك يرقص!... الآن صار سوريا ستخرب وتتدمر... الآن ما عادت الحقيقة أبيض وأسود... الدنيا كلها صارت أسود وأبيض... أيامنا كلها صارت أسود وأبيض. بقيت الصور تخرج من سوريا ملونة... الشهداء يشيعونهم بأعلام ملونة، وأرواحهم تصعد للسماء ملونة.

زمان كانت الصور أسود وأبيض لكن حياتنا كانت ملونة... لا... حياتنا ما كانت ملونة كانت سوداء. نعم حياتنا كانت سوداء فقط لكن كنا مجبرين نشوفها بالألوان. كان الخوف يلوّن حياتنا لكنها كانت سوداء مرسومة بدم جاف وصراخ مكتوم... صور أبي

وأمي أغلبها أسود وأبيض وإذا كانت ملونة تكون باهتة... بآخر سفرة رفعتها كلها على الكمبيوتر. اشتريت «سكنر» من الكويت وأخذته معي. وقتها قلت لأمي وأنا أضحك سأرفع الصور وأخزنها عندي، ممكن يحترق البيت سأحتفظ بها. أمي قالت لي: «الناس تكبر ويكبر معها عقلها إلا أنت كل ما كبرتِ يخف عقلك». وأنا أشاكسها وأرد: «ليش يا أمي يعني عود كبريت ممكن يحرق البيت. ماس كهرباء..». تنهرني بشدة: «اسكتي... اسكتي... لك لا تفاولي علينا برضاي عليك...».

لا أحد رمى عود كبريت ولا صار ماس كهربائي... لكن بيتنا تهدم. بيتنا قصف مثل بيوت كثيرة... أمي تركت البيت وراحت على حلب عند خوالها... [يارايحين ع حلب حبي معاكم راح] وخالتي أصيبت ونقلوها إلى لبنان... آخ يااااا أمي...

– والله... ما بقي بي حيل... لأظل واقفة وأكمل لكم العرض. المتناقضات لا تنتهي... الحقيقة ستظل تبنى. وسلمى لن تأتي، فهي لم تغادر البلد مثلي... و... عليّ إنهاء العرض.

– (بس خلوني قبل ما أمشي أحكي بالعامية. بدي فش قلبي... من أول الثورة لهلأ وأنا حاسة بالذنب لأني برا البلد... ومتل اللي عاملتلها عملة... والغانم يهتّني أني برا... وأنو اللي برا ما بيطلعلن يحكوا... ولازم يخرسوا... عم بسأل حالي سؤال... أنو أنا ليش برا أصلا؟ والله ماني من هواة السياحة والسفر... ورجعت بالذاكرة أكثر من عشر سنين لورا... كان صرلي تمن سنين متخرجة وقاعدة بلا شغل... وصار برقبتي بنتي لازم ربيها... ولا حدا يسألني وين أبوها لأني ما بحب اتذكرها الشي. وأم راتبها يا دوب يكفيها حق أدوية... وأخ مسافر ومن كتر ما يشكي كنا نفكر نبعت له مصاري على دبي... ما ضل محافظة ما نقلت نفوسي عليا مشان أتعين بالتدريس... بعد ما قالوا أنهم عفوا عن قليلي التربية اللي ماتوا وأولادهم... حتى الرقة... ما سلمت مني... وقتا بعد سفرة مدري كم ساعة... وصلت. ووقت تقديم الأوراق... طلع ما معي كشف علامات... وما بعرف لشو لازم مع أنو معدلي جيد جدا ومعي وثيقة التخرج... طبعا ما قبلو وراقي... ورجعت بخفي حنين... قلت بقلبي يالله يا بنت كسبتي شوفة نهر الفرات... وهيك لحتى الله فرجها وبعد ما بوسنا ولحسنا ألف إيد أخدت وكالة بضيعة تبعد عن وسط المدينة عشرات الكيلومترات... يعني سفرة الصبح وسفرة الضهر... وطبعا السرفيس بنزلني عمفرق الضيعة... ولازم أركب عالموتور لحتى أوصل عالضيعة... وشو بدي أحكيلكن عن الفقر اللي بهالضيعة.. والله العظيم ما بنسى... وقت كان التلج نازل وكان عندي واحد من طلابي بوطو مفتوح وبلا جرابات... أصابعو مورمة من البرد وطالعة برا البوط. لما أرجع ما أوصل للعصر... آكل لقمة وحط راسي ونام... ما أقدر حتى أقعد شوي مع بنتي. وبس أصحى بللش ركض من درس لدرس... وبالأخير تلت رباع الدروس ما أسخى آخد أجرتها... لأنو كلن ولاد الحارة... المهم... مالنا بالطويلة... منجي عالأهم... الراتب... الراتب العظيم... اللي مقدرلو ينصرف

وهوي لسه بخزنة المحاسب... فواتير المي والكهربا والتلفون... والصيدلية... اللي كتر ألف خيرها... طول الشهر عم نسحب أدوية من عندها... والسمنة والزيت والرز والسكر... والمونة... وأجرة الطريق... والمرض والأحداث المفاجئة... لا أكلنا لسه ولا شربنا... ولا اشترينا... كنزة... ولا منسترجي أصلا نفكر برفاهية... أقصى رفاهية... أنو كل شي أربع سنين ندبر لنا شي شاليه معفن ونلم هالعيلة ونقضيلنا يومين عالبحر... طبعا نصن يمضو خناق من كتر ما الكل آكل هوا وعايف حالو. شو الحل؟ بدي حل جذري. كان الحل هوي السفر بعد سنتين من الشحططة بها الوظيفة... قدمت عالإمارات... واستلفت تلاتين ألف طلبن المكتب قام طلع المكتب نصاب... بس لحسن الحظ كان آخر يوم بالتقديم عالكويت قدمت... انقبلت... خلال شهر صرت بالكويت... يوم السفر شلعت بنتي من حضني. تركتها نايمة لوحدها... وسافرت... شايلة معي الكل... شايلة معي كل شي... أسبوع دمعتي ما نشفت وأنا أتخيل موقف بنتي لما تفتح عيونها الصبح وما تلاقيني... وهيي مجرد طفلة صغيرة... كيف رح تفهم أني أنا الأم الحنونة... قدرت دوس عقلبي وعأمومتي. وأتركها. كيف الحياة جبرتني... أني اقدر أعمل هالشي وأتخذ هالقرار... إجيت وأنا راسمة أحلام وردية... الدينار الكويتي بيعمل منيح بالسوري... بس طلع ما بضل معك ولا دينار تحولو للسوري... وطلعت الأحلام رمادية وكالحة أكتر مما توقعت... ومع كل هاد... قدرت أني انجز شي... قدرت رجع بنتي لحضني... أنزل ع سوريا... وإذا شارية شي جديد... ما أرضى أنزل فيه مشان ما حدا يتحسس... وما حدا يفكر أني صرت متل هدول اللي بروحو عالخليج... بيرجعو مبْيَضّين... ومشنشلين بالدهب... وريحة العطور بتسبقن... إلا أنا... اسوديت من الشموس... ما عندي ولا نص غرام دهب... يمكن صرت أسمن شوي... بس والله مو من الدلال... لاء من الفعي... يعني من كتر ما بحكي وبشرح للطلاب صرت استهلك اكتر... خلصو أول خمس سنين بالغربة وأنا عم وفي ديوني... برقّع من هون... بتنفتئ من هون... وكل ما صمدتلي كم ليرة بقول بركي بقدر سجل عبيت... بتكون نطت الأسعار ودوبلت... بصرفن بسوريا... وبخلص... طبعا نسيت قلكن انو أنا كل سنة كنت أنزل فيها كون مقررة انو ما بدي أرجع عالكويت... بس ها الشهرين اللي قضيهم بسوريا تثنيني عن قراري وما بصدق إيمتى أرجع الكويت... وهيك مروا أول خمس سنين... كانوا أصعب خمس سنين بحياتي الراحت واللي جاية... وكل ما مرت سنة بحس حالي بخسر... لا مو سنة يوم عن يوم بحس بالخسارة... بخسر... بس ما عم بقدر أفهم شو خسارتي... وهالشي كان يحرق قلبي... لما بلشت الثورة... وعيت... اللي كان يحرق قلبي... واللي كنت حس إني عم أخسرو..هوي بلدي... يوم عن يوم... كنت عم بعد عنها... تماما متل ما شلت بنتي من حضني... بحب بلدي ومتعلقة فيها بس ما بعرف ليش ما كانت تحضني... ليش تبعدني... وبعد وقت قصير من عمر الثورة... ولما كبرت حارتي فجأة... صرت بدي أحكي... بدي قول رأيي... بحب

سوريا... وبحب كل السوريين... وبيطلعلي احكي... بيطلعلي قول أنو أهل حارتي اللي ربوني مانن إرهابيين ولا عصابات مسلحة... أنا بعرفن منيح... بيطلعلي أحكي لما خالتي بتنصاب برصاصتين... ولما بيتنا بياكل قذيفة... ولما عمي اللي عمرو خمسة وسبعين سنة... بيبكي من الخوف... ما حدا بحب سوريا أكتر مني... وأنا متلها مجروحة وموجوعة... بدور عأسماء أهلي بين أسماء الشهدا لحتى أعرف أحياء أو أموات... بفلّي الصور تفلاية لميز وجوه الشهدا إذا بعرفها... بتصبّح باستشهاد جار... وبتمسى باستشهاد صديق... ولاد حارتنا اللي كنت مر من جنبن وأتحركش فين... راحو... ماتو... هيك... بهالبساطه... ما عاد يكبرو... بدن يمسحو حارتنا؟ طيب وأنا لوين بدي أجي؟ وين بدي أسكن لما رح أرجع؟ وكيف بدي عيش من دون أهل وجيران؟)[1] ومن دون سلمى...

سلمى ماتت. [تجلس الممثلة على الأرض تستند على الكرسي... تبكي وتتابع] يمكن كانت تهرّب أدوية للجرحى في المشافي الميدانية وقتلها رصاص القناصة... يمكن كانت تهرّب خبز ومي للناس المحاصرين وتمزقت بقذيفة. يمكن اعتقلوها وماتت وهم يربّونها. سلمى لن تأتي، لم يعد أحد من الموت. أنا أعرف هذا من البداية والكاتب يعرف... لكن قلنا يجب أن تعرفوا «حقيقة» سلمى. شفتوا كم فيها تناقضات. هذه حقيقة سلمى. مثلنا تحب سوريا. والحب يقتل والحقيقة تقتل... وموت سلمى كسر ظهري. صرت يتيمة. يتيمة من دونك يا سلوووم... [تبدو الممثلة كمجنونة تقوم إلى حقيبتها تخرج الموبايل وتفتش في الأسماء] والله لأخبرها يمكن ترد علي... يمكن ما ماتت... يمكن دفنوا موبايلها معها... [تضع الموبايل على أذنها... ثم ترميه وتعود للبكاء في أرض المسرح]

ياااااا سلوووووم ولك ردي عليييييييييي...

(1) النص بين قوسين بالتصرف عن شهادة لـ إيمان جانسيز منشورة على صفحتها الشخصية في الفيس بوك

اوراق الشعر

الحبل

هاشم شفيق

الحبلُ يساعدنا
إذ نرمي الدلوَ الى البئرِ
لننزحَ نوراً للأبديّةِ
والحبلُ يضيءُ مسالكنا
حين نكون بهاوية
والحبلُ يمدّ الينا كلّ حبائله
كي ننجو من فخٍّ وشراكٍ
تنصبه الأقدارُ لنا...
في صغري
كنت العبُ حبلاً
مع بنت الجيرانِ ،
رأيتُ حواةً يمشونَ على الحبلِ
رأيتُ عصافيرَ
تنطّ وترقصُ فوق حبال المنزل في بغدادْ

ورأيتُ حبالاً بيد الجزارينَ
يجرّون ضحايا
ورأيتُ المغدورينَ
وألسنة المشنوقينَ
بحبل القاتل والجلادْ .

2005 – 5 – 24

المدفأة

في بيتٍ مطليّ بالكلس الأبيضِ ،
في بيتٍ يدخله البردُ
بلا استئذانٍ ،
منتشراً في الغرفاتِ
إنتصبتْ مدفأة البيتِ « علاء الدين »
تدفئُ أحجار البيت
وتلعقُ ظلا مبترداً
في الباب
ونافذة الغرفة
وتحيط الأرضيّةَ
والسقف الطينيَّ
بقبلتها اللهبيّة .

2005 – 5 – 25

بذرة

أحياناً
الصمتُ يدوّي عالياً
بفعل تفتّح بذرة
أو بفعل سقوطها
من أعالي الغابةِ

الى الأرض.

2005 – 5 – 26

العتبة

إنها العَتبَةْ
نفسها جلستْ بالحصى والرمال
وبانت مرقشة بهواء الطفولةِ ،
مثقوبةً بالظلالِ الوفيرةِ في الطرقاتِ
هي العتبةْ
نفسها
حينما حضنتْ نَفَسي والخطى
واللهاثَ القديمَ
ولمّتْ خصالي...
المعاركَ في لعبةٍ من كراتٍ زجاجيّةٍ
ونثار الشتائم بين الزقاق
ولكنني أتساءلُ:
أين الحوائطُ
والبابُ والنافذةْ
إنها العتبةْ
ليس إلا
بلا منزلٍ وروائحَ
أو ذكرياتْ.

الأريكة

سأودّع هذي الأريكةَ
نحو نهايتها
فالقماشُ تهرّأ
والذكرياتُ اختفتْ
في شقوق النسيج
ففي كلّ منفسحٍ من ملاستها

لي حكايا
ولي نَفسٌ في البطانةِ ،
رائحةُ النوم فيها
وفيها غضونُ جبيني،
على مسندٍ من مساندها المخمليّةِ
فيها بقايا نعاسٍ
تخمَّرَ بين الخيوطِ
ونامتْ هنالكَ بعض الطباعْ
سأودّعُ هذي الأريكةَ
نحو الغياب
أودّعُها
وهي مبقعةٌ بالشرابِ
وباللمساتِ
وآهاتِ فنّ الجماعْ.

2005 – 5 – 26

البراغي

البراغي
أصادفها في الطريقِ ،
مبعثرةً
في الشوارع والأرصفة
أراها مشحمّةً بالدهانِ
فأركلها بحذائي
لكيما أحرّكها عن مكانتها
لازيحَ لها حيزاً
ثانياً في زوايا الرصيف
وذات صباح
جمعتُ جميع البراغي
لأنّ لديَّ بلاداً مفككة
وحقولاً مهددة بدخان الغزاة

لديّ تخوم معرضة للبلى
وهبوب الفراغِ .

العلم

في المعسكرات الصحراوية
وقت التعداد الصباحيّ،
حيث البردُ يلعقُ الرقابَ
والرملُ ينغرزُ في الجلدِ ،
علمنا الملوّثُ بالحروبِ ،
علمنا الذي يجترح المهالكَ
ويخترعُ النهايةَ للفتى،
علمُ العساكر والإنقلابات،
علمُ الجثث الملفوفة بالأحمر والأسود،
علمُ الحصار المحاصرِ بالتسويات والمؤمرات،
العلمُ المرفرفُ في الفساد والذلّ والعار
هل كنا نرفعه في المعسكرات الصحراوية
أم كنا نرفع الهباء والجوع والألمْ؟

2005 – 5 – 27

على الحافة

فرج بيرقدار

١

السماء التي تحتنا
هكذا.

٢

هكذا الأرض أيضاً
فما ترتؤون؟

٣

والشعوب التي لا ترى ما ترى
لا ترى.

٤

منذ عام وعامين
أعني قرابة ألف تماماً
قرابة ألف ونيف
قرابة ما لم يكن
وقرابة ما سيكون
ونحن كما تبصرون!
وأنا هكذا
وصديقي الذي اقتات قات الضنى
وصديقي الذي صدّق الزيزفون
وأبي حين مات
وما هانَ إلا لكي لا يهون.
وابنتي
وهواء الحديقةِ
أين الحديقةُ؟!
وابني
يوقّع خطواتهِ
فوق أرصفة في الشمالِ
وقلبي جنوباً
وما من جهات إذا ما الجنون.

٥

سيبكي كثيرون إمّا توفر دمع لهم
في المنافي
ستبكي بلاد على أهلها
وسيلعن صوتٌ صداهُ
ويلعن طاغية نفسهُ
في الحواشي
إذا ما تقرّى المتون.

ستوكهولم ـ حزيران 2006

غادرتُ سوريا
كما غادرها ديميتريوس

أكرم قطريب

أُصافحُ يداً ممدودةً شبيهة بمعول وغصن شجرة..

* * *

انتبه فقط لرهافة الوجوه العارية وهي تهذي بكلام لم تبح به منذ سنين طويلة..

* * *

ما الذي ستقوله الكشوفات في ما بعد عن الذين ينتحرون بسبب الديون المتراكمة وكتب الشعر المكدسة في المستودعات، والأجساد المرمية في ثلاجة شركة الخضار والفواكه..؟

* * *

رهين الغربتين..

* * *

ما زال يستمع لأغاني سعد الحلي وناظم الغزالي ويبكي على الهاتف أكثر مما يتكلم. كل واحد فينا بداخله مستعمرة صغيرة من الآثام البدائية. وكل هذه البعثرة هي التي تجعل من المهاجر حيواناً برياً قدرته على الصراخ أقوى من قدرته على التعبير. لا لحظة شعرية ولا مسرح ولا سينما ولا رواية ولا حتى نعوم تشومسكي بقادر على شرح العينين المغرورقتين بالدموع..

* * *

شبهة الشعب يخرج من الدولاب الذي حُشر فيه، متحرراً من الأسر وهو يلفظ كلمة «الحرية» بدهشة من اكتشف قانون الجاذبية لأول مرة..

* * *

على شاشة الفضائية السورية وفي البرنامج الذي يتناقش محاوروه حول سبل تحديد سقف أسعار الفراريج والبيض والألبان بغية حماية المستهلك. النقاش الذي أخذ أكثر من ساعتين تديره المذيعة الحسناء المتعطشة للعدل في بلد يطفو على الصراخ والدم وكأن وزارة التموين تقع في سوهو أو السان جيرمان حيث حقوق المواطنين محمولة على الأكتاف والوزراء عندنا لا شاغل لهم إلا السهر عليها حتى الصباح يرعونها كما يرعى الرعاة الماعز في السهوب، بينما خلفها على شاشة البلازما ساحة الأمويين والشارع الذي يأخذك إلى مشفى الشامي والجبل المليء بالندوب، وروزنامة على حائط الإستوديو للعام 2120م. وصورة أيضاً للرئيس المنتخب...

* * *

أهم شيء منسي تلك الأدراج التي لم يكتشفها أحد، تلك الحوليات الباهرة.. النائمة تحت الجلد لقدرة شخص واحد أن يحول شعباً إلى جالية مرمية في صحراء.

* * *

يربت على كتف مرافقه ويطلب منه أن يعثر على أحد الكتبة ليدوّن سيرة العائلة التي نزل من قفطانها، وأن يبسط قدر استطاعته الحبر ذا الفعالية العمياء أثناء الكتابة عن مباني الفراغ التي شيّدت في عهده، كي تنفتح الشهية على الاستعارات التي ستمنح المؤلف حظوة ومنازل ومرافقين ونساء روسيات. في تلك الأيام في الأيام ذاتها، كل العناوين تؤدي إليه، وباسمه سيقص الشعب شريط الحرير قبل أن يدخل إلى سرير الزوجية، وباسمه سيضحك على الآخرين كي ينفذ بالوبر المتبقي على المؤخرة. والبلاد المفتوحة على التصفيق تشبه مصعداً كهربائياً معطلاً في صحراء، ولإصلاح العطل لا بد من شريطة حمراء ومقص وضفاف من المسؤولين عن رعاية الخراب والروماتيزم ونشرات الأخبار الرئيسية..

* * *

سيدخل الجميع غرفة عنايته الفائقة، وبصبر وأناة سينعزلون عن هواء العالم إلاّ هواءه - محميين بعصمته وتعاليمه التي حولتهم إلى فصل من فصول حكايات الجن، وسيرة أعداد غفيرة غير لازمة إلا لاحتفالاته القدرية. جماهير تحت الطلب. فئران تجارب الحتمية التاريخية التي أنجبته ثم أرسلته في طرد بريدي مسجل من زواريب البعث والسيرة الحسنة ليقود هذه الكائنات على متن السفينة الأسطورية إلى الثكنة الموعودة التي لا ضرع فيها ولا زرع سوى نجوم الظهر التي تلتمع على الأكتاف، ولوحة كبيرة له، رسمها أحد رسامي الثكنة وهو يغرس السرخس على المريخ، أصبحت منها نسخة في كل بيت، كشكل من رفاه العيش

والإحياء بنظر ثاقب يعرف ما الذي يدور حتى في أذهان الجواميس...

* * *

سيتعذر أن تشم رائحة إلا رائحته، حتى في العزلة العميقة سيتراءى كملاك الموت، مباغتاً، يخرج من الأدراج والكتب والقواميس ووسائد النوم. في هذه المسافة يشرف عن كثب على تحركات العوام، معلقاً أبناءهم بأسلاك النحاس كي يروا لون السماء أوضح من أي وقت مضى، مهنئاً إياهم عبر الراديو وبعض الوسائل المرئية باستمرار إطلالته الأبدية على مستعمرة الهشيم، وبميلانه سترتسم الطبيعة على هواه، حتى الحيوانات ستركن في ملكوته وهو يسوق الجميع في نزهة إحسانه وعطاياه. أما الذين سيعترضون على وجهات نظره الكثيرة فسيتحولون إلى وقود غاز لمصابيح مسيرته التي ازدهرت في ظلالها صناعة السلالم والميكروفونات والمسلسلات التاريخية وقصص أبو زيد الهلالي..

* * *

داخل مربعات الإسمنت المكوّنة من ضرورات العيش ومشاجب للذكريات والألبسة القليلة ومن دون أن يكشف وجودها أحد، بصعوبة، هنا حيث بلا جدوى سيأخذها في كل منعطف بالعصي المنهالة والدم وقوائم الحديد المتدلية كشجرة عيد الميلاد طوال أكثر من عشرة قرون

* * *

تلك اللمسة المفقودة لفخامته التي صنع بها المعجزات وخطف إلى مستودعات بناها في العراء آلافاً من الذين حاولوا أن يشرحوا له معنى حلول الظلام من دون إعارة انتباه إلى ردة فعله التي أظهرته متعدد الخصال وهو يحتمي وراء نظارته السوداء قادراً على إخفاء ندوب أعماقه التي يسكن فيها قطيع من الذئاب الجائعة ولا يحيطها سور..

* * *

صوت: 1

ثمة روعة لا تُضاهى وأنا أرمق المدن من شباك حجرة الجلوس: جاذبية الكائنات وهي تستحيل إلى غبار من تلقاء ذاتها. سلطنة من الهباء مُخترعة بالعبء وعضلات البلاغة الإذاعية التي هي أفضل من رتل دبابات في انقلاب عسكري.

صحن من العدس الأيديولوجي مطبوخ مع الماء يمكن أن يُحدث تأثيراً عميقاً في صحة السكان سيئي التغذية.

رميتُ كل هذا الهذار كالبازلاء المقشورة على صفحات الجرائد.

إحصاء وهمي لمحاصيل محسوبة بعمليات دقيقة مرفقة بابتسامات هزلية لمزارعين في سن الثمانين. وعلى الرغم من تكاثر مجيء الناس من القرى إلى العاصمة من الجوع، وانحسار الماء عن البر، وتلوث ماء النهر

* * *

صوت: 2

حياة جعلتُها مثل كلمة أخيرة في فم محكوم بالإعدام...

* * *

صوت: 3

إصلاحية ستكون مهدَ الخلود السعيد الذي أرسمه للمرضى من أبنائي الموهومين على خشبة القصاص هذه، ابتداء من غرفة النوم والمشي في الشارع، وانتهاء بالنظر الطويل إلى السماء.

شرفات تقطعها حبال الغسيل الممدودة كخلفية مدينية ثمينة.

* * *

صوت: 4

لم يكونوا بحاجة إلى دور سينما أو هذيانات جمالية تتحرك على ستارة بيضاء. يكفي أنك ستندهش كيف صنعتُ منهم أداة السرد وأدخلتهم جميعاً إلى فيلم الواقع، وبدون كراس يجلس عليها متفرجون بدرجات، سوى صفارة شرطي المرور الذي يلوّح بيديه.

هم المشاهدون والممثلون في آن واحد، في حضورهم الحقيقي دون أي مكياج أو اكسسوارات: منصة فسيحة متمرسة بالأوجاع.

* * *

كان القهر سلعة اليوم التي يجب أن تسود..

فيدرالية التعسف والضحك الطويل في النفق حين لا تحمي أحداً ربطةُ العنق.

* * *

غادرتُ سوريا كما غادرها ديميتريوس سوتر وكان ملكاً عليها ثم رهينة في روما في الأزمنة الما قبل ميلادية ولا أتذكر معالمها إلا غائمة ومصحوبة بعواصف رعدية. الشيء المقدس الذي لا أقترب منه ولا أستطيع الفكاك: الشموع وجادة الصالحية وباب توما وجبل عين الزرقاء..

* * *

في الحرب تستحوذ الريبة على نحو خطر للغاية ولن تنفع الإرادة الصلبة بشيء. حتى التربة والطيور والأصدقاء سيتغيّرون.

المرء يقف منفرداً في القفر.. بينما هناك جموع من البشر، تمتلىء الشوارع والشرفات بأنينهم..

* * *

في المكان الذي هو عرضة للنهب الروحي والجسدي ستصير المرايا بيوتاً حتى وهي تتكسر في دمعة الله هناك بين الأزقة الضيقة والجبال، ولها أطفالٌ عراةٌ يمسكون بِرَوبها على السفح..

***

تركتُ حياتي برمتها في أدراج لا أقفال لها..
مغبرّة ومهملة مع بروشورات الرسامين على طاولة المطبخ.
لم أكن ميتاً من السعادة
حين للحظة ظننتُ أن روحي طويZة كالنباتات
التي تنمو في أدغال أفريقيا،
وتحترق في رفة عين.
بينما بقيت روائح الأمكنة في رأسي
مثل صفير القطار..

***

إنه من السهولة بمكان أن ترى طفلاً في «الخالدية» يضحك في الصورة وهو يرفع ربطة الخبز..
نحو السماء وكأنها حقيبته المدرسية..

***

كان الخوف يلعب معنا
مثلهُ مثل بقية الأولاد..
ويرافقنا أينما نذهب كقرص الشمس،
يرسمُ ظلالاً لنا في ملاعب كرة القدم
كي ينقذ حياتنا من الخطر.
خزانةُ الأسرار التي اختبأنا فيها في أعياد الرئيس المؤبّد
الذي إذا سافر خارج البلاد كنا نطير من الفرح
ونتمنى ألا يعود.
تماثيله المحطمة الآن
تجعلني أتذكر آلام فرس النهر في حديقة الحيوان..

***

روحي عساها تأتي إليكِ ولم يُصبها ما يُؤلمُ أو يجلب لها العار..
من نيوجرسي: هنا دمشق

قصائد عابرة في الحب والدم

احمد بغدادي

ميغ 23

سطحُ جارتنا
سقف منزل بائع الحليب
الحيّ المجاور
درج المستشفى...
وتلك الشقوق السوداء التي أحدثتها في قلبي...

أيها الطائر المعدني النهم...
لم تشبع
من الإسمنت
من اللحم والطرقات،
من الطيران...؟!

ميغ – اسمٌ بلا ريش –
ريشه يدفئ الأعداء!!

* * *

قالت الطفلة مشيرة بسبابتها
وعلى غرّتها شريطة زرقاء
وفي صدرها دخانٌ طبقي
وسعال متحفّز:

هيه.. هيه.. طيارة.. طيارة..!!

بعد صوتين..
رجّ المشهدُ
وانداح...
والشريطة الزرقاء
ريشة زرقاء
في الدخان
فوق ركام منزل بائع الحليب!.

السماء لك
والأرض بخرابها لنا
للمزارعين القتلى
للعناوين التي أخطأتها عمداً
حقاً... لم تخطئها
عمداً..!!

(ميغ)

سأمنحك إسماً آخر..
مثلاً: «عزرائيل.. أبابيل.. موظف لعق
الطوابع ولصقها على جسد القتيل»
هيه.. هيه.. طيارة سورية
لم يقلها طفلٌ إسرائيلي يوماً!!
/
حرية القتلى والأحياء
مشهدُ الدماء
بكاءُ الأمهات والعذارى
هجرةُ السنونو المبكرة
هواءُ الشام
كل شيء فينا:
ب
ا
ر
و
د
وسيشعل الله عما قريب الفتيل.

* * *

(2)

30 رصاصة في صدغ الطاغية...
ولم يزل يبتسم!!
الآن...
أدركت أن الرصاصَ

لا يقتله

بقدر ما ترديه النعال.

* * *

(3)

قبل أن أغادر
سأقول لك:
الطرقات بيننا قليلة
ولربما
طويلة
أو
جليلة....
بيننا قتلى
يزحفون كل يوم
وفي كل ثانية!...
ودخانٌ يسعل
ملء رئتيه!.
قبل أن أغادر
عليّ أن أقول لكِ:
الطريق إلى بيتيَ يوصلُ إلى الحكاية
ويأخذك
إلى التردد،
وبعد ذلك،
عليك أن تعرفي
عدد الغربان
التي حطّت على أغصانك
وعدد العصافير
التي
لم تغرد
على زندك
وعلى تخوم غيابي.
(س)
سأصيدُ السمك
حتماً
دون صنارة اللقاء...
سأصيد حظي الغارق بين شاطئين!
وأرتكبُ
دخولي بعد ذلك
إلى الساعة الواحدة ظهراً
حيث انصراف
الرب
من المدرسة.

* * *

(4)

واضحة تماماً

.

.

بكل مراياك الغافلة عن المشهد . . .
مثل سقوط قطعة نقدية
من يد طفل عابر في زقاق فارغ!
ولابدّ كذلك
مثل صوت انكسار زجاج النافذة
بحجر طائش او رصاصة متقصّدة.

.

واضحة تماماً . . .
مثل هذه الأيام التي نعدّها في تقويمنا السنوي
مثل نكء الجرح القاسي وتقشيره
بأظافر غير مطلية . . .
تماماً مثل الحقيقة البشعة
أو الجميلة . . .

دائماً . . .
تريدين أن تصعدي الى الحلم مجاناً
دون تذكرة للنوم . . !
وهذا سقوط في شرك اليقين؛
واضحة تماماً . . .

خذي . . .
هذا عمودي الفقري
أسلخه عني . . .
وأضعه فقرة فقرة
سُلّماً
على أي جدار
كي تصعدي الى مبتغاك
اصعدي
اصعدي
أنا في الأعلى
أمدّ انتظاري حبلاً
يوصلك إلى أسطح الحكاية
واضحة تماماً . . .

أغلقتُ الكتاب
ووضعتُ نظارة القراءة
جانب غموض الرواية . . .

واضحة تماماً . . .

فليس من المعقول
أن تقفي عارية في منتصف الشارع
وتصرخي بملء غبائك:

أحبك –
.
.
واضحة تماماً...

* * *

(5)

كل شيء أمامك:

المرآة
المشط
العبق
الماء أو المطر
الريح والنافذة
صوت البائع المتجول
القطة المتأخرة عن دفء الموقد
جرائد الصباح بكل اللغات
انقطاع التيار الكهربائي
التذمر
كأس الحليب المسكوب أيضاً على شرشف الطاولة
معطفك المبلل
الأجوبة والأسئلة كلها مبعثرة أمام الباب الخارجي كالأحذية!
الأناشيد الوطنية المملة
الوسائد النائمة
الحلم المستهلك
ذكرياتك الحالمة...

وأخشى أنا وقتها ألا أكون موجوداً

كي أرتّب لك كل هذه الفوضى.

لعنةُ العمّاء

غمكين مراد

(1)

ثقيلة على جسدي
تتمرأى خلف ستارٍ للنفي
هي روحي
مستلقيةً على فراش الجسد
كسولة
خائرةُ الهوى
مُضمرة قلب.
غارقة عزلة.

(2)

أخالُ أنّ الحبّ إذاً
قد مات
أخالكِ تقطعين
القدر
تُعيدينَ
ما تاه
ما ضاع.
لا تحسبي الحبّ دون إنسان
قد وجد
لا تحسبي أن من يتباكون
شوقاً
حنيناً
وداعاً

ذائبين في الحبّ
ما دام على مرأى الإله والبشر
أطفال شهداء
نساءٌ ملَّ البكاءُ
منهن،
أشلاءٌ مبعثرة
كذرات الضباب في سماء
الظلم.

(3)

الوقتُ حرب
السلام فزاعةٌ في متاهة
الكلام.
روحي مهترئةُ الثياب
في عري الإنسان
من يعيدها إلى حبل للرقص
حيث لا رقص إلا للموت.

(4)

أخالُ الحبَّ
زوبعةٌ مستورة بقناع الروح
الكلّ غائب
في حضور البارود
الكلُّ شاهدٌ أعمى على من يسحب الأكسجين
وينفث السم.

(5)

الهواء يتنفس الغبار
للدخان طعم الغبار
للغبار روح البارود
في تساقط الأبنية
على جثة الهزيمة.

(6)

أخالني نسيت نفسي
أنّني
أخاطب العدم
أخاطب أصناما لا تدرُ عوناً
ولا تحيدُ ظلماً.

(7)

هي لعنةٌ
أن تتفرج على الموت
هي لعنة
أن تنتظر السقوط
الكلُّ ساقط
المناصب
الآلهة
الإنسانية
والباقي صفر الحياة.

(8)

يا للعنة
حتى الإله في سياق الزوبعة
يبحث عن نفسه.

(9)

أن تكونَ في الموت
أو شاهداً على الموت
بغصة تدفن نَفَسكْ
هي
حياة أموات لم يسلموا من السقوط
إلى الأعمق.
أن تكون مدوِّن كلمات
فأنت تُسقِّطُ الحبر
لا أدري
أتُعيد للحياة
شيئاً من النجاة.

(10)

أخالُ أنَّ الوقت مرَّ في النسيان
أخالُ أنَّ الأزمنة كدست
هلام حقيقةٍ
ودفنت روحها.

(11)

هو موسم الموت
دون حياء
حصاد لآلاته
الأرواحُ ثمراتها
كلّ منها
في لقائها العابر إلى السماء
تسرد قصة جسدها:
قطع سكين
ثقب رصاصة
حفر سوط
سقوط بناء
والدم يجمعها.

(12)

أخالُ أن روحي
لا زالت تتحشرج
أخال أن السماء
تركت صرختها صدىً
لتغدو ثقيلة
هامدة
من عليٍّ سقطت
تأبى الرحيل

201/11/4

رواية

رواية

اغتيال صحفي قال : لا

منير مطاوع

هذا هو اليوم الأول من الشهر الثاني لقدومي، بدأ إحساسي بالتفاؤل وبقدرة المجلة الجديدة على النجاح.. والحقيقة أن مفاجأة الأجر المضاعف رفعت معنوياتي بشدة وزادت حماسي.

تكلّمت مع كثيرين، بالاتصال الشخصي هنا، وبالتليفون في بلدان كثيرة..

حذرني أصدقاء من التشدّد في الهجوم على أنظمة وحكام لا يعرفون الله، يردون بطريقة واحدة، وقصة «سليم اللوزي» تقول الكثير.

روى لي الزملاء في «الحوادث» من المقربين للرجل، تفاصيل مروّعة..

وقرأت لزميل مصري هذا المقال:

«قصة اغتيال»

لأنه قال لا.. كان لا بد أن يختفي سليم اللوزي ويخرس قلمه.. ولأنه رفع صوته في وجه المخابرات السورية التي تسيطر على بيروت. كان لا بد أن يدفع الصحفي اللبناني المعروف صديق الرؤساء، حياته ثمنا لمقالاته الملتهبة في مجلة «الحوادث» التي تجرأ فيها على الحكم في دمشق.. وبعد تعذيبه أياما في منطقة مهجورة أطلقوا الرصاص عليه وأذابوا يده اليمنى التي يكتب بها بالحامض، وكان اغتيال اللوزي رسالة تحذير إلى اللبنانيين الذين يعارضون التدخل السوري! وقيد الحادث ضد مجهول!

كان سليم اللوزي من ألمع الصحفيين اللبنانيين، وأكثرهم جرأة في فتح ملفات القضايا الساخنة وكان محبا لمصر وتربطه صداقة مع الرئيس عبد الناصر ومع الرئيس السادات وأجرى معهما أحاديث صريحة عن الهموم العربية.. وحينما نشبت الحرب الأهلية في لبنان وتعرض مبنى الحوادث للحريق، اضطر اللوزي إلى الخروج والإقامة في لندن بسبب التهديدات بقتله.. ولكنه لم يتخل عن قلمه الساخن في مواجهة الفتنة الطائفية، وكانت القوات السورية قد دخلت لبنان مع «قوات الردع» لوضع حد للاقتتال الذي استمر سنوات وراح ضحيته الآلاف، وتم بعد ذلك الانتشار العسكري والمخابراتي السوري في بيروت، وكان اللوزي يشعر بالألم النفسي لما آل إليه حال لبنان، وقد عبر عن ذلك خلال مقابلاتنا في القاهرة بقوله: إنهم يريدون تخويفنا لنكون موالين لهم!

انفجرت الأزمة عندما اتهم سليم اللوزي عملاء المخابرات السورية بقتل شقيقه مصطفى بالرصاص في طرابلس (على شاطئ البحر) لتصفية الحسابات بسبب تقرير نشر في مجلة 'الحوادث' (التي كانت تصدر وقتها من لندن عن فساد زعيم حركة الشباب العلوي الموالية لسوريا.. وكان سليم يشعر بالذنب على مصرع شقيقه.. وأخذ يكشف في مقالاته أوضاع الحكم في سوريا على صفحات مجلته مستمداً معلوماته من أحد أعوان رفعت الأسد وآخرين من الهاربين السوريين في جلسات طويلة في بيته في لندن (حدث ذلك في أواخر 79) كتب المقال الأول تحت عنوان: «.. وغدا إذا ما اغتالتني المخابرات العسكرية (السورية) أكون قد استحققت هذا المصير لأنني أحب بلدي وأخلص لمهنتي»!

بعدها التقى سليم اللوزي في باريس مع صلاح البيطار (الزعيم البعثي السوري المنفي الذي تم اغتياله في باريس) وحذره من الخوض في الممنوعات السورية وطلب منه أن يبعد عن الشر.. لكنه لم يعد يسمع سوى نفسه وكتب مقالا ثانيا عنوانه: «قال لي صديقي الدمشقي: كنت خائفا عليك من التصفية، فأصبحت خائفا عليك مما هو أشد وأقسى!»

ونشر الحوار الذي دار بينه وبين البيطار وقال فيه: هل يمكن تجاهل القمع الدموي؟ هل يمكن المرور بالمجزرة التي وقعت في مدرسة المدفعية في حلب؟ لست وراء إسقاط النظام وأعرف الثمن الذي ستدفعه سوريا إذا استمر الصراع الدموي الدائر!

كان هجوم اللوزي على المخابرات السورية مفاجئا وهو ما جعلها ترسل إليه رسالة إنذار (عن طريق مدير مكتب الحوادث في بيروت) قالوا فيها: قف مكانك.. إننا لم نقتل أخاك.. فلا تفقد عقلك؟! لكنه لم يصدق رسالتهم واستمر في حملته.

لقد كان متأكدا أنهم قرروا تصفيته، وفي ذلك الوقت كان غازي كنعان مدير المخابرات السورية في بيروت (وزير الداخلية لاحقاً* هو الحاكم بأمره ويفرض الهيمنة على الأوضاع السياسية والداخلية اللبنانية بكل الوسائل وكان اسمه يثير الرعب والفزع!

***

مضت شهور وتلقى اللوزي خبر وفاة أمه وهو في زيارة خاصة مع زوجته الصحفية' أمية في نيويورك، فقرر أن يعود إلى بيروت لتلقي العزاء بنفسه، حاول الأصدقاء منعه من السفر وقالوا له: رأسك مطلوب.. الموت في انتظارك!

لكنه لم يستمع إليهم ورفض إقامة العزاء في لندن، توسلت إليه زوجته من أجل بناته الصغيرات، وأصر بعناده على الذهاب إلى بيروت.. واقترحوا عليه التوجه إلى لبنان عن طريق الشام.. ولكنه عاود الإصرار على الدخول من المطار.. وعندما وصل صباح 21 فبراير 1980 طلبه ياسر عرفات وكان وقتها يتواجد في لبنان مع الفصائل الفلسطينية وأبلغه: بأنه سيخصص له حراسة فلسطينية، ولكنه اعتذر وبقي بلا حراسة، واستمر العزاء ثلاثة أيام من جميع الطوائف اللبنانية!

كان المفروض أن يغادر سليم اللوزي مع زوجته أمية صباح السبت بطائرة الخطوط اللبنانية إلى لندن، لكنه تلقى رسالة عن طريق النائب رينيه معوض بأن الرئيس اللبناني إلياس سركيس سيقابله السبت ولذلك أجل السفر إلى يوم الأحد..

بكت أمية عندما عرفت بالتأجيل لأن قلبها كان يستشعر الخطر على زوجها خصوصا بعدما وضعوا حاجزا عسكريا أمام البيت، ويبدو أن ذلك كان جزءا من خطة الاغتيال المدبرة وبقائه يوما آخر لترتيب العملية!

انتظر سليم في البيت تحديد موعد مقابلة الرئيس صباح السبت لكنه لم يتلق أية مكاملة تليفونية، ولم يطق الانتظار وخرج وحده (وبدون علم زوجته) تجول في بيروت وكأنما يودعها ويلقي النظرة الأخيرة عليها.. وذهب إلى جريدة «النهار» والتقى مع المحررين هناك.. وعاد متأخرا ورأى حاجزين للجيش (السوري) في الشارع..!

***

وجاء يوم الأحد الأسود 25 فبراير وتم حزم الحقائب، وخرجت أمية في الصباح الباكر لتسدد الحسابات قبل المغادرة، وعند عودتها فوجئت بانقطاع الكهرباء عن المبنى وكان المسكن في الطابق العاشر وطلبت من الحارس أن يصعد ليطلب من زوجها النزول.. تأخر سليم لأنه كان في انتظار اثنين من زملائه لمرافقته إلى المطار ولم يحضرا.. وكان الجو يسوده التوتر والريبة من شيء مجهول.. وكما روت لي أمية بعد ذلك في لندن مأساتها الحزينة:

'اتجهنا الى المطار في سيارتنا وجلست بجانب سليم في المقعد الخلفي، تصحبنا سيارة مدير الإعلانات البيجو، وعلى جانبي الطريق إلى مطار بيروت كانت تنتشر قوات الردع، وعند الحاجز الرئيسي أوقفتنا مجموعة (ضابط وثلاثة جنود) وصوبوا أسلحتهم نحونا وطلب الضابط جوازات السفر وقال سليم: أعتقد أنني المطلوب!

أمرنا الضابط (السوري) بالنزول من السيارة، وأمر شقيقتي المرافقة بالعودة في سيارة مدير الإعلانات.. وبقيت مع سليم في عرض الطريق حتى جاءت سيارة أخرى وداخلها

شخصان مسلحان وسائق وأخذوني معهم، أعطاني الضابط جوازات السفر، وبينما أخذوا سليم في سيارته بمفرده بعدما أنزلوا السائق والحارس الخاص، ولاحظت أن السيارة الأخرى مزودة بجهاز لاسلكي (ويبدو أنها من سيارات المخابرات) انطلقت السيارة التي تحمل سليم وسيارتنا تتبعها وفيها المسلحان، واتجهنا إلى طريق خلدة وإلى الدامور ولم تغب عني سيارة سليم المرسيدس، وأيقنت أنها عملية اختطاف من جانب المخابرات قبل وصولنا إلى مطار بيروت.

عندما وصلنا إلي الدامور طلب الحارس إيقاف السيارة لشراء علبة سجائر، ولم أتصور أنها خدعة للتعطيل.. فعندما عاد بعد فترة كانت سيارة سليم قد اختفت تماما عن أنظارنا.. ولم أعرف إلى أين؟

اتجهنا إلى طريق عرمون وكانت حقيبة أوراق سليم مازالت معي، توقفنا عند الوادي وأنزلوني في منطقة منعزلة مليئة بالصخور والبرك الراكدة، وخطفوا الحقيبة وفتشوا أوراقها وسألوني: أين الملف؟ وجردوني من مصوغاتي وحقيبة يدي وكنت أرتدي جاكيت من الفراء ووضعوا رباطا على عيني وفي يدي وبقيت هناك ست ساعات حتى المساء حيث تخلصت من قيودي ومشيت بلا حذاء وسط الأحراش حتى وصلت طريق عرمون، كنت قد أخفيت الملف تحت الجاكيت، أوقفت سيارة تاكسي متجهة من الجبل إلى بيروت، وجلست بين الركاب وسمعت في الراديو: أن الصحفي سليم اللوزي ما زال مخطوفا!

***

عادت أمية اللوزي إلى بيتها في حالة يرثى لها واتصلت بياسر عرفات ولكنها لم تعرف أية أخبار عن زوجها وعن مصيره؟

وضع عرفات حراسة فلسطينية على البيت، وفي الداخل كان هناك عدد كبير من رجال المخابرات والأمن، واقترح عرفات الاتصال بالرئيس سركيس للتدخل حتى لا يتعرض اللوزي للتصفية.. كان الرئيس صائب سلام قد طلب من سليم مغادرة بيروت للتمويه قبل سفره بيوم ولا يلغي حجز الأحد بالطائرة لكنه رفض.. بعد ثلاثة أيام وجدوا سيارته المرسيدس أمام ملهى ليلي يملكه سركيس شلهوب وازداد الحادث غموضاً واتجهت الشبهات إلى أن المختطفين من عملاء المخابرات السورية..!

وفي مساء الثلاثاء 4 مارس وجدوا جثة سليم اللوزي في منطقة « عرمون » اكتشفها راعي غنم شاب وأبلغ مخفر الأمن وأبلغ وزيرَ الداخلية مدير مكتبُ الحوادث بالعثور عليها.. أذاع التليفزيون اللبناني الخبر وعم الحزن مدينة بيروت.. و »قيدت الجريمة ضد مجهول ».. ولكن تقرير المدعي العام يشير إلى الفاعل بدون تحديد وحسب توصيف الحادث:

فإن مجهولين أقدموا على خطف الصحفي سليم اللوزي صاحب مجلة الحوادث بقوة السلاح يوم 24 فبراير ومن ثم قتله بإطلاق النار عليه من مسدس حربي غير مرخص وتعذيبه جسديا.. وتبين من تقرير الطبيب الشرعي: أنه تم إطلاق الرصاص

على رأسه من الخلف، ووضعوا يده اليمنى- التي يكتب بها- في حامض فتاك كي تذوب في السائل الحارق وتتآكل العظام والأربطة حتى أطراف الأصابع، إضافة إلى بعض الكسور في الأضلاع مما يدل على أنه جرى تعذيبه بوحشية على مدى ثمانية أيام، وفي التقرير إشارة إلى رصاصة غير قاتلة نفذت من الخد الأيمن للتعذيب..! كان اغتيال سليم اللوزي وتعذيبه بمثابة إنذار للصحفيين اللبنانيين بالمصير الذي ينتظر من يقول: لا.. لسوريا!

وتبقى المفاجأة الأخيرة: أن راعي الغنم الذي عثر على الجثة وجد مقتولاً في أحراش عرمون أيضا في نفس المكان وبعد خمسة أيام فقط.. وبقي الفاعل مجهولا!..

فصل من رواية «البحث عن الشمس» التي ستصدر قريباً

أوراق النقد

نقد

إلى متى يبقى أهم رموز الثقافة العراقية صامتين عما جرى ويجري في بلادهم؟

كريم عبد

تبدو الكتابة وكأنـها تـمحو الأشياء لتُعيد تصويرها، فتبقى الصورة ويذهب الأصل، فهو صائر إلى زوال بحكم الزمن وتقادم الأحداث. وهنا يكمن معنى الكتابة وأهميتها، وكذلك فحوى التفاوت النوعي بين كتابة وأخرى، أي بين كتابة تضعنا أمام جوهر الأصل أو الواقعة أو الظاهرة، وبين كتابة تسطح الواقع أو تزيّفه أو تحرّفه لأسباب مختلفة.

ولأن الكتابة الجادة تريد تبرير وجودها، فهي تحاول أن تـملأ ما قد يبدو فراغاً أو نقصاً في تصور القارئ أو وعيه عن أمر ما، أو تهدف إلى تنشيط الحيوية بين القارىء وبين نفسه، وبينه وبين ظواهر الحياة المختلفة. تحاول أن تضعه أمام صورة واضحة عن طبيعة ومعنى تلك الأشياء أو الظواهر، عن خللها أو جمالها أو ارتباكها، وعن أفكار الكاتب ذاته عنها أو شدة تأثيرها هي على الكاتب. والكاتب هنا ليس حراً، فرغم تعدد القراءات وتنوعها يظل يحكمها قاسم مشترك هو اقتراب النص أو ابتعاده عن منطق الأشياء. فليست كل كتابة قابلة

للتأويل والتداول المعرفي، فقد أصبح واضحاً الآن، من خلال مفهوم (القراءة) بأن كل نص يتعرض لعدد غير محدود من التأويلات وفقاً لتعدد القراء، فثمة قراءة تخضع لمستوى وعي القارئ، وأخرى لأغراضه المسبقة التي ربما كانت ذات طابع تعسفي، وقلما، عندنا تحديداً، يُقرأ النص موضوعياً، أي بمقارنة محايدة بين الأفكار الواردة في النص وبين الظاهرة التي يتحدث عنها، أو المقارنة المحايدة بين نص محلي معين وبين نصوص أخرى محلية أو أجنبية على صعيد أدبية النص الأدبي أو قيمة النص الفكري.

إن الاختلاف في نوعية نتائج القراءة لا علاقة له بمستوى الكتابة أو نوعيتها بالضرورة. لأن مستوى القارئ وظروف القراءة هما اللذان يلعبان دوراً رئيسياً في تحديد قيمة النص لدى قارئ معين. فلو أعطيت نصاً لشكسبير لقارئ ضحل الثقافة فإن النص ذاته سيبدو ضحلاً في تصوره. وقراءة كتاب معين من قبل سجين ستختلف عن قراءة نفس الكتاب من قبل إنسان جالس في حديقة بيته.

والكتابة مثل الأخلاق أو التقاليد، تخضع لطبيعة النسق الحضاري في كل مجتمع، من حيث المفردات والمفاهيم، أي لمستوى ونوع الحرية المتاحة، فالكتابة عن الجنس أو الحكومة في إيران أو اليمن تختلف عما هي عليه في بريطانيا أو أسبانيا، غير إن مستوى الحرية لا يُحدد بذاته أهمية الكاتب والكتابة، كأن يكون أي كاتب في فرنسا أكثر أهمية من أي كاتب في لبنان أو المكسيك لمجرد كون الحرية في حالة أفضل في البلدان الأوربية.

إن تقدم الرواية في أميركا اللاتينية أو اليابان أو بعض الدول العربية، هو ظاهرة واقعية تدعم هذا الرأي. لكن هناك فرقاً بين ما يتم إنتاجه من معرفة وإبداع حقيقي في الثقافة العربية وبين أوهام شائعة عندنا مفادها إننا مهما كتبنا سيظل إنجازنا محدود القيمة! وسيكون من التعسف نقض هذا الرأي عبر مقارنة النظم المعرفية والفلسفية التي تنتجها الثقافة الغربية المعاصرة بعد تراكم قرون عديدة، بما هو الحال في بلدان العالم الثالث التي استيقظت على صرير دبابات الاستعمار الغربي بعد سبات حضاري طويل، لأن النسق الحضاري والثقافي في الغرب لا تمكن مقارنته بما سواه بحكم السياق التاريخي والتطور الموضوعي للظواهر.

والكتابة أحياناً تأخذ أهميتها من جرأة أو إمكانية الكاتب في التأسيس لمناخ الحرية في ظروف غياب الحرية. حرية الوعي والعيش بما تقتضيه الضرورة الاجتماعية. وبالنسبة لنا، حتى لو توفرت حرية التعبير رسمياً في بلد عربي ما، فإن طبيعة التقاليد الاجتماعية المتزمتة، وهي خليط من تقاليد ريفية وبداوة كامنة حتى داخل مشاعر وعادات سكان المدن، تظل تشكل عائقاً أمام إمكانية التعبير عن الحقيقة بوضوح، حقيقة الإنسان وحقيقة المجتمع ونسقه الثقافي والحقوقي.

لكل ذلك ليس من المنطقي أن نتوقع ظهور شخصيات مثل بيتهوفن أو نابليون في سوريا أو الكويت، ليس لاختلاف طبيعة البشر هنا أو هناك، بل لاختلاف النسق الحضاري الذي يُنتج نمطاً معيناً من الشخصيات العلمية أو الفنية في كل عصر. بمعنى إختلاف طبيعة

الشروط والظروف الثقافية التي يجد هؤلاء البشر أنفسهم فيها، وهو أمر خارج عن إرادتهم الذاتية، دون أن يلغي أهمية مساهماتهم وحضورهم الثقافي بقدر تعلّقهم هم بذلك الحضور وتلك المساهمات.

وضمن هذا السياق يصبح الكاتب مُهمّاً عندما يتمتع بشجاعة العقل فتكون كتابته منسجمة مع طبيعة الواقعة التي يتناولها والظروف التي يواجهها، عبر علاقته بموروثه التاريخي والنسق الحضاري الذي يحدد له طبيعة دفاعه عن معنى الجمال. لأن الجمال هو جمال الحرية، وهو جمال العدالة، فأنت جميل بقدر ما أنت عادل. أي إن المسألة تتعلق بصدقية المستوى الحقوقي والجمالي الذي يتجسد في لغة الكاتب، أي في موقفه. فلا يمكن أن نتحدث عن أهمية كاتب بعيداً عن مواقفه مما يدور في بلده أو عصره، وإلا أصبحت لغته مخاتلة أو جبانة أو مُزيفة لنصها وللواقع معاً، أو هي خائنة تلعب على الحقائق ولا تخجل من عيون الضحايا كما هي لغة أدونيس في خطابه لـ(الرئيس المُنتخب)! وكذلك في مواقف أدونيس البائسة من الثورة السورية، هذه الثورة الأسطورية التي تعرضت وما تزال تتعرض لمزيد من حملات التشويه الظالمة التي أخذت تؤثر على الرأي العام بسبب تواترها وكذلك بسبب صمت الكثير من المثقفين العرب أو تواطئهم أحياناً!

إن المستوى الجمالي والحقوقي للغة الكتابة في ثقافة معينة هو الذي يشير إلى المستوى الحضاري في تلك الثقافة، الأمر الذي ينطبق على النص الفكري وكذلك ما يوازيه في المادة المتخيلة، أي النص الأدبي.

الجسد واللغة والمنفى

إن علاقة المجتمع برئيس البلاد في سويسرا هي غيرها في نظام ديكتاتوري أو ثيوقراطي، بل إن نظرة المجتمع إلى الجسد الإنساني تختلف من بلد إلى آخر. وكل هذا يتعلق بالكتابة وإشكالياتها، بالكتابة الأدبية والفكرية والحقوقية، باعتبارها انعكاساً لما يجري في الواقع ببعديه اليومي والمتخيل. المتخيل الذي يحدد طبيعته ظرف ثقافي معين باستعاراته وإيقاعه وحيثياته الأخرى التي تختلف من نسق إلى آخر. لذلك فأن الشعر العربي الذي يُقلّد ترجمات غربية يفشل في الوصول إلى القارىء والتواصل معه، لأن مادته المتخيلة تعتمد على استعارات نسق مختلف، لا علاقة وجدانية لها بهواجس الشاعر أو قارئه، فهو شعر يبدو جميلاً لناحية لغته وأسلوبه لكنه يفتقر للشحنة الشعورية الخفية التي تميز تجربة إنسانية عن أخرى. وهذا ينطبق على اللوحة التشكيلية أيضاً.

وسنجد إن طبيعة العلاقة بين الإنسان وبين جسده، وموقفه من متطلبات هذا الجسد، يلعبان دوراً حاسماً في إيقاع النص وأشكالياته، لأن موقف الإنسان من جسده يشير إلى مستوى تحرره من الأوهام والتابوات الموروثة، وهنا تأتي مسألة الذوق، أي موقف الإنسان

المعني من كبرياء أو إبتذال هذا التصرف أو ذاك، حيث يؤثر كل ذلك على مواقفه من الحياة ككل، فهنا يكمن المعنى ويتجسد الإيقاع.

إن علاقة الكتابة بالحرية، لا يحددها مستوى التطور التكنولوجي في بلد معين، ومستواها وأهميتها يكمنان أساساً في صراعها مع ذاتها، ومع معطيات الواقع واتجاهات الجمهور، باعتبارها بؤرة للصراع الاجتماعي برمته، ومن هنا تأتي ضرورة النقد وأهمية الناقد، ومن هنا يأتي اقتران تاريخ الكتابة الحقيقية بالموت، الموت بأنواعه، الموت كعقوبة صادرة من سلطة استبدادية أهلية أو رسمية، أو الموت المعنوي خوفاً من تلك العقوبة، أو الموت الوجداني خوفاً من حقائق الحياة والعجز عن المشاركة في صناعتها أو اتخاذ موقف واضح من ظواهرها.

على سبيل المثال: إن بعض الكتاب الهاربين من سلطات تعسفية، يظل يلاحقهم الخوف منها حتى وهم في مغترباتهم أو منافيهم فيؤثر على مشاعرهم ومواقفهم، لذلك تجد من يسيطر عليه الخذلان فيبقى عشرات السنين خارج بلاده دون أن يشير في تدخلاته الثقافية إلى سبب هروبه أو اضطراره للمغادرة أو احتجاجه على العسف والإضطهاد في بلاده، فيتسرب هذا الخذلان إلى كتابته فتأتي دون روح، دون معنى أو إيقاع لأنها دون موقف. وأذا تشبثت كتابته بحيوية معينة فسيكون الأمر ضمن حدود ضيقة، لأن هذا النوع من التخاذل يعمي بصيرة الكاتب لدرجة لا يقوى معها حتى على كتابة حالة الخذلان التي يعيشها فتؤثر على وجدانه ويومياته ناهيك عن مواقفه المُفترضة !!

إن نفي الكتّاب العرب وحلولهم في أوربا وسواها، رغم ما ينطوي عليه من مرارة إنسانية، لا يعني بذاته نفياً للثقافة أو الكتابة، إلا إذا كانت شجاعتهم العقلية والروحية منفية أصلاً لشدة ما يعانون من رعب غير مُعلن من الحياة ذاتها، من اللغة والجسد والسلطة والصراع والشهوة واحتدام العقل الإنساني ومتطلباته الكثيرة.

إذا كان المنفى، أي الإبعاد عن المكان الأول، هو حالة مأساوية واستثنائية. فهو لجهة التأمل فيه مثل كل الحالات التي يمكن إدراكها بشكل أفضل من خلال تحديد ومعرفة نقيضها، أي الإقامة في الوطن. وهنا سنكون أمام مفارقة، لأن الإقامة داخل الوطن هي نقيض شكلي، وليس جوهرياً، لمشكلة المنفى. فالإقامة داخل الوطن قد تصبح نفياً في ظل غياب الحرية. النقيض الحقيقي للمنفى هي الحرية، فهي ما ينقص الإنسان، إذ بدونها يختل وجوده وحقوقه الروحية والدنيوية حيث يصبح منفياً سواء أكان داخل الوطن أم خارجه.

وعبر هذا المدخل، فإن المثقف إذا فقد حريته خوفاً أو طمعاً بمكاسب معينة، يصبح منفياً داخل اللغة وخارجها، سواء غادر بلاده أم ظل مقيماً فيها. وسنجد إن فقدان الحرية هو العائق الداخلي عند هذا النمط من المثقفين. وهو ما يحول دون قدرتهم على تفكيك اللغة فكرياً وجمالياً، ومواجهة مكنوناتها وحقائقها التي هي حقائق ومكنونات الحياة ذاتها. فالكتابة ليست مجرد رغبة بل هي موقف حضاري بالمعنى العميق للكلمة. والمثقف المنفي بهذا المعنى يبقى منفياً حتى عندما يغادر بلاده إلى بلاد تقر بحقوقه المدنية والسياسية. لأن

الإشكالية مستمرة في داخله وداخل لغته ولا علاقة لها بالمكان بالضرورة. فالمواجهة تحدث داخل اللغة، أي داخل العقل، أي داخل علاقات الوعي التي يتشكل منها موقف المثقف، موقفه مما تحمله اللغة من دلالة ومعنى، وكذلك موقفه مما يجري في الواقع، حيث يترابط الموقفان فينعكسان على طبيعة النص وقيمته.

وضمن التباسات التجربة، أصبح بالإمكان الحديث عن ظاهرة (أصوليي المنفى) وهي ظاهرة تمثل إحدى الأصوليات القائمة دون أن ينتبه إليها أحد. وهي تتعلق بأولئك الذين أصبح للمنفى عندهم أصول!! إذ ليس بوسعهم الاقتراب من مفردات ومواضيع معينة لأنها من محرمات أصوليتهم. وهم بدل عيش الحرية وفصاحة الموقف تقتلهم رطانة الخوف والتردد، وربما كان ترددهم هذا مقصوداً أي نفعياً وانتهازياً.

فالذين ظلوا مترددين، دون موقف واضح وفعال في مواجهة نظام البعث المقبور في العراق، ما زالوا يراوحون في نفس المكان بعد سقوطه، فهم لم يعلنوا عن أي موقف حول ما جرى ويجري في العراق الإيراني – الأمريكي! بينما يستمر تحالف الأحزاب الدينية مع الإقطاع السياسي الكردي بالهيمنة على الدولة وتزييف النظام الديمقراطي مرسخين مافيا الفساد والإستبداد ليُتوّجوا كل ذلك بقتل مبرمج للثقافة التقدمية، بل وكل أنواع ثقافة العمل والإبداع التي تجدد إنسانية الإنسان وثقته بنفسه وبالمستقبل، فقد أماتوا الصناعة والزراعة وحولوا العراق بلداً استهلاكياً من دون كهرباء أو خدمات عامة تليق ببلد ثري بموارده الطبيعية وكفاءاته العلمية.

من قتل الثقافة
إلى قتل المثقفين

لقد حولوا العراق، بلد الحضارة والعلماء، إلى بيئة صالحة لإعادة إنتاج كل أنواع الخرافات والترهات لتخدير الجمهور وإبعاده عن أية أسئلة فكرية أو سياسية قد تهدد سلطتهم وامتيازاتهم، فشاعت ظاهرة الانتحار بين الشباب والمخدرات وعصابات الجريمة بطريقة غير مسبوقة ولا متوقعة في مدن العراق وأريافه، وهكذا انتقلت سلطة الفاسدين والعملاء من قتل الثقافة إلى قتل المثقفين. لقد قتلت سلطة إقليم كردستان الكاتب الشاب سردشت عثمان 2010 وهو مشروع مفكر جريء يمثل هو وأقران له تطلعات الأجيال الكردية الجديدة، إذ كان في السنة الأخيرة – كلية الآداب، اقتادوه من أبواب جامعة أربيل وقتلوه ومثلوا بجثته ثم ألقوا بها في أطراف مدينة الموصل عقاباً له على مقالات ينتقد فيها سلطة الإقطاع السياسي الكردي متمثلةً بحكومة الإقليم.

وقبل ذلك كانوا قد قتلوا الناقد المعروف قاسم عبد الأمير عجام في مدينة الحلة، وبعده قتلوا الكاتب كامل شياع في بغداد وكلا الجريمتين حدثتا في وضح النهار دون أن تحرك

السلطات الأمنية ساكناً لحد الآن.

بعد ذلك وفي 2011 دخل الجلاوزة على المخرج المسرحي والناشط الإعلامي هادي المهدي وقتلوه بكواتم الصوت في شقته الصغيرة بمنطقة الكرّادة وسط بغداد، وهي منطقة محمية بالحراسات الرسمية إذ يقطنها بعض قيادات حزب الدعوة الحاكم. وسبب القتل هو نشاطاته الإعلامية الجريئة ودوره المهم في تظاهرات شباط (فبراير) 2011 ما شجّع المزيد من المواطنين على التظاهر السلمي احتجاجاً على الفساد وانعدام الخدمات.

وهكذا نجد إن قتل الثقافة والمثقفين يحدث ضمن السياق العام للصراع السياسي بين مجتمع مظلوم وسياسيين أنذال لا حدود لشراهتهم وانحطاطهم، لا بدَّ للمثقف إذن من موقف، إذا لم يكن من أجل مشروع تحقيق العدالة، فدفاعاً عن النفس إذن، دفاعاً عن حرمة المثقفين أنفسهم كبشر وكمواطنين وإلا لماذا يُقتل مثقفون مسالمون تماماً كعجام وشياع؟! أليست جرائم من هذا النوع تهدف لقتل الإنسان العراقي قبل أن يحتج؟ هذه هي ثقافة تكريس العبودي، ولكل ذلك يبدو صمت المثقفين موقفاً متخاذلاً بحق أنفسهم وشعبهم.

ليس المطلوب من المثقف أن يؤدي دور البطل التراجيدي، بل أن يكون إنسان له حرمة وحدود لا يمكن لأي سلطة تجاوزها، لأنه إذا صمت المثقف عن الفساد أو سوء استخدام السلطة أو الشهادات المزورة أو قتل الناس في الشوارع، فهذا يعني إنه تنازل عن كبريائه كأنسان وعن حقوقه المدنية والسياسية كمواطن، وعند ذاك ماذا سيبقى من إنسانيته وكبريائه؟ وأية مصداقية ستبقى لثقافته؟

ليس بوسع المثقف أو فئة المثقفين أن تغير واقعاً سياسياً معقداً، لا في العراق ولا في سواه، لكنها تستطيع المساهمة في التخفيف من وطأة تيار الإبتذال الثقافي والسياسي المساند لإعادة إنتاج الديكتاتورية. إن بوسع المثقفين العراقيين إيقاف التيار الانتهازي النفعي الرخيص الذي يمثله علي الشلاه وأشباهه من انصاف المثقفين الذين يدّعون الحداثة بينما يضعون أنفسهم في خدمة سلطة متعفنة سياسياً وأخلاقياً. أنصاف مثقفين أصواتهم مبحوحة بالباطل صاروا يتهافتون على الموسسات الإعلامية والسياسية الرسمية واضعين بلاغتهم الرخيصة في خدمة نظام مافيا الفساد والاستبداد الجديد.

هذه الفئة تشكّل خطراً غير مرئيٍّ على مستقبل الثقافة العراقية، فبدل ظاهرة المثقف المستقل الذي يستمد سلطته من ثقافته ومعارضته لسلطة متعفنة سياسياً، سنصبح أمام ظاهرة المثقف صانع الجلادين ومبرر جرائمهم، والدور المشين الذي قام به حسن العلوي أيام صدام حسين لم يغب عن الذاكرة بعد، ومن المفارقات التي قد لا تحدث إلا في العراق، أن يكون حسن العلوي نائباً ويظهر في الفضائيات محاولاً أن يؤدي دور المعارض لكنه ينحب على جلال الطالباني مرة ويمتدح نوري المالكي مرة، وهذه هي طبيعة المُرتزَقة ولا فكاك له منها.

واستطراداً، ليس، بالضرورة، على المثقفين التظاهر ضد السلطات التي نفتهم داخل

بلادهم أو خارجها، ولا أن ينقلوا ضجيج تظاهراتهم إلى نصوصهم. يمكن أن يحدث هذا أو لا يحدث. ولكن عليهم أن لا يتخاذلوا، أي أن لا يفقدوا الأمل من المساهمة بالتغيير، وإلّا فإنهم سيفقدون القدرة على رؤية الحياة بروح ديمقراطية، أي بطريقة شجاعة ومتحضرة. فبدون الروح الديمقراطية وشجاعة العقل لن يتمكنوا من مواجهة الواقع المرير داخل لغتهم وخارجها. وفي جميع الأحوال يجب أن لا يفقد المثقف مصداقيته، لأنه بذلك سيفقد سلطته تاركاً للجلاوزة والجلادين وأعضاء الحكومة والبرلمان المأفونين أن يفرضوا قوانين القتل والإبتذال على أرض العراق من جديد.

إن إحدى أخطر صفات أصوليي المنفى هي فقدان القدرة على الحوار الديمقراطي، لا مع الآخر المغاير فقط، بل ومع الذات أيضاً، لأن بداية أي حوار حقيقي تنشأ وتتطور داخل الذات، لأن ذات المثقف، صاحب المشروع الفكري أو الفني، يُفترض أن تنطوي على العالم بأسره، على الشيء ونقيضه. لكن الذات المخذولة هي ذاتٌ استبدادية بالنتيجة، لأن الخذلان لا يمكن أن يُنتج حرية. الحرية هي أساس الحوار، وتعطيلها يشكل تعطيلاً لديناميكية العقل الإنساني، أي إحباطاً لمشروع الكتابة، أية كتابة جادة تنطوي على موقف جماليٍّ واضح ومحدد.

وكمثال على غياب إمكانية أو جدوى الحوار مع أو عند بعض المثقفين في البلدان العربية عموماً والعراق ضمناً، نلاحظ إن العديد من الكتّاب، الذين تخلوا عن أيديولوجياتهم الثورية القومية أو اليسارية، وانخرطوا، بعد إنهيار الاتحاد السوفييتي، في موضة إدعاء الديمقراطية والدعوة إليها، ولكن دون أن نقرأ لهم أية مراجعات فكرية لتجاربهم الذاتية مع تلك الأحزاب أو الإيديولوجيات التي عاشوا في كنفها طويلاً حيث أثقلوا الثقافة العربية بالمزيد من الرطانات، لنعرف من خلال مراجعاتهم، ما هي ظروف ومبررات انتمائهم لتلك الأحزاب أو الإيديولوجيات؟ وما هي الأسباب والضرورات التي دعتهم إلى تركها وجعلتهم يتحولون إلى ديمقراطيين أو ليبراليين بين ليلة وضحاها؟! وهل ارتكبوا أخطاءً بحق الآخرين؟! هل فرّطوا بإنسانيتهم؟ أم كانوا مجرد ضحايا لواقع مضطرب، وبأي معنى؟! هل الديمقراطية موضة أم قناع نفعي أم موقف حضاري؟!

ومن جانب آخر، نجد إنه حتى الكاتب الغربي يعاني بدوره من جهات مهيمنة على وسائل النشر بهذا القدر أو ذاك. وهي تشبه في بعض النواحي ما يدور في العالم الثالث، وهذا لا يعني وجود دسيسة سياسة بالضرورة، بل إن نمط الحياة في الغرب والذي يعتمد على متطلبات السوق التي تعني حاجات القارىء أو مستهلك البضاعة الثقافية عموماً، يلعب دوراً هاماً في موقف أية جهة وطريقة تعاملها من العمل الثقافي المقدم إليها، فعندما لا يكون مدرجاً ضمن حاجات السوق، هذا يعني أن الجمهور ليس بحاجة أليه. وهذا أمر إيجابي من جانب وسلبي من جانب آخر. إيجابي لأنه يدفع المثقف إلى أتون الحياة العامة وهواجس وحاجات المجتمع ليتناولها معرفياً أو أدبياً، ما يخفف من الادعاءات والمبالغة داخل نصوصه

وجعلها أقرب إلى الجدية والواقع.

ومن هنا جاء الاحتراف بمعناه الإبداعي، وأصبح الكاتب المحترف ظاهرة ثقافية واجتماعية لا بدَّ منها، وهذا لم يلغ وجود كتّاب انتهازيين مثل سلمان رشدي أو نايبول الحاصل على نوبل!) ممن نكّلوا بمشاعر المسلمين في بعض نصوصهم إرضاءً لثقافة الهيمنة الغربية، وانسجاماً مع شعورهم بالدونية إزاء الغربيين، وفقاً لاتهامات وّجهت إليهما من كتاب أوربيين وأمريكان، علماً أن كليهما من أصول هندية!

إن الكاتب في البلاد العربية قد يبعث نصاً أو كتاباً إلى ناشر ما، ويظل الناشر يتسلى بانتظار الكاتب لأسباب مختلفة، قد تكون لها علاقة بحاجة السوق وقد لا تكون، لكن هذا بذاته يُفترض أن لا يُعطّل الكتابة أو يدفع الكاتب لتحريف بضاعته كي تلائم متطلبات الناشر الذي قد ترتبط مصالحه بجهات معينة لها شروطها كما هو حال بعض دور النشر العربية التي تمتنع عن النشر للكتاب العرب المعارضين.

وإذا كان النشر ضرورة لازمة لتطوير الكتابة وحافزاً رئيسياً للتواصل، فأن مسؤولية الناشر ذات طبيعة أخلاقية ضمناً، فهو ليس تاجراً فقط، أي أن بضاعته تختلف عن أية بضاعة أخرى، إذ يُفترض أن يأخذ حساسية مهمته بنظر الاعتبار. لكن هذا الجانب بما ينطوي عليه من أبعاد متحركة ومتداخلة، لا يمكن أن يكون مُعَطِّلاً أو مُربِكاً لرؤية المثقف للحياة عموماً ولطبيعة الكتابة ضمناً، لأن العطب الحقيقي عند المثقف لا يكمن في الظرف السياسي أو الظرف الحضاري، إنما في إرتباك رؤيته لما يدور في عصره، وفي عدم قدرته على تجاوز هذا الإرتبك بالذات. أليست مواجهة الإرتباك هي مهمة الكتابة أصلاً؟!

مختبر الصراعات الاجتماعية

ومن كل هذا تأخذ الكتابة أهميتها القصوى، لا باعتبارها (رسالة) مثالية متعالية على الواقع، وإنما بصفتها موقفاً وحركة ضرورية يدل غيابها أو تزييفها على الموت المعنوي أو الخضوع لرطانة السلطة أو الانكفاء على الذات المخذولة.

الكتابة الحقيقية هي شجاعة العقل في درجتها القصوى، هي نقيض كل أنواع التخاذل والارتداد، بل هي الجمال ذاته، وتكراراً، نقصد جمال العدالة. والحرية بهذا المعنى، تأخذ بعدها الحقوقي من ذات الدلالة، رغم إن حرية الكتابة قد تثير اضطراباً أو رفضاً في بعض الأوساط الاجتماعية، ولأسباب مختلفة، لكن طبيعة هذا الاضطراب وذلك الرفض يحددهما المستوى الحضاري للمجتمع من جهة، ومن جهة أخرى دور المثقفين ونوعية الكتابة، فالكتابة هي مختبر الصراعات الاجتماعية.

إن الأدب كمؤشر نوعي على الحقيقة، حقيقة النص وجماله ودلالاته، وحقيقة الأزمة الإنسانية التي ينطوي عليها النص، هو الذي يعطي المعنى الروحي للشجاعة والتوق الإنسانيين،

لذلك فإن ثقافة السلطة ومثقفيها كظاهرة منحطة، تظل تأتي بنصوص منحطة جمالياً. إن مقاومة الانحطاط الحضاري غالباً ما تبدأ بمقاومة ثقافية. واستطراداً فإن مقاومة ظلام وهمجية الحروب الأهلية، كانت تأتي دائماً، لا من ثقافة الأطراف المتحاربة، بل من خارجها، أي من المقاومة الثقافية الرافضة للحروب ولأسباب تلك الحروب، ونستطيع مراجعة التجربة اللبنانية رغم استمرار التعقيدات حيث انهزمت أو انسحبت أو اختفت ثقافة الأحزاب والميليشيات بينما وسّع الأدباء والفنانون والمفكرون مشروع السلام وثقافته وجعلوها أكثر رسوخاً وتأثيراً وما زالوا في مواجهة مستمرة مع الإنبعاث البائس الجديد للطائفية ورموزها وأحزابها. وأجد من حقي هنا التساؤل: لماذا لم تُنتج الثقافة العراقية شخصيات على غرار الياس خوري أو زياد الرحباني وغيرهما، أو برهان غليون أو أدوارد سعيد المثقف الرصين الذي تخلى عن كل امتيازاته ليقف مع قضية شعبه الفلسطيني مواجهاً منظمة التحرير ورئيسها بكل شجاعة ووضوح خصوصاً في انحدارها باتجاه أوسلو. لماذا وإلى متى يبقى أهم رموز الثقافة العراقية صامتين عما جرى ويجري في بلادهم؟! لماذا يصمت فاضل العزاوي وبرهان الخطيب وعلي الشوك وضياء العزاوي وفاضل ثامر وغيرهم كثيرون بينما تُثقل الجروح أرض العراق وشعبه؟!

وكون الكتابة بهذا المعنى أمراً مختلفاً، فإن اختلافها يكمن في ماهيتها الحيوية، في كونها ليست بيانات أو وصفات جاهزة، بل هي تبدأ وتتطور في التساؤل عن جدوى الحرب والعنف !! ولن تنتهي بفضح أسبابهما والمستفيدين منهما، بل هي تستمر باستمرار الحياة ذاتها لتدافع عنها وَتُجدد معناها، لأن الكتابة كي تكون يجب أن تظل تدافع عن الحقيقة، حقيقة الاختلاف والمغايرة، فالكتابة موقف منحاز للإنسان، منحاز لقضية العدالة عبر التاريخ، وإلا فلن تجد من يدافع عنها.

يجب أن تظل الكتابة تدافع عن نفسها عبر دفاعها عن الحقيقة. وعبر دفاعها عن حق الاختلاف والمغايرة أيضاً، لأنه في حالة عدم الإقرار بحق الاختلاف والمغايرة، فإن الجميع يُصبح ضد الجميع وهذا ما تركته ثقافة الديكتاتورية. فليس بالإمكان أن يصبح الجميع يشبه الجميع كما كان يتوهم الديكتاتور، وتلك كانت أكثر حالات تخلفه رطانةً.

لذلك فإن النص يصبح جميلاً بقدر ما يهدد حالات الجمود والتخلف والتوتر السلبي الناتج عنهما داخل بنية الثقافة الاجتماعية، أي بقدر ما ينطوي النص على مشروع حوار، بالمستويات المتعددة لمعنى الحوار كي يصبح مجدياً لواقع حياتنا ولمعنى وجودنا بظلاله وضجيجه الغريب.

الثابت الذي لا يتحوّل في فكر أدونيس

باسل أبو حمدة

(من أبشع الحيل الفكرية أن يتكلم المرء كلام العليم بكل شيء عن المثالب في مجتمع آخر ثم يلتمس العذر لها حين تقع في مجتمعه هو)، ما أبلغ قول إدوارد سعيد هذا في (المثقف والسلطة)، وما أقدره على قراءة حالة مجموعة لا يستهان بها من المثقفين العرب، الذين راحوا منذ نعومة أفكارهم يتلطون بين أروقة الفكر التحرري والتقدمي واللليبرالي بمناسبة ومن غير مناسبة، حتى احتسبوا أنفسهم رسل الفكر الانساني المتنور بكل ما ينطوي عليه من حرية وعدالة اجتماعية وديمقراطية، إلى أن باغتهم مسلسل الربيع العربي المتدحرج وذكرهم بأن لهم مربعات أولى لا مناص من العودة إليها بين حين وآخر ولا سيما في اللحظات المصيرية الجديرة بطرح الأسئلة الكبرى.

ثلاث محطات: السليمانية، بيروت ودمشق تختزل المشهد كله؛ ثلاث وقفات تتكفل بالإضاءة على حالة تعكس تلك العلاقة الملتبسة بطبيعتها التي تجمع المثقف بالسلطة؛ ثلاث رحلات سافر في إحداها الشاعر السوري أدونيس بتذكرة إعتقد وقتها بأنها تذكرة باتجاه واحد تسمح له بالذهاب وتسد أمامه طريق العودة مرة وإلى الأبد؛ ثلاث سحابات تترك إحداها ظلالا قاتمة على تجربة يتنكّر فيها المثقف لأسئلته الأولى ولبدايات وردية باتت تبدو

بعيدة؛ ثلاثة ملامح قاتمة في فكر الشاعر السوري الكبير لا تشكل إلى غيض من فيض منعرجات لا حصر لها خاضها دون وجل وأخذته إلى مديح من لا يمدحون.

بينما كانت زيارة أدونيس الشاعر الى كردستان العراق تلاقي ترحيبا في الأوساط الثقافية، أثارت حفيظة الأوساط ذاتها عندما حولها إلى موقف سياسي مدفوع الثمن بعد أن كان أدونيس قد اعتاد أن يهاجم بشدة الأدباء العرب الكبار مثل نزار قباني ومحمود درويش وغيرهم بسبب زياراتهم إلى العراق ومشاركتهم في مهرجان المربد الشعري في ثمانينيات القرن الماضي، الا أنه وقع في الفخ نفسه عندما قبل بلقاء الطالباني ومارس الدور الذي كان ينكره على أولئك الأدباء العرب الذين كانوا يقفون مع العراق.

في تلك الزيارة التاريخية كشف الشاعر مرة وإلى الأبد عن موقفه من العرب عندما ألقى محاضرته في السليمانية تحت عنوان «انقراض الحضارة العربية»، وهو موقف يتناقض تماما مع ما جاء في مقالة نشرها في السفير اللبنانية طبعا، والتي يستنهض فيها حزب البعث العربي الاشتراكي ويطالب زعيمه بالامساك بزمام المبادرة وقيادة حركة التغيير في سوريا، متناسيا أن الذي يضع العصا تلو الأخرى في عجلة هذا التغيير هو هذا الحزب العربي العتيد نفسه تحت القيادة المزمنة نفسها، التي ضاقت رقعتها حتى استحالت على الأطر الحزبية نفسها بينما اتسعت على مصاريعها على العائلة الضيقة بكل أريحية على الطريقة البطرياركية.

هل أدمن صاحب (الثابت والمتحول) عادة التنكر لمن لهم فضل عليه ولمن ساهموا في صنع تجربته؟، ألم يتنكر في موقف سابق لمدينة بيروت في بيروت نفسها وفي مسرح المدينة تحديداً حين ألقى عام 2003 محاضرة بعنوان «بيروت اليوم أهي حقاً مدينة أم مجرد اسم تاريخي»، حملت في طياتها موقفاً سلبياً من بيروت المدينة، ومن مثقفيها وأهلها وحاراتها التي احتضنته طويلا بعد أن ضاقت به الأطر السياسية الضيقة أصلا في مسقط رأسه.

ألم يتنكر لإنتفاضة الشعب السوري ضد الطاغية وينقض عليها ويستكثر على شعب ظل طوال سنين يرزح تحت نير الذل والهوان ثورته ويبرر للجلاد فعلته ويساهم تاليا في جريمته منذ أول مقال نشره في (السفير) وراح يخاطب فيه سيده الرئيس ويناشده إنقاذ وطن مزعوم يختزل في شخص في هذه المنطقة من العالم، ويخرجه فيه من كونه جزء من المشكلة إن لم يكن جزأها الأكبر أو كلها، ويوكل إليه مهمة إيجاد حل لتلك المشكلة مغيباً ما تبقى من مكونات الشعب السوري وقواه السياسية.(؟)

مفاصل ثلاثة محلية وعربية وإقليمية إذا أضيف إليها ما يشاع كل عام عن ترشيح أدونيس لنيل جائزة نوبل للآداب وما يتطلب ذلك من مواقف وآراء تهبط إلى درجة التنازلات أحيانا لتتوافق مع توجهات اللجنة المانحة لها، فإننا ندرك مدى تقوقع الشاعر على ذات يبدو أنها قد هرمت كما الأنظمة العربية المهترأة التي راحت الشعوب العربية تعزلها الواحد تلو الآخر، وربما تجرف معها كذلك كل عقبة أخرى تقف في طريقها.. أليس من حق الشعراء أن يتنحوا أيضا؟

من آخر المقولات التي يتم الترويج لها في اللحظة الراهنة ويدعمها أدونيس هي متلازمة المسجد والتغيير، التي تدعو إلى رفض التغيير، أي نوع من التغيير طالما أن هذا التغيير يخرج من بوابة مسجد، وهي مقولة تلعب دورا فكريا تخريبيا مزدوجا بامتياز، إذ أنها تقصي عمدا شرائح اجتماعية اساسية محركة للثورة وقائدة لها وفي الوقت نفسه تعزل شريحة أخرى عن نسيجها الاجتماعي الطبيعي وتستبعد أحد أهم مكونات ركائز المجتمعات العربية الاسلامية كما تشطب حق الغالبية المطلقة في المجتمع السوري، في هذه الحالة، في المشاركة السياسية، وكأن اصحاب هذه المقولة يريدون تقزيم مشهد الحراك الاجتماعي السوري وحشره بطيف واحد، ما يقود إلى تشويهه وحرفه عن مساره الحقيقي العام فضلاً عن أنهم يحاولون مغازلة مقولة ما يسمى الحرب على الارهاب والقوى العالمية الداعمة لها، الأمر الذي يكشف زيف الرواية الرسمية التي يطرحها النظام في سوريا وترددها أبواقه في غير مكان ومقع (؟) والقائمة على نظرية المؤامرة القادمة من الخارج.

مشهد لا يحيلنا إلى الترميز في العمل السياسي المنظم والأسود فحسب، وإنما يذكرنا كذلك بمن اعتادوا العمل من تحت الطاولة لا من فوقها، ويجعلنا نكاد نقف على عمل حزبي منظم له مايسترو وله اسم وكنية وله أدواته وأبواقه التي تردد صدى الريح التي تخلّفها حركة عصا ذلك المايسترو، الذي إذا كان قد اشتهر في شيء، فإنه اشتهر بأنه يدعي ما هو ليس عليه، يقول لك أنه (إنه) ذاهب إلى اليسار بينما يسير باتجاه اليمين أو العكس.

في ظل هذا المستوى الرفيع من الانكشاف الفاضح لهذا المواقف، التي ترتقي إلى مصاف الفكر المنهجي، يتمرد السؤال ويطرح نفسه من تلقاء نفسه بعيدا عن أي نوع من أنواع المواربة: هل يتعين على المرء أن يشعر بعنصر المفاجئة (المفاجأة) حيال كل هذا التجييش الطائفي والمذهبي وكل ما تطاله ايدي النظام من أدوات؟

هذه الأصوات لا تقل وطأة على الناس من زخات الرصاص وصليات القذائف وتساهم في زيادة أعداد الضحايا الذين يسقطون جراء الخيار الأمني الوحيد للنظام الذي أهدر حتى الآن حياة ومصير أعدادا (أعداد) تفوق أعداد ضحايا ربيع براغ 1968 الذي ظل وصمة عار على جبين الاشتراكية تاريخيا، علما بأن قصة هذا الربيع تشي بأن عدد ضحايا الهجوم الاشتراكي بقيادة السوفييت على مدينة براغ لم يتجاوز الثمانين بينما بلغت أعداد القوات الغازية لها ربع مليون جندي تصحبهم عشرون ألف ألية مدرعة عدى (عدا) الطائرات.

ليس هناك أي مبرر لتبرير أي محاولة فكرية للتصدي لتيار فكري بات يطرح نفسه على الساحة السورية تحت عنوان (لا) كبيرة لمتلازمة (المسجد والتغيير) التي طرحها الشاعر السوري أدونيس في مقالاته المتكررة منذ اندلاع الثورة السورية المعاصرة، وراح يتردد صداها في بعض المحافل الضيقة المتوارية أو المتلطية وراء شعارات الغيرة على الدولة والخوف على الوطن للتستر في نهاية المطاف على الموقف الحقيقي لهذا البعض من المستجدات على الساحة السورية.

ليس هناك أي مسوغ للاستمرار في محاباة أو مجاملة من لم يرفع صوته بعد من المثقفين عالياً في وجه من لا يجيد استخدام سوى (سوى استخدام) أداة القتل وتكميم الأفواه وتشويه الحقائق.

ليس غريبا أن ينشغل عالم الفكر والثقافة من غرامشي إلى إدوارد وسعيد (سعيد) في محاولة فهم وتشخيص حيط المثقف المائل بطبيعته إلى الانتهازية، لاسيما (لا سيما) في اللحظات الحرجة والمصيرية؛ لحظات الحسم التي لا تجيد الطبقة المثقفة قراءتها إلا من منظور مصالحها الضيقة سهلة المنال بعد أن اعتاد طليعيوها على ارتداء الياقات البيضاء والقمصان الحمراء وشراويل الجنز (الجينز) وبعد أن استمروا النزول ضيوفا على الحاكم في فنادق النجوم السبعة والارتماء في أحضان نساء في عمر أحفادهم.

ليس هناك من مسوغ للتكتم على أن مقولة المسجد أو التغيير خطان متوازيان لا يلتقيان، والتي تصب أولا وأخيرا في خانة معاداة التغيير والثورة، لأنها تقوم على الاقصاء والذرائعية.

أخيرا، ليس صدفة أن يخذل أدونيس حركة التاريخ ومسار الجغرافيا ويعلن نظريته الجديدة في السياسة في مشهد يبدو أنه لا يجد فيه حرجاً في أن يتقاطع مع نظرية فرانسيس فوكوياما، رغم تخلي هذا عنها، القائمة على مقولة نهاية التاريخ تكريساً لنموذج سياسي معين هو نظام تعميم نموذج «الماغدونالزاييشن» في حالة المفكر الامريكي، ونموذج الاستبداد في حالة الشاعر السوري.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام وبشكل ملح أيضا هو: إذا كان من ثوّر الحركة الشعرية العربية في (الثابت والمتحول) وغيره من مؤلفاته الشعرية والفكرية يسير على دروب حالكة الظلمة باتت تشكل جزءا لا يتجزأ من الآلة التعبوية للنظام في سوريا، فهل يمكن أن يُنتظر ممن لا يملك أدوات الفكر والعقل ويستعيض عنها بأدوات القمع والقتل والتعذيب والتهجير أن ينحو منحى مغايرا؟



انطلاق مجلة كش ملك الإلكترونية الساخرة :

الفكاهة والسخرية والمرح من قلب الحدث الدامي

هشام الواوي

كش ملك « صرخة » تحذير شطرنجية يطلقها اللاعب بلباقة لينبه خصمه إلى أنه قد يكون في خطر محدق، لا تعني كش ملك شيئاً، وقد تعني أن « الدق » انتهى!

ترتدي مجلةٌ تطمحُ أن تكون ساخرة – على حد تعبيرِ « المتورط » برئاسة تحريرها أستاذُ السخرية خطيب بدلة – هذه التسمية، وتطلق عبر صفحاتها نداء « كش ملك » دون أن يعني أن « المكشوش » ملك فقط، لأنه قد يكون وزيراً، أو ظاهرة، أو سلوكاً، أو حتى « دجاجة »!.. وتركز على راهن سوري مؤلم تعيد تكريره وتدويره لتستخرج منه قهقهة أو ضحكة صغيرة أو ابتسامة أو حتى مجرد افترار ثغر.

تنجح المجلة في عدديها « صفر وواحد » في رش رذاذ القِرْفَة ذي الطعم اللاذع، والرائحة المميزة.

في باب تسجيل النقاط ينجح خطيب بدلة في « جَرّ رجل » روائيتين من يقرأ قصصهما يعتقد بأنهما لا تضحكان « للرغيف الساخن »، ولكن، على صفحات كش ملك، تتحول

سوسن جميل حسن ومها حسن إلى نثر المرح المغلف بالرصانة كما ينثر الساحر الأرانب من قبعته.

تتبنى سوسن حسن كائنات عجيبة أو «كشملكية»– على حد تعبير هيئة تحرير المجلة – لا يأتي التبني بمنطق المحسنة البورجوازية التي تعطف على الفقراء، ولكن بمنطق المتألم الذي يحمل ألماً «جينياً» يجبره على الالتفات إلى هذا النوع من البشر. وبإمعان النظر في الكائنات التي تحدثنا عنها الروائية نجد أنها اقرب من حبل الوريد، فهي أنا وأنت والناس الذين يمشون في الشارع وقد تحولوا إلى دمى منزوعة الأرواح تتحرك بـ«سوفت وير» مسبق البرمجة، فتحتار وأنت تتابعها، هل تبكي أم تضحك أم تصمت بخشوع؟

بدورها مها حسن تسجل حضوراً عريضاً في العدد رقم صفر، وهي تحلل– بدقة عالم الحاسبات الإلكترونية– موقفَ أدونيس من الثورة، فتخاطبه وتحاسبه وكأنها وكيل نيابة محترف، وتترك له المجال كاملاً ليتحدث مستحضرا تراثه في مقاهي باريس وإصراره على رؤية نتائج الثورة حتى قبل اندلاعها. تختصر مها حسن عتابها لأدونيس بكلمة بعيدة عن الثقافة الأدونيسية وعن فلسفة المخمل التي يتقنها هو بقولها «حين أفاق أدونيس من إغفاءته القصيرة تلك، وانتبه إلى ما يحدث في سوريا، نفخ متأففاً من جديد، وقال مخاطباً الجموع الغفيرة، الموتى والأحياء، المقيمين والنازحين، المعارضين والموالين: (شفتوا، مو قلت لكم؟ كان لازم تطلع من المقهى، من الجامعة، مو من الجامع!... لكن الرعاع لا يفهمون، عفواً أدونيس).

يتسع الأفق الساخر لمجلة كش ملك بوجود أساطين السخرية ميخائيل سعد وفوزات رزق.. يحدثنا ميخائيل عن يوميات مسافر إلى بلاد «الأمالكا».. يعلب يومياته على شكل «سيرة للتيسنة» بسرد وقائع الحاضر والماضي وبتركيز مكثف على التفاصيل، في العدد صفر يخرج ذاته التي خبرت الدنيا ويعرضها بريئة ونقية كسنواته التي جاوزت الستين فيقول ببرود المطمئن: (فتح مزدوجين») أصبح من عاداتي المكتسبة أن أستيقظ كل يوم في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، حتى في اليوم الذي أتأخر فيه بالنوم. لم يكن استيقاظي المبكر هذا سببه إيماني ورغبتي في الذهاب إلى الكنيسة إرضاء لله عز وجل وضماناً لحصتي من الجنة، ولا رغبتي في ممارسة الرياضة كي أعيش قرناً من الزمن، فما عشته يكفي ويزيد، وإنما كان لتحضير القهوة الصباحية لزوجتي».. ولا ينهي مقاله قبل أن يقبل خدي قارئه بهذه العبارة «سحبت ورائي خيبات أربعة وستين عاما في الحب والجنس والسياسة وغادرت المنزل لأرى على زجاج السيارة مخالفة قيمتها اثنان وخمسون دولارا، فلعنت نصيبي وأحلام يقظتي والتيسنة التي ركبت رأسي فمنعتني من رؤية الواقع على حقيقته (.)».

بذات الروح الرحبة يحدثنا ميخائيل في العدد واحد عن شخص آخر لفتته التيسنة فتيبست حواسه وبصيرته فيقول بانه «أنعم الله عليه بخلقة طبيعية، فكان في طفولته ومراهقته سوياً ككل أبناء جيله، لا يختلف عنهم إلا فيما يرثه الابن عن والديه من مورثات

طبيعية كطول القامة أو قصرها، أو لون الشعر والعينين، وبما يرثه اكتساباً كالانتماء إلى دين ما، دائما هو أفضل الأديان، وعشيرة هي خير بني البشر، ومنطقة جغرافية، هي دائماً جنة عدن حتى لو كانت صحراء. أما ما عدا ذلك فهو ككل البشر، له رأس فيه عينان وأنف ويحمل أذنين. كما أن له أطرافاً أربعة يستخدم اثنين منها للسير، وأشياء أخرى زائدة لا مبرر لذكرها كاللسان والعقل وغيرهما.» ثم أصبح: «يعرف، ليس فقط أنواع الأبواط، وإنما كم يساوي كل نوع منها، قبل أن يكحل عينيه بمرآها، بل أكثر من ذلك، فقد غدا يمتلك القدرة على إعطاء مواصفات جلد أي حذاء بمجرد أن يشم رائحته، متفوقاً في ذلك على ذواقة الخمور والعطور، ومع أن آخرين كانوا يتمتعون بقدرات مماثلة في هذا المضمار، إلا أنه كان يزيدهم خبرة تجلت في قدرته على تمييز رائحة الجوارب ورائحة التعرق وفصلهما عن رائحة الجلد، التي تدل بدورها على نوع الصياد وجنس الذبيحة».

فوزات رزق يمسك الإستمارات النضالية ليملأها على طريقة فرع فلسطين بالشاردة والواردة، دون أن ينسى الصورة الشخصية والرأس الحاسر الجائز لملئه «بالإيديولوجيا».

الاستمارة الأولى تملؤها بتلة، ولا يبدأ حبرها بالجفاف حتى يتم إلغاؤها تلقائياً، لأن مالئي استمارات الانتساب المقبولين لا تنطبق طهارتها عليهم، أما الاستمارة التالية في العدد الأول فتُملأ بشكل جماعي من قبل طلاب الصف السادس الذين يرددون مقولة «يا شارون ويا سفـّاح الطلايع نزلت عالساح.. ياشارون ويا سفـّاك طلايعنـا بتتـحداك.. يا شارون سماع سماع نادي ع كلابك ورجاع. هزاع الرافض وغير المؤمن بهذا النوع من الصراخ يتم نقله إلى أقاصي الشرق بعد توصية ممن يوقعون بالموافقة على طلبات الانتساب.

كانت فكرة ذكية من الكاتب إذ نقل «المشاغب» هزاع إلى أقاصي الشرق حيث تبزغ الشمس وبإيحاء عميق أحببنا هزاع رغم «يباسة رأسه».

أحمد عمر يتقمص دور رئيس عصابة ويقف على باب «شي ضَرَبْ قَتَلْ» يتحرك فيه بخفة «الحلواني» فيخرج من تحت يديه المعمول والبرازق. يتحدث في العدد صفر عن الغش والخداع والإشتراكية والصمود والتصدي، ويصف جمال كاسندرا ثم يعرّف أسوأ أنواع الغش على الشكل التالي: «أن تشرب منقوع التين الأسود المغلي وتقول شاي سيلاني، وتأكل الزفت وتقول عسل ملكي، أن تقول نعم وأن تصفق لقاتلك ومخرسك، وتنظر إلى وجهك في المرأة فترى وجه عدو ليس من صداقته بد!!»

ويتابع في العدد الأول على ذات الوتيرة فيتحدث عن مزبلة التاريخ ودريد لحام والفرق بين الطبنجة والفرد بحضور ما تبقى من عامودا: لم يكن قد بقيٍ من عامودتي التي صرمتها، شيء كثير. النهر تبخر والغيوم جفت، والنجوم غدت أقل لمعاناً في الليل، وبورصة العصبية والطائفية في ارتفاع.

وفي مثل هذا المناخ المتصحر تتخلق كائنات كـ«مجو» الشاعر الذي يشبه جو عامودا الجديد. ومجو بات يحاضر في البراغماتية البعثية، والمقاومة والممانعة، ويشرحها لزوجته:

المقاومة هي مقاومة الشعب من الحصول على حريته، والممانعة هي ممانعة الديمقراطية.. المقاومة والممانعة هي شريط أحمر كالذي يوضع حول مكان حوادث السير والجرائم لحين وصول المختصين (في الدول المتقدمة). يخلع ابن العم «فرده» ويضعه تحت المخدة ويقول لي معتذراً. ابن العم.. والله هذا الفرد للحماية الشخصية.. ولا علاقه له بـ(عبادة الفرد)!! فأنا أنا لا أعبد سوى الواحد القهار».

وينحّي إسلام أبو شكير القصة القصيرة جانباً لسرد جوانب هزلية في واقع مر، وهو ليس الأديب الوحيد الذي يشارك «بكش الملك» فهناك عقاب يحيى الذي لا يعرض بضاعته إلا مع الدمغة ولو كانت «مُعارضاً».

سامر قطان يتنكر في زي «صائغ» تدمغه المجلة بدمغة (السبائكي عيار أربعة وعشرين قيراط) يلتقط من بلاد الفرنجة مشاهد تفيد «كش الملك». المكسب يأخذ شكل القيمة المضافة بوجود «ظل» صدقي إسماعيل عن طريق تلميذه النجيب غازي أبو عقل فيعود بنا إلى مجلة ذات طبيعة متفردة لم يوجد لها شبيه في كل الدنيا وهي مجلة (الكلب) التي كانت تكتب باليد وتوزع باليد وتنتقل من يد إلى يد لتستقر بشكلها «البكر» على صفحات كش ملك.

اللمسة المؤثرة حين يفرد خطيب بدلة مساحات لا بأس بها لأقلام «يافعة» جميلة اكتشفها بنفسه أو وقعت عليها اصابع سكرتيرة التحرير صبا جميل التي تفقعنا «قنابلها الصوتية» وتمسك مكبر «كولومبو» لتجوس في أرجاء الانترنت بحثا عن عبارة مثقفة عميقة وساخرة.

رامي سويد يعدد البيادق فيصفها ويبعثرها مجدداً، ويكتب من قلب المعمعة نصوصاً وسيناريوهات دافئة.

وماهر أبو راي يتخذ من خط «الشحار والسخام» متراسا ليسدد كلماته، وكمايسترو يضبط إيقاع السرد الساخر(.) يغلف خطيب بدلة مجلته بشيء من الغموض اللذيذ عندما يعتمد على شخصية غامضة تتقمص شكل الحمار وتكتب كالبني آدمين حكماً حمارية تفوح منها «عبقرية» بيدبا الفيلسوف.

تجمع غزالة شمسي مفارقة تحمل في طياتها سخرية فهي صحفية وموظفة فتهدهدنا مواسية «أيه يه بسيطة» عن الوظيفه بطريقة تفقيع المرارة، وخير الدين عبيد الذي يكتب في العدد الأول بالإزميل ضربة على الحجر وضربة على الورق الأبيض.

إن جهد الكاتب المخلص واضح في هذا العمل ودعم بعض الأسماء اللامعة ساعد في انطلاقها الصاروخي كمساهمة الأديب صبحي حديدي والمخرج حيثم حقي، وقد تكون افتتاحيات رئيس التحرير الأستاذ خطيب بدلة فاتحة للشهية لتساعد في التهام بقية الوجبة.

تحمل صفحات المجلة كمية كبيرة من المرح وتكاد تخلو بشكل تام من التجهم مما يضع القارىء في «البيئة الحاضنة» للضحك، ليس ذلك الضحك المجاني الفارغ الناتج عن

«التنكيت» هو أشبه بالنظر إلى المرايا المقعرة أو المحدبة التي تظهر الأجسام بوضع مختلف ربما أكثر دقة، مما يبعث على الضحك بمرارة.

خلت المجلة بشكل تامٍ من الشعر إلا ما نقلة غازي أبو عقل عن مجلة الكلب وهو نوع من التوثيق أكثر منه شعراً، وتخصيص بعض الصفحات للشعر «الحامض» قد يخلق جوا مختلفاً من الإثارة، ومقاربة الإبتسام بطريق مبتكرة لا تقدر عليها المقالات العادية.

نقد

«الخائب» لتاج الدين موسى:

الحضور والغياب

عبد الرحمن حلاق

ينطلق القاص تاج الدين موسى في مجموعته «الخائب» من بنية مجتمعية أقل ما يمكن وصفها بأنها مستلبة، ولك أن تستعير من الصفات الناجمة عن الاستلاب ما تريد من عجز وقهر، وقلق، ورعب، وأخيراً يمكن أن نصل إلى درجة من اليأس تدفع أبناء هذه البنية إلى نوع من التواؤم والتكيف مع هكذا واقع، وإن على حساب كرامتهم أو حريتهم، وحتى على حساب قيمهم التقليدية، اجتماعية كانت أم دينية، ما أدى إلى الانغماس في كل ما هو نفعي وآني، وقلة قليلة آثرت الانغلاق على ذاتها لتعيش حالة اغترابية قاسية بسبب إحساسهم المؤلم بالعجز من جهة وحفاظاً على جذوة قد تعبر عن بصيص أمل في المستقبل وهذا ما تبدى في قصة: «آخر الرقصات».

أن يغيب الأخ الأكبر عن البيت غياباً قسرياً فتلك مصيبة ولا شك، يأخذها إخوته بشيء من الألم ويتلقاها الأبوان بألم مضاعف يصاحبه همّ وغمّ دائمان، ونادراً ما تجد أحداً منهما يسعى للتكيف مع الأمر من أجل متابعة الحياة، بل إنهما يحاولان تكييف الحياة مع هذا المعطى الجديد فيتحول أمر الغياب إلى نوعٍ من الهواء الثقيل، يكفي، بصعوبة، لاستمرارية الحياة وغالباً ما يموت أحد الوالدين كمداً. تبقى الأم الأقدر على تكييف هذا المعطى مع

الحياة، فتصبغ عيش العائلة بلون الغياب مخادعة بذلك الموت ذاته بأمل تتشبث به لحين تحققه، ولأن الأخ الأصغر أبعد أفراد العائلة تأثراً بهذا المعطى، نراه الأكثر قدرة على الحديث عنه فيبدو كالمراقب المحايد للحدث، لذلك اختاره الكاتب وبذكاء راوياً لهذا الحدث، واختار أن تكون الأم الشخصية الرئيسة في القصة، أما الحدث فهو أثر الغياب، الغياب في المعتقل حصراً.

لا تتحدث القصة عن آلام المعتقل أو تعذيبه، ولا ترصد أسباب اعتقاله، ولم يحدثنا الكاتب عن نضال المعتقل، وكذلك لم يتطرق إلى التحولات التي طرأت عليه إلا من خلال إشارات دالة وذلك في آخر فقرة في القصة. ما تتحدث عنه القصة هو السيرورة التي خلقتها الأم لتكيّف الحياة مع حدث الاعتقال، تتحدث عن أثر الاعتقال على الأهل، حيث تسعى الأم جاهدة وخلال سنوات طويلة على إيهام العائلة بحضور الغائب بينهم من خلال الإبقاء على كرسيه وصحن طعامه وملعقته، وتذكير الأخوة (الإخوة) بطباعه ورغباته وأمنياته. في الوقت ذاته يرصد الراوي أثر الزمن على الأم صحياً ونفسياً، فنراها وهي تشيخ رويداً رويداً، تصر على الخروج إلى الطريق العام حيث ينزل المسافرون لانتظاره، وذلك بشكل يومي فالضيعة كبرت ولن يتعرف الغائب بيته عندما يجيء، هذا الخروج اليومي لا دافع له في قلب الأم غير جذوة الأمل التي احتفظ قلبها بها، هذه الجذوة ستستعيد اشتعالها بمجرد وصول الغائب وبالتالي ستعيد لهذه الأم العجوز حيويتها بحيث سترقص رقصتها الأخيرة في استقباله، فرحة بعودته بحيث تضاهي في رقصها حيوية ونشاط صبايا القرية. وبهذا يتجسد حضور الغائب في غيابه، أما أثر الاعتقال في المعتقل فقد تبدى واضحاً من خلال غيابه في حضوره (أهي السَّكْرة كانت ذهبت يا أمي، وجاءت الفَكْرة؟ أم هو الفرح الذي أعمى بصرك، بصيرتك؟ إن أخي لم يكن أخي يا أمي.. أخي كان ممشوقاً، باسماً، شاباً، ممتلئاً، وكان شعره مسترسلاً، يغني وقت الغناء، ويرقص وقت الرقص، ويدبك وقت الدبكة، ويحكي إذا حضر الحديث.. أما الشخص الذي جاءنا البارحة، فقد كان ضئيلاً، هرماً، محني الظهر، على رأسه بضع شعرات بيض، لم يعبأ برقصك، ولا بدربكة خالتي، أو بغناء صالح، أو بفرح الناس من حوله بعودته.. كان ساهماً طوال الوقت، ينظر إلى لا شيء، لم ينطق بكلمة واحدة منذ وصوله.. حتى من الأحاسيس لم يكن عنده شيء.. فلو كان عنده شيء منها، لوجدنا لقبلاته حرارة.. لحضنه دفئاً.. لبقي معي هنا، عند قبرك، ولو لدقائق، بعد انتهائنا من مراسم دفنك..) (1)

أما في بقية القصص فسنجد أنفسنا أمام هذه البنية الاجتماعية المستلبة والمقهورة وهي تغرق في مستنقع كل ما هو نفعي وآني، وستعكس كماً هائلاً من الفساد قد زحف ليس إلى المنظومة الإدارية للدولة فحسب بل طالت أرواح ونفوس أبناء المجتمع المحكوم بالرشوة واستغلال المناصب، ففي قصة «موت الابن» نجد أنفسنا أمام صورة بانورامية توضح معنى أن يصل الفساد إلى النفوس ويعطب الروح، ففي الوقت الذي تتحدث فيه الأم وعبر الهاتف إلى

ابنها المقيم في المدينة عن الحالة الصحية التي تتدهور رويداً رويداً للأب، كان الابن يصعد درجات السلم الوظيفي ويحلم أن يصل إلى أعلى درجة وذلك عبر طرقه الملتوية ونفاقه لمن هم أعلى منه بدءاً بالمحافظ وانتهاءً بالوزير.

وفي الوقت الذي يسمع الابن نعوة والده في مسجد القرية يكون قد قطع شوطاً في سلم الانتهازية والنفاق، وما بين الدرجة التي كان عليها والدرجة التي وصل إليها نجد الكاتب يرصد معاناة الأم والأب مع المرض والفقر ووعود الابن العاق بالتدخل السريع لإنقاذ والده من بين براثن المرض، وقد كان قادراً منذ أول تلفون أجرته معه أمه من دار المختار أن يأتي بسيارته الحكومية المكيفة لنقل والده إلى طبيب اختصاصي لعلاجه، ويملك القدرة المالية التي تغني والدته عن بيع بذار الأرض أو قطعة أرض لعلاج والده.

يموت الأب حسرة على رؤية ولده في حين يموت الابن في عيني والدته وأهل قريته، وكعادته لا يلجأ تاج الدين موسى إلى لغة خطابية لإدانة شخصية تشكل جانباً ممن أصيبت أرواحهم في مقتل ونفوسهم في علة لا يبرأون منها، فهو يجيد التقاط الجانب الإنساني وملامسة الجوهر الحقيقي للمأساة ويقدمها من خلال لعبة قصصية يجيد استخدام أدواتها بشكل بارع.

ومن خلال الإشارات التي يقدمها عن الابن الميت نراه بداية ينتقي سكرتيرته من بين أكثر من مئة وخمسين متسابقة للوظيفة، فهي تجيد بشكل واضح آلية إنقاذه من الانهيارات العصبية المفاجئة، في حين رفضت اثنتان في المؤسسة التي يديرها الاستمرار معه حفاظاً على حياتهن الزوجية، كذلك نجد إشارة أخرى حول تلكؤه المستمر في زيارة القرية فهو لا يكاد يسافر إليها سوى مرة واحدة في الشهر أو في الشهرين وذلك لسويعات قليلة. أما الإشارة الثالثة فهي عدم استجابته في ثلاث مكالمات من أمه لرجاءاتها الخاصة له بالحضور ليطفئ شوق أبيه إليه وهو على فراش المرض. في الجانب الثاني استطاعت الأم من خلال مكالماتها أن تعكس حالة الفقر والعوز اللذين تعيشهما العائلة، وفي الوقت الذي تتحدث الأم بكل حب تجاه ولدها الوحيد، يجد المتلقي نفسه بحالة غثيان من سفالة هذا الانتهازي الذي لا يرى سوى سلم مجده الخاص، يصعده عبر خطابات النفاق لمن هم أعلى منه مرتبة.

جانب آخر من جوانب الفساد في مفاصل النفس والروح معاً، يرصدها الكاتب بذات الروح الإبداعية وذلك في قصة «الصحفي الجريء» عبر حوارية تهكمية بين (الصحفي الجريء) وأحد المواطنين حيث يموت والد المواطن بخطأ طبي في المستشفى. وفي الحوار ذاته يتجلى الفساد واضحاً في أحد المستشفيات لكن الفساد الأبشع كان في نفس هذا الصحفي الذي اتضح أنه على صلة وثيقة بصاحب المستشفى وبالدكتور الذي أجرى العملية وبالطبيب المخدر وحتى بالممرضة، وبناء على هذه الصلات يرفض إجراء تحقيق صحفي يكشف فيه الفساد في المستشفيات السورية، وتعكس هذه الحوارية مدى العطب الذي طال مفاصل السلطة الرابعة التي تعد الملجأ الأخير للمواطن. وفي قصة «الحج والناس راجعون» صورة

أخرى من صور الفساد يرصدها تاج الدين موسى من خلال رصد رغبة أحد أبناء القرى ممن وصلوا إلى مركز قيادي حساس وصار بمقدوره أن يعين أهل قريته وأقربائه في المراكز التي تتبع له فيما كان يسمى بالمحسوبيات. وكما رأينا في قصة الصحفي الجريء أن العاملين في المستشفى مجموعة أقارب وأصدقاء كذلك في هذه القصة نجد أي مسؤول يسعى في بداية استلامه إلى تحويط ذاته بمجموعة من المعارف والأصدقاء يكونون سنده في وقت لاحق.

لا شك أن القاص تاج الدين موسى يجعل قضية الإنسان المستلب في صلب اهتمامه؟ وهذا كفيل لأن تكون رؤيته الفكرية والإنسانية أكثر عمقاً وأوضح طرحاً، ولأنه لا يتاجر بالشعارات وأبسط من فيلسوف فقد استطاع التوصل إلى تقنية قص غاية في البساطة تقارب كثيراً ما يطلق عليه «السهل الممتنع» فهو لا يطلق أحكاماً جاهزة وإنما يجلو الغبار عن الصور الفوتوغرافية للواقع؛ إنه ببساطة يقشر التكلس بصبر عالم آثار، نرى كيف نقل لنا سفالة الابن في «موت الابن» من دون أن يقول عنه أنه سافل. لقد جعل المتلقي هو من يصدر حكماً، بذلك يكون قد جعل المتلقي شريكاً تفاعلياً في إعادة إنتاج النص.

لقد اتبع تاج الدين موسى هذه التقنية في جميع قصص المجموعة، حتى بتلك التي اتكأ فيها على الموروث واستعار منه المثل الشائع (الطاسة ضايعة) ليركب منها قصة تعد واحدة من أنجح قصص المجموعة. وذلك في قصة: «البحث عن الطاسة الضائعة» حيث يستكمل فيها عرضه الوافي عن الفساد، وبصورة تهكمية ساخرة أقرب إلى الكوميديا السوداء وذلك من خلال رمزية الطاسة الضائعة ملقياً الضوء على مسلسل الرشاوي من أصغر موظف إلى أكبر موظف، مبيناً طريقة كل شريحة من الموظفين في فنون استحلاب الرشوة من المواطن، ونراه في هذه القصة يستورد خبيراً في إيجاد الطاسة الضائعة عله يضع حداً لهذه المسرحية الهزلية، لكنه يؤكد حالة العجز ثانية من خلال إجابة الخبير في نهاية القصة، حيث يشير إلى أنّ الجميع يعرف أين هي الطاسة من أصغر إنسان إلى أكبر إنسان، ولم يتجرأ أحد على إحضارها. أما لماذا لم يتجرأ فهذا السؤال ربما تكمن إجابته الآن على الأرض السورية حيث يحاول الشعب أن يأتي بها. ومن خلال إجابة الخبير هذه نستشف إلى أي درجة تنازل المواطن عن حريته وعن الكثير من مفاهيمه وقيمه الدينية والاجتماعية بآن واحد، وانغمس كلية في منظومة المنفعة الأنانية وحب المكسب الآني بما يعكس ذروة الفجيعة في الاستلاب المجتمعي، وهذا ما نجده واضحاً وجلياً في قصة «سباق دون خط نهاية» والتي يمكن تلخيصها في سؤال بسيط مفاده: «كيف تحول بلداً إلى وكر دعارة مرخص؟» من خلال رصده لحالة التسابق بين خلف وخليف على جذب الزبائن إلى برّاكة على الطريق تنمو لتصبح استراحة، فمقصف، فمقصف بمشروب، إلى مقصف بغناء، ومن ثم إلى مقصف بفرق رقص، ومن ثم إلى مقصف ببنات متعة، إلى فندق، إلى تحويل شباب وبنات الضيعة لمجرد عمال وبنات هوى. وكل ذلك بمباركة رجال السلطة بفضل ما يصلهم من هدايا مالية وعينية، كانت أحد الأسباب الرئيسة لضياع «الطاسة» وبالتالي لسعي الشعب السوري الآن

لاستردادها. لقد عاش الكاتب عمره ينتظر هذه اللحظة إلى أن جاءت وشارك فيها بفعالية عالية من خلال ما كان يعقد في مدينة إدلب من ندوات ثقافية خاصة بالثورة، إلا أن القدر لم يمهله ليكحل عينيه بثمار هذه الثورة.

*** الخائب مجموعة قصصية للقاص تاج الدين موسى**
منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ـ 2006
ـ الخائب ص 19 ـ 20

نقد

هيكل: دعم الديكتاتورية وتشويه ميراث عبد الناصر

محمود عبد الرحيم

ربما أكون من الناصريين القلائل، الذين لا يقدسون محمد حسنين هيكل ولا يعتبرونه مرجعية ناصرية، أو يمنحونه لقب«الأستاذ»، ولم أسع للقائه يوما كما فعل كثيرون، متفاخرين بنيل هذا «الشرف العظيم» ومباركة «الكاهن الأعظم»، وإن التقينا صدفة، قبل سنوات، وصعدنا معا في اسانسير «اتحاد الصحفيين العرب»، في حفل تأبين الراحل تريم عمران رئيس المجلس الوطني الاتحادي الاماراتي، ومؤسس مؤسسة «دار الخليج» الصحفية، حيث رفضت أن أتنحى جانبا ليصعد قبلي، بحسب نصيحة من كانوا حضورا، ومبهورين بهيكل، والنظر إليه أنه أهم منهم، ويجب أن يتقدم الصفوف، ويتم كسر كل القواعد من أجله، وهذا الموقف البسيط العابر بيني وبينه، يحمل دلالة واضحة على موقفي من هذا الرجل، بالطبع، غير الشخصي، وأنما من مجمل مواقفه وتاريخه المستفز.

وكنت وما زلت أنظر إلي هيكل كرجل كل العصور، وليس رفيق الزعيم عبد الناصر الصدوق، أو رمزا من رموز ثورة يوليو المجيدة، فمن الثابت أنه امتدح الملك فاروق على صفحات مجلة «روز اليوسف»، وكان يتقرب لطبقة الباشوات، ثم التصق بقادة ثورة يوليو، وصعد صعوده الكبير معها، وحين رحل ناصر، وظهرت أزمة الحكم والخلافة، كان من

الداعمين للسادات، ويُنسب له تاريخيا أنه كان مهندس «انقلاب مايو» الشهير الذي سماه السادات «ثورة التصحيح»، الذي كرس لضرب مكتسبات ثورة يوليو وتوجهاتها لاحقا، وتشويه عبد الناصر ونضالاته.

ثم أن هيكل سعى للتقرب من مبارك، ودخل ابنه في «علاقات بيزنس» عليها علامات استفهام، وكانت محل قضية جنائية مع أبني الديكتاتور العجوز مبارك، وفتح قنوات اتصال قوية مع المجلس العسكري، وحدث اتصال بينه وبين الإخوان كذلك إبان وجودهم في الحكم، ثم بات الناصح الأمين، حاليا، للجنرال السيسي.

ولم يسمع عن هيكل يوما أنه طرح مشروعا وطنيا، أو قاد مبادرة نحو التغيير أو الديمقراطية، أو حمل لواء النضال، أو وقف في وجه السلطة، فيما عدا الصراع السلطوي مع السادات الذي سارع بإزاحته في الفصل الثاني من مرحلة حكمه، بعد استتباب الأمر له، وأخذ «شرعية حرب أكتوبر»، بعد أن خشي من نفوذ هيكل وأطماعه في السلطة، واستمرار فرض الوصاية عليه.

ومن المعروف أن هيكل حرص أن يأخذ مسافة كبيرة عن الجماهير، ويعيش «حياة باشوات» ما قبل ثورة يوليو، بذات نمط الحياة بما في ذلك تدخين «السيجار الكوبي» والعيش في القصور، حيث كان ولا يزال مشروعه الوحيد الذي عمل عليه طوال حياته الممتدة، ليس مشروع الوطن ولا المواطن، وأنما مشروع هيكل نفسه، أي المجد الشخصي، والبقاء في دائرة الضوء والتأثير، حتى النهاية.

صحيح أن الرجل لا يمكن إنكار حدة ذكائه، ومعاصرته لأحداث تاريخية مهمة وقربه من دوائر صنع القرار، ومهاراته المتعددة، وقدرته على بناء شبكة علاقات داخلية وخارجية، مكنته من الاستمرار، حتى بعد أن أعلن «الاستئذان في الاعتزال»، ثم تراجع، ولم يطق الابتعاد عن مشروع عمره، لكن كل خبراته ومؤهلاته مكرسة لمشروع الشخص، لا الوطن.

وربما مبرر حديثي عن هيكل الآن، هو ذكرى رحيل الزعيم عبد الناصر، فضلا عن أنه أصبح جزءا رئيسا من المعادلة السياسية الراهنة، بلعب دور المستشار للجنرال السيسي، بشكل غير رسمي بالطبع، وتقديم نصائح تربك المشهد المرتبك أصلا، وتفسد من جديد أية بادرة لتحول ديمقراطي في مصر، وتعمل على التأصيل لديكتاتورية يتم إعادة إنتاجها، فضلا عن قلبه للحقائق، والربط الفاسد بين زعامة حقيقية، وزعامة مفتعلة صنعها على عينه.

بالإضافة إلى ان هيكل هو من يتوسط بين السيسي حاليا، وبين قيادات الاخوان لدفعهم للقبول بالأمر الواقع، وانجاز صفقة تضمن لهم عدم الخروج نهائيا من اللعبة السياسية.

ومنذ 30 يونيو وحتى الآن، تلمس أصابع هيكل في كل ما يحدث في مصر، وأعتبر أن اكبر جريمة ارتكبها هو محاولة تسويق السيسي على أنه ناصر جديد، ونصحه باستحضار اليسار، وبشكل خاص بعض الناصريين ممن يتصف بعضهم بالسذاجة والبعض الأخر بالانتهازية إلى صدارة المشهد، ليوفروا له غطاء شعبيا، ويساعدوه في معركة صراع السلطة

مع الإخوان، بذات الطريقة التي فعلها السادات في السبعينات حين أراد مواجهة اليسار من شيوعيين وناصريين الذين كانوا يقفون له ولسياساته بالمرصاد، فكان إن استحضر الجماعات الإسلامية، وخاصة الإخوان وأعطاهم حرية حركة واسعة لتقويض المعارضين له.

فضلا عن النصح بحملة دعائية ضخمة تعزف بقوة على أوتار «النزعة الوطنية» و«المؤامرة الخارجية» بذات خطاب الخمسينات والستينات، رغم أن الفارق شاسع والمعطيات على الأرض مختلفة بين السيسي وعبد الناصر، وبين تلك الحقبة التاريخية الماضية وبين اللحظة الراهنة.

فحقبة ناصر كانت بالفعل تعج بالمؤامرات والتحديات الخارجية، وهذا مفهوم في سياق أن عبد الناصر كان قائدا ثوريا يقود معركة استقلال وطني حقيقية، ويقوض الاستعمار القديم «انجلترا وفرنسا» بدعمه حركات التحرر الوطني حول العالم، ويناطح الاستعمار الجديد الصاعد «أمريكا»، ويهدد مصالح أمراء الخليج، خاصة السعودية، بدعم الثورة اليمنية، ويحاصر الكيان الصهيوني ويهدد بقائه بمشروع الوحدة العربية الذي تجسد بصورة مبدئية في «وحدة مصر وسوريا».

والأهم من ذلك، شروع ناصر في بناء نهضة مستقلة على كافة المحاور، والسعي للاكتفاء الذاتي، والدخول في مرحلة الصناعات الثقيلة، بما في ذلك الصناعة الحربية، بالترافق مع توسعة رقعة الأرض الزراعية، مع قاعدة ثقافية وتعليمية قوية تنتصر لمفاهيم ثورية جديدة، وتأصل لمرحلة جديدة في تاريخ المصريين قوامها العلم والعمل، وليس التمايز الطبقي، أو الارتماء في أحضان المحتل، وسط شعار له مغزى «يد تبني ويد تحمل السلاح».

فأين السيسي من كل هذا، وهو فعليا، ووفق المعطيات الواقعية، وريث مبارك وطنطاوي، اللذان أتيا به وقاما بتصعيده، كما أنه يسير على نهج السادات صاحب هذه المدرسة المشؤومة، وليس ناصر بأية صور من الصور، سواء من حيث الإيمان بما تمليه واشنطن على مصر، الذي تلقي تدريبه فيها واستفاد من برامج المساعدات العسكرية لمصر بشكل مباشر، والنظر إلي أمريكا وسياسات التبعية أنها قدر محتوم لا يجب تحديه، بما في ذلك توجه الرأسمالية المستغلة، والنأى بمصر عن الخروج خارج حدودها الجغرافية الضيقة، وليس حدودها السياسية المتسعة، الا حين تحتم المصالح الأمريكية ذلك، وليس أدل على ذلك من أن تدخلات أمريكا في الشأن المصري في أدق تفاصيلها مستمرة حتى اللحظة، ولم تتغير توجهات الحكم أو تتحول قيد أنملة، وأنه بينما تم استدعاء السفير المصري من تونس اعتراضا على مطالبة الرئيس التونسي بإطلاق سراح مرسي ورفاقه من السجن، لم يتم المثل مع الأمريكان أو حلفائهم الأوروبيين، الذين أصروا على لقاء قيادات الإخوان داخل السجون ومن بينهم مرسي، فكان لهم هذا، حتى في لقاءات ليلية، والتنسيق العسكري الأمريكي المصري، وتلقى المعونات الأمريكية ما زال قائما أيضا، والعلاقات مع الكيان الصهيوني والاتصال المشترك يوميا لم ينقطع، و»كامب ديفيد» التي ستظل عارا يطارد السادات في

قبره، يتم التمسك بها والتعامل معها ك »بقرة مقدسة«، رغم أن تلك العلاقة تحديدا من التابوهات الناصرية، ولا جدال فيها، وقد تم عرض ما هو أكثر مما ناله السادات على ناصر ورفضه، وفضح مثل هذا الأمر في خطاب موثق في ارشيف التليفزيون، وفند الهدف الأبعد من التطبيع، وهو الخطر الداهم على الأمن القومي العربي برمته، وإخراج مصر من معادلة القوى في المنطقة، وليس فرض الكيان الصهيوني كأمر واقع والقبول به، وإنما جعلها القائدة للإقليم.

ثم أنه كان لدى عبد الناصر شعبية حقيقية، وليست مصطنعة تحت تأثير آلة الدعاية الضخمة التي تقودها أجهزة الأمن والاستخبارات، وخلق فزاعات، واستثارة غريزة الخوف، التي تستدعي أن يهرول الناس بشكل تلقائي إلى من بيده القوة، ظنا أنه يمثل لهم الحماية، حتى لو لم يكن هذا الشخص أو الجهة أمينة عليهم، ولا على مصالحهم، وتعمل على استغلالهم.

وخطورة هيكل هذه الأيام تحديدا هو في حرف أنظار الجماهير وطليعتها التي تبحث عن حكم مدني ديمقراطي، بينما مازال يروج لشرعية القوة والأمر الواقع، و آليات لسيطرة السيسي على حكم مصر، وخلاصة قول هيكل للميس الحديدي في لقائه معها مؤخرا أن مصر لا يصلح لحكمها حاكم مدني، خاصة هذه الفترة، وإنه نظرا لمعارضة المجتمع الدولي و قوى عديدة في المجتمع لحكم عسكري الذي يرى فيه نوعا من الإقصاء للعسكريين الذين من بينهم كفاءات وتحتاجهم الشعوب في كل العالم كما في أمريكا وفرنسا في حقب تاريخية سابقة، فانه يمكن أن يتم الاتفاق على صيغة أخرى ادعى انه لا يعرفها حاليا، لكنه لمح لمجلس رئاسي، ومشاركة في السلطة وتوزيع المهام بين رئيس الجمهورية ووزير الدفاع أو حسب قوله «صاحب شرعية القوة».

وقول هيكل ربما يكون النصيحة التي قالها أو سيقولها للسيسي وهي أن يستمر في الحكم من وراء الستار بشرعية القوة، ويتم خداع الشعب مرة أخرى بشرعية الصندوق الوهمية وحاكم خيال مآتة.

الملفت انه امسك العصا من المنتصف، حيث المح لتأييد حاكم عسكري، ولم يقولها بخبثه المعتاد بشكل صريح، لترك مساحة للمفاجآت وتغيير موازين القوى على الأرض، وإن صرح بوضوح بضغوط تمارس على السيسي ليترشح للرئاسة القادمة.

ولعل مشهد زيارة السيسي لقبر عبد الناصر في حضور هيكل ونجله عبد الحكيم الذي يؤيد حكم قائد الجيش لمصر لا يخلو من دلالة، ويستكمل المشهد العبثي والدعاية المفضوحة التي رصدناها آنفا غير أنه يجب التأكيد على أن عبد الناصر أكبر من زيارة قبر والتقاط صور تذكارية، وفوق أحزاب بلا جماهير وقيادات انتهازية تتاجر بأسمه، ولو كان حيا لبصق عليهم وتبرأ منهم جميعا.

فعبد الناصر الذي اعرفه وانتمي إليه ثورة وطنية عروبية تحررية، وتجربة حكم منحازة

لمصالح الوطن والمواطن، ومبادئ وقيم نضالية وانجازات على الأرض، وليس طقوسا فارغة المضمون، أو مادة للمزايدة والاستغلال لأجندات ومصالح.

ولذا ناصر سيظل خالدا، بشكل مادي ومعنوي، وليس كأسطورة أو وسيلة دعاية، كما يروج الكهنة الفاسدون والانتهازيون، ولن يكون من ضربوا بمبادئه عرض الحائط، وأهدروا ميراثه، وشوهوا تاريخه خلفاء له بأي حال.

جحيم الثقافي / فردوس السياسي

ابراهيم اليوسف

يكاد لم يبق أحد، من المعنيين بقضايا الفكر والثقافة والفن، إلا وتناول العلاقة بين ثنائية المثقف والسلطة، في كتاباته ودراساته، ومن خلال وجهة نظره، وإن كانت هذه العلاقة، في نهاية الأمر إشكالية، حيث تظل – رغم وضوحها– من القضايا الأكثر تعقيداً، إذ أن الجانب الواضح منها، وهو ضرورة أن يكون لصاحب الرأي موقفه من السياسي، لا سيما في لحظة ممارسة هذا الأخير استبداده العام، حيث لابد من أن تتم مجابهته من قبل المثقف، على اعتباره – في حالاته العادية – صاحب الضمير اليقظ، والرؤيا النظيفة، والسلوك السليم، الرافض لأن يكون أداة يتم توظيفها، وتسخيرها، في خدمة السياسي، لاسيما أن هذا الأخير، عند اغترابه عن الالتزام بالقيم العليا، لا ينظر في الأول، إلا من خلال بوابة ما هو منفعي، كي يستعين به، في مواصلة ابتزازه، وعسفه، وفساده، ورميه– في ما بعد– قلماً مكسوراً، تفوح منه رائحة التهافت والسقوط، فاقداً للمصداقية، بل فاقداً للدورالمناط به، حتى وإن كان قد قدم–في الجانب الآخر– أعمالاً إبداعية، أو فكرية، يشاد بها، لأن مثل هذه الأعمال ينظر إليها، من خلال مستويين: أحدهما تقليدي، يتم خلاله الربط بين الأثر وصاحبه، وثانيهما حداثوي ينطلق من مفهوم » موت المؤلف « ليتم تشريح الأثر والمؤثِّر – بكسرالثاءالمشددة –

كل وفق معايير خاصة، من دون أي خلط بينهما البتة.

وإذا كان السياسي يمتلك أداتين مهمتين، هما :السلطة والمال، حيث يستطيع من خلالهما اكتساب أشباه المثقفين، ما يدفع لسيلان لعاب بعض المثقفين، ممن يقعون في الفخ، هنا، تحت تلك الغواية التي قد لا يستطيعون مواجهتها، فإن المثقف ليمتلك أداة، هي الأكثر قوة وفزعاً، من قبل السياسي، وهي »الكلمة«، ما يدفعه هو الآخر، للعمل عبر أساليب كثيرة، إما من أجل كسبها، أو تحييدها، أوإطفائها، وهي أساليب، لاتنجح، إن لم يدخل المثقف إلى جانب السياسي، ضد أهله، بل حتى أقرانه، ممن يفترض أنهم يشكلون جبهة ثقافية واحدة، حيث يرتضي بعضهم، بالقيام، بدور «حجليٍّ» يقوم طائر الحجل بالصداح كي يجمع زملاءه في خدمة الصياد الذي يوقع بهم ويقتنصهم – في الوقت الذي تكون هناك أسئلة كثيرة، يجب الإجابة عنها من قبله، كما هو حال بعض عناوين ثورات ربيع المنطقة التي يراد وأدها– إذ تتم عطالة دور المثقف، وجعله تابعاً في إحدى الجوقات، بعيداً عما هو مطلوب ومنتظر منه، في أصعب فترة، يمر بها أهله ودياره....!.

ثمة عقدتا نقص –إذن – لدى كل من طرفي ثنائية: الثقافي/ السياسي، يشعر بها، كل منهما من جهته، إذ أن الثقافي الذي لا يثق بكلمته يجد أنه من الضروري الاستعانة بالسياسي، لاسيما أن مثل هذه الاستعانة تعني له سلامته التي هي: موت، كما أنها تعني فتح أبواب الفردوس الأرضي أمامه، الفردوس الذي يجرده من كل الخصال التي قد تحققها له كلمته وموقفه، الطبيعي، في القضايا الكبرى، وقد يزداد الأمر خطورة، عندما يغدو هدفاً لقمع السياسي، حيث الترهيب، هو الوجه الآخر للترغيب، في سلوك السلطة، أوالغواية والإلغاء، الأمر الذي يتفاقم، بالغاً أعلى مستوياته، في الظروف غير العادية التي يمرُّبها المكان الذي ينتمي إليه طرفا الثنائية، نفسها،وقد يستطيع الثقافي التعالي على عقدته، من خلال موقفه، فيما إذا ارتقى إلى مستوى حاجة من يعول عليه، من العامة، لاسيما إذا انطلق من أن سلطة خصمه إنما هي موقوتة، وإن سلطة كلمته هي الأقوى، والأهم، والأبقى، حتى وإن كان ثمن ذلك غالياً، وعلى حساب قوته، ورقبته، مادام أن الموقف الذي يبدو لأول مرة، جحيماً، هو في صميمه فردوس، كما أن فردوس الآخر، لا يعدو في حقيقته أن يكون جحيماً..!.

كتاب العدد

بحسب تسلسل النشر

صادق جلال العظم
كاتب سوري

عزمي بشارة
مفكر عربي

توماس بيرييه
كاتب واكاديمي بريطاني

محمود الزيبق
كاتب واعلامي فلسطيني

عدي الزعبي
كاتب سوري

محمد شاويش
كاتب فلسطيني يقيم في المانيا

خلدون الشمعة
ناقد سوري

فادي عزام
كاتب سوري

سليم البيك
كاتب فلسطيني

انور بدر
كاتب سوري

احمد عمر
كاتب سوري

غسان جباعي
مسرحي وكاتب سوري

إبراهيم صموئيل
كاتب وقاص سوري

ابتسام تريسي
كاتبة سورية

رضوى فرغلي
كاتبة مصرية

غفران طحان
كاتبة سورية

رفيق شامي
كاتب سوري يكتب بالالمانية

حسن البقالي
كاتب مغربي

جيم كلارك
قاص ايرلندي

شريف صالح
قاص مصري

تاج الدين موسى
قاص سوري

يارا بدر
كاتبة وناشطة حقوقية سورية

خلف علي الخلف
كاتب سوري

هاشم شفيق
شاعر وروائي عراقي

فرج بيرقدار
شاعر سوري

اكرم قطريب
شاعر سوري

احمد بغدادي
شاعر سوري

غمكين مراد
شاعر سوري

منير مطاوع
روائي مصري

كريم عبد
شاعر وكاتب عراقي

باسل ابو حمدة
كاتب فلسطني

هشام الواوي
كاتب سوري

عبد الرحمن حلاق
كاتب سوري

محمود عبد الرحيم
كاتب مصري

ابراهيم اليوسف
شاعر سوري



لوحة الغلاف للفنان التشكيلي اسماعيل الرفاعي